صحوة جنيزة

باقي للنشر والتوزيع

المدير العام / أسماء محمد نافع
مدير النشر / محمد عبدالرازق

رواية: صحوة جنيزة

تأليف: سارة عبد المجيد

مراجعة لغوية: أحمد شعبان

تصميم الغلاف: أحمد الصباغ

التنسيق الداخلي: أسماء عطا

رقم الإيداع: ٢٠١٩/١٤٤١٥

التدمك:٩٧٨-٩٧٧-٦٧١٨-٠٩-٨

جميع حقوق محفوظة ©
لا يجوز، دون الحصول على إذن خطي من الناشر،
استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا المصنف، أو استنساخها
أو نقلها، كليا أو جزئيا، في أي شكل وبأي وسيلة، سواء بطريقة
إلكترونية أو آلية، بما في ذلك الاستنساخ الفوتوغرافي، أو التسجيل أو استخدام
أي نظام من نظم تخزين المعلومات واسترجاعها

All rights reserved. No part of this book may be reproduced in any form or by any electronic or mechanical means, including information storge and retrieval systems, without permission in writing from the publisher,except by reviewers, who may quote brief passages in a review

رواية

صحوة جنيزة

تأليف

سارة عبد المجيد

الطبعة الأولى ٢٠١٩

((أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية)).

(٢٠، ٢) سفر الخروج.

((لا يكن لك آلهة أخرى أمامي)).

(٢٠، ٣) سفر الخروج.

بقلم بنيامين...

((تتوالى الأيام.. وكي لا أنسى.. قررت تدوين أحداث حياتي البائسة لتظل معاناتي تطالعني.. فمتى لمعت الدنيا في عيني، ولاح بريقها في الأفق ذكَّرت نفسي بقسوتها التي لا تبقي ولا تذر.. وذكَّرت نفسي بحقيقة كوني دُمية في يد القدر، يعبث بها كيفما يشاء..))

بنيامين شمعون

الفصل الأول

"يا إسرائيل العصر"..

"يا إسرائيل العصر"..

هكذا بدأت حكايتي.. نداء مجهول فاعله.. مجهول فحواه.. مجهول مغزاه..

أتاني في ليلة من تلك الليالي الساحرة.. ليلة تكفَّل البدر بإضاءتها معلنًا هيمنة ألقه وسطوة بهائه على بساط السماء، مقدمًا دعوة لكل ساهر لأن يفتح قلبه لهدى الرب.. وكنت أنا أول المستجيبين..

ولكن حكايتي لها جذور، وجذورها تمتد لتبتعد عن تلك الليلة لتصل إلى ليلة مولدي. لم يكن ميلادي كميلاد سائر الأطفال أدخل البهجة والسرور على أسرتي الصغيرة.. فمنذ ليلة مولدي في الإسكندرية عام ١٩٣٠ والمعاناة قدري المحتوم..

فكان حظي العسر برفقة قابلتي ليستقبل قدومي وكأنني وليده، ومنذ تلك اللحظة أبى التخلي عني، ليظل متشبثًا بي بكل ما أوتى من عزم.. ملازمًا أياي وكأنه قريني.. حتى أن البعض رأى في شخصي النحسَ متجسدًا في صورته الخام.. فقد داهم أمي مرض عضال عقب ولادتي مباشرة، فحال حظي العسر بيني وبين نبع حنانها.. ليحرمني من أن أنهل العطف من ثدييها.

تقاذفتني المرضعات غير راغبات، إلى أن أتممت العام الثاني من العمر.. وحينها تدخل مرة أخرى حظي العسر ليثبت كفاءته في سلبي حقًا أصيلاً

أنعم به الرب على كل وليد سواي.. فقد أنشبت المنية أظفارها بأمي حتى قضيت نحبها في هدوء وسكينة، وكأنها لم تكن قط، رحلت دون أن تحفر ذكرى في نفسي، وصورة عالقة في ذهني..

لم أجد من يعتني بي سوى أبي.. الذي كان يقتله فراقها في كل ليلة.. فقد عجز- رغم محاولاته البائسة- عن تقبل الأمر الواقع.. وعلى الرغم من حداثة سنّي فإنني كنت أرى الحزن يعلن سطوته على ملامحه المستسلمة، ليترك على وجهه أعتى علامات الفقد، واتخذ الدمع من وجنتيه سبيلاً وهديًا، ليشق أخدودين لن يمحوهما الدهر.

وكأن فاجعة موت أمي سلبته الرغبة، بل والقدرة على العيش، ولكنه أَبى أن يستسلم لقبضة الموت دون صراع.. فحاول جاهدًا التشبث بدنيتي كي لا يذرني وحيدًا.

ولكن في نهاية المطاف، وبعد صراع طال لخمس سنوات كاملة، أنهكت قواه، فتهاوي كبالون جذبت سدادته، لتعلن قبضة الموت انتصارها في مشهد ملحمي نسجه خيالي، فخلفته صريعها، وخلفتني طفلاً وحيدًا ذا سبعة أعوام، أعاني الصدمة والخوف من الغد.

وفي ليلة وفاة أبي تسلل شعور قاتم إلى قلبي، فخُيل لي وكأنني طفل نسيه والداه في مدينة ألعاب، غُلّقت أبوابها عليه في ليلة غاب عنها القمر، فانتزع صمام الأمان من بين أضلعي لتغرس محله الوحشة والخوف من الغد.. ورأيت ليلتها من الموت- عدوي القديم- حليفًا ألوذ به من حياة غاب عني طيبها، واختبرت قسوتها باكرًا.

فتمنيته بشدة.. ولكنه أبي لا يأتي لمتمنٍ..

وفي تلك الليلة اجتمع الجيران لتقديم واجب العزاء لخالتي التي أمست كل عائلتي.. ظلَّ الحاضرون يرمونني بسهام نظراتهم التي تحمل من العطف والشفقة الكثير، ليزيدوا من أحزاني وآلامي، وكأن لسان حالهم- انظر لحالك يا مسكين!! من لك الآن بعد فقدك أبويك!! وكيف ستحيا وحيدًا!!- حاولت تحاشي نظراتهم التي كانت تؤلمني وتوغر صدري أكثر من كونها تواسيني، حتى طفقوا يتباحثون أمري، ومن عساه يرعاني ويقوم على أمري، إلى أن استقر الجمع على اختيار خالتي.. وذلك لكونها ما تبقي من عائلتي في مصر.. ولكنني في تلك اللحظة رأيت في عينيها نظرة وجلة مترددة، وكأنها تبحث في دهاليز عقلها عن عذر قد يقنع الحاضرين بضرورة إعفائها من تلك المهمة.. وذلك إلى أن ترددت بقول:

-ولكن.. .. زوجي قد لا يتقبل الأمر.

نظر لها الحاضرون نظرة غير المصدق.. إلى أن بادرت إحدى الجارات بالقول:

- ماذا تقولين يا حبيبتي؟!! هذا ابن أختك، ولم يعد له الآن سواك.. فكيف تتخلين عنه بتلك البساطة؟!! من يتسنى له رعايته سواك؟!!

فردت خالتي بنبرة مرتعشة:

- ولكن زوجي لا يتقبل الغرباء.. وأخشى أن يسيء معاملته أو أن ينهره.. هذا إن تقبل وجوده في حياتنا من الأصل.

احتدت لهجة جارتنا، وقالت بنبرة متهكمة:

- إذن إلقي به إلى الشارع كالكلاب الضالة، ونامي قريرة العين إلى أن تقابلي أختك في الآخرة وتبلغيها بتخليك عن فلذة كبدها.

طرقت خالتي إلى الأرض بناظريها، ثم قالت بخفوت:

- حسنًا.. سأحاول إقناع زوجي.

قالتها خالتي ثم نظرت لي نظرة لائمة، حيث إنني من وضعها في ذلك الموقف الحرج الذي لا تعلم سبيلاً للفكاك منه.

وفي لحظتها وجهت جارتنا حديثها نحوي مشيرة إليّ بأصبعها لتعجلني بالحركة، فارضة سياسة الأمر الواقع قائلة:

- اذهب يا بنيامين وأَعِدّ حقيبتك لتذهب للعيش عند خالتك.. ولا تقلق على بيت والدك سأظل أعني به حتى تصير رجلاً قادرًا على تحمل مسئولية نفسك.

وبالفعل وجدتني مسيرًا لا مخيرًا أتوجه إلى غرفتي لأعد حقيبتي على الرغم من يقيني من عدم رغبة خالتي بهذا الأمر.

أخذتني خالتي للعيش معها وهي مرغمة؛ وكانت هذه المرة الأولى التي ألج فيها إلى بيتها.. فزوجها لا يرحب بالزيارات العائلية، ولذلك كانت هي من تزورنا- أنا وأبي- على فترات متباعدة من باب الواجب لا أكثر، متجاهلة واجبها في ضرورة مساعدتها لأبي في القيام على رعايتي بعد وفاة أمي.. ومنذ الوهلة الأولى من ولوجي إلى البيت أصابتني حالة من الضيق، وكأن هناك حجرًا عملاقًا جثا فوق صدري.. فقد لاحظت أن البيت منظم بشكل مبالغ فيه، وكأن الحياة تجانبه.. لا يحمل روحًا.. كل شيء في محله بصورة تبدو وكأنه خلق على ذلك النحو، وسيظل هكذا إلى

يوم يبعثون.. وقد أرجعت هذا في حينها إلى افتقاد البيت لمرح الأطفال وحيويتهم، فخالتي عاقر، لم يهبها الرب نعمة الإنجاب.

قابلنا زوجها بنظرة متفحصة، فعاجلته مشيرة إليّ في تردد وقالت:

- هذا ابن أختي بنيامين.. لم يعد له الآن أحد سواي.

ثم ازدردت ريقها بكثير من العسر وأكملت:

- أرجو أن تتقبل وجوده معنا حتى يشتد عوده، ويستطيع تدبر أمره.

ظل يرمقني بنظرة جففت الدماء في عروقي.. وقد بدا لي حينها عملاقًا.. أشعث الشعر.. داكن البشرة.. فتصورته وكأنه أحد غيلان الأساطير التي كان أبي يقصها على مسامعي قبل النوم.. فتملكتْ جسدي رجفة والتصقتُ بخالتي متحاشيًا نظراته.. وجَّه حديثه إلى خالتي وعيناه لم تفارقاني بعد قائلاً:

- اتبعيني..

خفضت خالتي يديّ، واللتين كانتا متشبثتين بثوبها، وتبعته في وجل إلى غرفة جانبية.

مكثتُ في محلي أحاول استراق السمع، ولكنني فشلت في سماع حديثهما.. وبعد مضي عدة لحظات عادت خالتي دامعة العينين لتحيطني بذراعيها قائلة بنبرة ادعت المرح وعلى وجهها ابتسامة:

- هلم أفرغ حقيبتك في تلك الغرفة.. لقد قبل وجودك معنا، ورحّب بك كثيرًا..

بالطبع كنت أعلم أنها تكذب، وأن اللحظات الماضية شهدت الكثير من الدمع الذي أذرفته حتى تسترق قلبه القاسي، وأعتقد أنه وافق على وجودي في حياتهما مضطرًا؛ خشية من كلام الناس إذا ما أبى..

توجهت إلى الغرفة التي أشارت إليها- والتي أمست غرفة اعتقالي- في صمت..

ومنذ ذلك اليوم اتخذت من الصمت حليفًا. توالت الأيام عليّ في رتابة.. وخلالها لم تمنحني خالتي من الرعاية والاهتمام سوى ما جعلني أحيا فقط، من مأكل وملبس، أما عن مشاعر الأمومة، فلم أختبرها مطلقًا، وظلت بالنسبة لي طلسمًا لا أدري كنهه.. ولطالما تساءلتُ عن شعور الطفل عندما تحتضنه أمه.. ولكن على الرغم من وحشتي فإنني التمست لها عذرًا؛ فزوجها إنسان يمتلك قلبًا كجلمود صخر، لا تعرف الرحمة إليه سبيلا.. وهي كانت تخشي الاعتناء الزائد بي حتى لا يتهمها بإهماله فيلقي باللوم عليها.. بالإضافة إلى كونها عاقرًا؛ فكيف لها الشعور بعواطف قد حرمت منها بأمر من الرب!.

ونتيجة لذلك كنت دائم التواجد بغرفتي.. لا أتحدث كثيرًا.. فكنت كصندوق أسود لطائرة محطمة في قاع البحار.. لا أسمح لأحد أن يعلم ما يجول بخلدي، يومي مقسم ما بين الدراسة والتعبّد، ومن ثم الخلود إلى النوم.

توالت الأعوام، عام تلو الآخر وأنا على الحال نفسه، مرورًا بأعوام مراهقتي التي اجتزتها محتفظًا بكامل ثباتي.. فلم أختبر عواطف المراهقة كباقي أقراني.. حتى انقضت عشرة أعوام كاملة، وأنا مازلت وحيدًا أحيا

في بيت خالتي، فأصبحت على مشارف الرجولة وخط شاربي. وهنا رأى زوجها ألّا مكان لي بينهما، وأنه قام بواجبه كاملاً، ولا يستطيع أحد أن يلقي باللوم عليه إذا ما طالبني بالعودة إلى بيتي..

جاءتني خالتي في ذلك اليوم لتبلغني بقراره، وفي عينيها ترقرقت عبرة جاهدت لإخفائها، وما أن أخبرتني حتى أشاحت بعينيها بعيدًا عن عينيّ خجلى.. بالطبع شعرت بألم يعتصر قلبي، وكأن الدنيا أخذت على عاتقها لفظي خارجها. ولكن على الرغم من الغصة التي أصابت حلقي، والألم الذي أوغر صدري، فإنني كنت أتوقع حدوث ذلك في يوم من الأيام.. بل وأنتظره.

لملمت بقاياي ورحلتُ في صمت.. وللمرة الأولى أرى نظرة حب في عين خالتي مشوبةً بالحزن والأسى.

رحلت في صمت، ولكنني قررت ألّا يوجد مكان للضعف في روحي بعد الآن.

لن أسمح لقلبي بأن يُدمى بأمر أي إنسان.. فمنذ الآن أنا سيد نفسي.

كابدت عذاب الوحدة تحت جناح الإيمان والتقرب من الرب لأستمد القوة والعزة.. فوحده الرب من بقى لي بعد أن رحل عن عالمي كل أحبائي.

قرأت كثيرًا في التوراة، حتى شارفت على حفظ أسفار كاملة.. فبعثت على يديها خلقًا جديدًا.. ومن خلالها اطلعت على تاريخ أُمتنا المجيد، ولم أكتف بالتوراة وحدها، فتأملت عظمته في كتب تاريخية كثيرة.. فكم نحن شعب عظيم فضلنا الرب على العالمين!!

انتابني شعور بالعزة والفخر العظيم لانتمائي لذلك الجنس السامي.. واستشعرت مدى قرب الرب منا ليهدينا، ويرشدنا في كل خطواتنا.. فنحن أبناؤه المخلصون..

انتظمت في حضوري كل سبت في الكنيس؛ لأستمد العظة من الحاخامات، وعُرف عني الالتزام بتعاليم ديننا..

وفي ١٤ مايو عام ١٩٤٨ كان الحدث الأعظم في عمر اليهود وهو إعلان قيام دولة إسرائيل، بعد انتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين.

وقد أعلن "ديفيد بن غوريون" الرئيس التنفيذي للمنظمة الصهيونية قيام الدولة الإسرائيلية، وعودة الشعب اليهودي إلى أرضه التاريخية قائلاً: "إنه لمن الحق الطبيعي للأمة اليهودية لأن تكون أمة في دولتها ذات سيادة، مثلها في ذلك مثل سائر أمم العالم".

الفرحة لم تسعني عندما علمت بأمر هذا الإعلان، فهذه الأرض ملك لنا بحكم التاريخ. ولكن بالطبع لم يتقبل العرب هذا الحق، فأعلنوا الحرب على إسرائيل، ولكن إسرائيل نكّلت بهم، وأذاقتهم كأس الهزيمة.. وعلى الرغم من هزيمتهم الشنعاء فإنهم أصروا على عدم اعترافهم بدولة إسرائيل، ولكن هذا شأنهم، فاعترافهم من عدمه لن يغير من الحقيقة شيئًا..

انقضت أعوامي ما بين الدراسة ومناجاة الرب.. وبداخلي إصرار عظيم على التقدم واجتياز أية صعوبات تواجهني.. وبالفعل شعرت وكأن هناك قوى خفية تلبّست روحي، فأعادت خلقي أقوى وأعز من ذي قبل.. وبدأ الأمل في الغد يداعب مخيّلتي.

سعيت للتفوق في دراستي كي أحتل مكانة مرموقة في المجتمع الذي أحيا به.. وبالطبع اضطررت للعمل إلى جانب الدراسة كي أتمكن من العيش مستقلاً، دون السماح لأحد بمد يد العون لي.. فمن أراد أن يحيا سيد قراره فلا سبيل أمامه سوى أن يكف يده عن العوز والحاجة.. وإن كان مقدرًا لي الحياة فسوف أحياها كما ينبغي لي..

وبالفعل تخرجت في كلية التجارة جامعة الملك فاروق.. وعملت محاسبًا بأحد مكاتب الصرافة التي نمتلكها نحن معشر اليهود.. وما أكثرها!!.. فمعظم اليهود يعملون إما في الصرافة وإما في التجارة، وهذه آليتنا لنتحكم في اقتصاد أغلب دول العالم، فيخضعون لنا.. وهذا ما نستحقه، فنحن الجنس الأعظم..

أبناء الرب..

وما لبثت حتى احتللت مكانةً مرموقةً في مجتمعنا اليهودي.. وأثبتُ جدارة في العمل، يسعى لنيل شرفها الكثيرون.. حتى صار صاحب العمل لا يستطيع الاستغناء عن خبراتي، ومهاراتي المتعددة.

وقد تشعبت شبكة علاقاتي، وأصبح لي من الأصدقاء الكثيرون.

وفي خضم تلك الأحداث السعيدة، حاولت تناسي آلامي السابقة، فالحياة تفتح لي ذراعيها لتعوضني عما أفقدتني إياه..

فهنيئا لي.

ولكن طوال تلك السنوات المنقضية ظلت عواطفي حبيسة صدري، فقد نحيت عواطفي إلى الغد، والغد ظل يأتي بالغد إلى أن شارفت على نهاية العقد الثالث من العمر..

حتى قابلتها..

اسمها راشيل.. فتاة نضرة في بداية العقد الثالث.. تنبض بالحياة.. وتبث الحيوية والبهجة في كل من يسعده حظه بالاقتراب منها.. وعلى الرغم من كونها لا تمتلك قدرًا وافرًا من الحسن، فإن روحها المرحة تطفو على قسمات وجهها، فتمنحها سحرًا من نوع آخر، قلما تصادفه بين قريناتها..

رأيتها في حفل زفاف صديق لي.. فجذبتني بتلك الروح المرحة التي كنت في أشد الاحتياج إليها.. فلمعت عيناي لمرآها.. ونبضت كل خلاياي بالحياة.. وتأججت بداخلي عواطف كنت قد جاهدت لإخمادها طوال أعوامي المنصرمة.. وللمرة الأولى دق قلبي كطفل عنيد اكتشف لتوه أن لقدميه نفعًا.

لم أسقط ناظريّ عنها طوال الحفل.. فتتبعتها في كل تحركاتها كمخبر يجيد عمله.. حتى حانت اللحظة المناسبة، فاقتربت منها وعلى وجهي ابتسامة تحمل من الود الكثير قائلاً:

- بنيامين شمعون.. محاسب وصديق العريس..

فابتسمت بدورها بعد أن صُبغت وجنتاها بلون الزهور ثم قالت:

- تشرفنا..

- أتمانعين لو..

قاطعتني قائلة:

- اعذرني.. فعليّ الرحيل..

قالت جملتها، ثم أطلقت لقدميها العنان، وفي لحظات اختفت عن ناظريّ..

ارتجف قلبي وعزمت على التقدم لخطبتها على الفور.. وقد كان.. ذهبت لمقابلة أبيها في صبيحة اليوم التالي لحفل الزفاف في محل إصلاح الساعات الذي يعمل به، فبدا لي من الوهلة الأولى رجلاً وقورًا، قسماته تنم عن طيبة وسماحة تدفعك إلى أن تستفيض في الحديث، فما يكن منه إلا أن يقابل حديثك بإنصات يغلفه الاهتمام والأريحية.. شرحت له طبيعة حياتي الماضية، وما كابدته من معاناة وآلام، إلى أن انتهيت بطلب يد كريمته.. ولكن ردة فعله فاجأتني، فقد آثر الصمت للحظات مفكرًا، ثم قال:

- أي بني.. أتعلم من هي راشيل بالنسبة لي؟

- ابنتك..

- لا.. ليست فقط ابنتي.. بل هي أول فرحة حقيقية تسللت إلى قلبي.. أول ابتسامة من القلب.. هي نبع الحيوية والمرح لكل أسرتنا التي بفراقها ستغيب شمس حياتنا..

- بالطبع.. فهي باكورة أبنائك.. ولكن لا تقلق عليها إذا ما وافقت على مطلبي.. فهي ستُعامل في بيتي كملكة متوّجة على عرشها، ولن ينقصها شيء.. أعدك..

هز رأسه في رضا ثم قال:

- ولكن اسمح لي ببعض الوقت كي أمنحك الجواب.. فلا بد من أخذ رأي راشيل أولاً.. ألا تتفق معي؟

فأسرعت بالرد:

- نعم فهذا حقك.. فقط ذكِّرها بي.. فقد قابلتها في حفل زفاف صديقي يوسف أمس.. قل لها بنيامين الذي استوقفك في نهاية الحفل فأبهرتيه بخجلك وحسن أخلاقك..

ابتسم الرجل بلطف لمجاملتي الضمنية ثم قال:

- حسنًا لن أنسى.. ولا تقلق، فما فيه الخير لكما سيكون بأمر الرب..

وبعد مضي عدة أيام ذهبت إليه فأعلمني بموافقته.. وأعتقد أن ما سهل الأمر سمعتي الطيبة.. إلى جانب امتلاكي القدر الكافي من المال، الذي جمعته بكدي وجهدي، والذي يضمن توفير حياة كريمة لابنته.. وبالفعل تم حفل الزفاف في عجالة في البيت الذي قد تركه والدي إرثًا لي، ولم يكن حفلاً بهيجًا.. فلم يحضره سوى عائلتها وعائلتي، المتمثلة في خالتي وزوجها فقط..

عيناها لم تر سواي منذ تزوجنا، وهذا أمر متوقع؛ فأنا شاب وسيم، على قدر كافٍ من البهاء.. لا يمكن أن يجمعنا مكان عام إلا وصوبت الفتيات أنظارها نحونا.. ليحسدونها على حسن طالعها الذي جمعها بي بلا مبالغة..

وفارق العمر الذي بيننا جعلها في عينيّ طفلة.. وكنت في عينيها أبًا.. وقد كانت زوجة مطيعة، لينة الرقبة، تقدر الهبة التي منحها إياها الرب.. فلا تعصي لي أمرًا.

وأنا أحببتها بحق.. فالجمال ليس كل شيء.. فهي منحتني الحنان الذي حرمت منه طوال عمري.. والذي تفيض به كنهر جارف.. فعوضتني فَقْد أمي.. ولذلك فحياتنا اتسمت بالتوافق والانسجام، وكأنها صفحة مياه هادئة يتحاشاها التيار.. وكان ابننا يوسف ثمرة زواجنا في عامه الأول..

*****

الفصل الثاني

إلى أن أُهْديت النداء في ليلتي المقمرة.. ليلتها حلمت بأن هناك هاتفًا يتردد ليدعونني بصوت جهوري قائلاً:

" يا إسرائيل العصر"..

" يا إسرائيل العصر"..

استيقظت من نومي تتملكني الحيرة..

ولكن ما إن سطعت الشمس بأشعتها النافذة إلى الروح، مبددة كل الأوهام التي تدعو للحيرة، حتى تناسيت كل شيء، ولم أشغل بالي كثيرًا، معتبرًا إياها أضغاث أحلام لا أكثر..

ولكن ذات الحلم تكرر عدة مرات في ليالٍ متفرقة.. مما دفعني تلقائيًّا إلى محاولة تدبر أمره فترة ليست بهينة.. حتى هداني تفكري إلى الهجرة إلى إسرائيل.. وفي ذلك الحين استشعرت أن حياتي ستأخذ منعطفًا جديدًا، الرب وحده من سيهديني إليه.. فالرب أعلم بضرورة هجرتنا من الدول العربية التي لم تعد تسعنا، وبخاصة بعد حرب ٥٦.. فقد دبَّ الصدع بين اليهود والعرب، واشتعل الصراع العربي الإسرائيلي، ولا نعلم متى سينتهي.. ولا لصالح من!!!

وقريبًا لن يفرِّق العرب بين اليهودية والصهيونية، وسيصبح وجودنا أمرًا غير مرغوب فيه..

فلم الانتظار؟؟.. وإسرائيل تفتح ذراعيها لأبنائها.. وأنا فرد منهم.. الحياة هناك ستكون جنة الرب التي وعدنا بها على الأرض.

لقد وعدنا الرب بأرض الكنعانيين، ووصانا بها.. وها هي تمد لنا يدها لنبدأ من جديد في عالم هو ملك لنا بدعوة من الرب.. فنحن شعب الله المختار وأبناؤه المخلصون.

وبذلك اتخذت قرار الهجرة إلى إسرائيل.. لعل لي هناك خيرًا وفيرًا سييسره الرب لي..

ولذلك أهداني تلك الرؤيا..

أبلغت زوجتي بهذا القرار، ولكن ردت فعلها فاجأتني.. فقد رفعت حاجبيها في استنكار ممزوج بالدهشة وقالت:

- ماذا؟! إسرائيل؟! أجننت؟ ماذا تقول؟!!

رمقتها بغضب شديد قائلاً:

- لقد اتخذت قرارًا، ولا رجعة فيه.

احتضنتْ يدي بين راحتيها في حنان، في محاولة منها لتهدءتي وقالت:

- ولكن حياتنا وذكرياتنا في مصر.

- مصر الآن تلفظنا.. لن يسمح لنا النظام السياسي الحالي بالتواجد أكثر من ذلك.. ما هي إلا مسألة وقت وسيتم تهجيرنا منها بالقوة.. فلن يفرق المصريون بين اليهود والصهاينة.. وخاصة بعد أن دفعت بريطانيا وفرنسا بإسرائيل للعدوان على مصر.. كلنا مشكوك في انتمائنا الآن.. فلم الانتظار؟!

أشاحت بوجهها بعيدًا ثم قالت:

- ولكن مصر هزمت إسرائيل بالفعل، فلماذا ستتجنى على مواطنيها الذين لم يعرفوا سواها وطنًا منذ ولدوا؟!

زفرت في نفاد صبر وقلت:

- أنت مخطئة.. مصر لم تنتصر بالقوة العسكرية كما أشاع إعلام عبد الناصر.. ولكنها انتصرت سياسيًّا بعد أن أنقذها الاتحاد السوفيتي حين أنذر بضرب لندن وباريس وتل أبيب بالصواريخ الذرية.. إلى جانب توجيه أمريكا للدول الثلاث بالانسحاب الفوري من الأراضي المصرية.. ولذلك فعبد الناصر لن يترك ثغرة تسمح لإسرائيل بالعبور من خلالها مرة أخرى.. وللأسف نحن- معشر اليهود- نمثل ثغرة في النظام الأمني.. فالقيادة تنظر لكل منا على أنه مشروع جاسوس..

وأردفتُ بلطف:

- مستقبلنا في إسرائيل.. تلك هي الحقيقة الواقعة الآن.

أصرت على الجدال قائلة:

- أي مستقبل هذا الذي تتحدث عنه؟!!.. هناك عالم لم يتشكل بعد، ولا ندري ماذا سيكون حاله غدًا.

- سيكون نعيم الرب.

تخلّت عن يديّ وترقرقت في عينيها عبرة لم تسعى لإخفائها، علها تسهم في التأثير على قراري ثم قالت:

- وكيف لك معرفة هل سيكون نعيم الرب أم جحيمه؟

- لقد وعدنا الرب بأرض الكنعانيين، وها قد آن الأوان.

- ولكن عائلتي هنا و....

قطبت وجهي استياءً.. ثم قلت:

- حُسم الأمر، لقد اتخذت قرارًا، وما عليكِ إلا الطاعة..

ثم استطردت:

- سوف أقوم بتصفية أعمالي ونستعد للرحيل.

فاستسلمتْ لعبراتها التي انحدرت تلهب وجنتيها الحمراوين على مرأى من عينيّ.. وأشاحت بوجهها بعيدًا، ثم قالت بخفوت:

- كما تشاء.

ما تبقى أمامي الآن سوى تصفية أعمالي.. توجهت في صباح اليوم التالي إلى مكتب الصرافة الذي أعمل به، وفور وصولي طلبت مقابلة المدير للتقدم باستقالتي.. والذي نظر لي مندهشًا ثم تساءل:

- لماذا؟ هل هناك من أساء إليك يا بنيامين؟

فرددت مسرعًا:

- لا أبدًا أستاذي.. فلطالما أحسنت معاملتي والزملاء كذلك.. ولكنني قررت الهجرة من مصر.

— إلى أين؟

- إلى إسرائيل.

اعتدل في جلسته، ثم قال بنبرة تحمل في طياتها نوعًا من التحذير:

— ولكن نحن لا نعرف بعد ما سيؤول إليه الحال هناك.

- سوف أسافر وأبدأ من هناك، مثلي مثل كل المهاجرين..

- وعائلتك.. ما مصيرها؟

- بالطبع سآخذ ابني وزوجتي معي.

عقد حاجبيه في استنكار قائلاً:

- هل هذا قرارك الأخير.

- نعم.

تنهد في يأس ثم قال:

- حسنًا، وفقك الرب.

ابتسمت محييًا إياه وقلت:

- أشكرك.

خرجت من المكتب مفعمًا بأمل عظيم في الغد.. ولكن ظل في حلقي تساؤل تجنبت طرحه.. وهو "لماذا يحمل رجل في كياسته كل هذا القلق تجاه مستقبل إسرائيل؟!!"

ودّعت أصدقائي في العمل على وعد باللقاء ورحلت.

الفصل الثالث

استغرق الأمر عدة أيام حتى أنهيت كل أموري العالقة في مصر.. فقد شريت البيت الذي كان أبي قد تركه إرثا لي، والذي لا يحمل لي سوى ذكريات تعسة، يستثني منها فقط ذكرى يوم زفافي على راشيل بثمن مناسب يسمح لي في المقابل بتوفير بيت لائق في تل أبيب.. وعزمت على ألا أعود لتلك البلد ما حييت.

هاجرنا إلى إسرائيل عام١٩٦٢ أنا وراشيل وابننا الوحيد يوسف، الذي يبلغ من العمر عامًا واحدًا.

وفور وصولي استطعت الحصول على منزل مناسب في تل أبيب وسيارة صغيرة..

فقد نجح بنو إسرائيل منذ عام ١٩١٧ في تمهيد الطريق أمام المهاجرين الجدد، مستغلين فقر العرب الجهلاء، فأغروهم بالمال حتى استطاعوا استرداد أراضينا، ومن لم يصلح معه المال فكانت القوة تتحدث، فهم انتزعوها منا بالقوة منذ أمد بعيد، وها حان وقت استردادها.

وقد كان..

فقد أغدقوا عليهم بالمال الوفير.. وجعلوهم يتنازلون عن أراضيهم ومنازلهم بسهولة تعجب لها الكثيرون.. ولكن لا عجب هناك، فالعرب مثل الخراف، متى وجدوا مرعى وكلأ، سال لعابهم. وقد تم الاستيطان بدعم عالمي.. فالعالم أجمع أصبح يدعمنا منذ وعد بلفور.

ولكن راشيل كانت غير سعيدة، فقد كان الحزن يعلن سطوته على قسمات وجهها، ذلك الوجه الذي كان يعكس باستفاضة ما تعانيه روحها

من آلام.. ولا يسعني إلا الاعتراف برؤية شبحه يطل طوال الوقت من نافذة روحها، ولكنني تجاهلته.. فأنا منشغل ببناء مستقبلي.. وبالنسبة إليها فقد تستغرق بعض الوقت حتى تتأقلم.

استغرقنا عدة أيام حتى أتممنا ترتيب المنزل الجديد، والذي يتكون من خمس غرف تتوسطها صالة كبيرة، وضعنا بها طاولة الطعام إلى جانب مقاعد جلد وثيرة، وحددنا الغرفة الأكبر لتكون غرفة النوم، ورأت راشيل أن تكون الغرفة التي تجاورنا غرفة يوسف.. فعملت على تهيئتها لتتناسب مع عمره، مستخدمًا ألوانًا زاهية على الحوائط..

أما باقي الغرف فلم نتسرع في تأثيثها لعدم حاجتنا إليها في الوقت الراهن.. وبعد الانتهاء من الأعمال المنزلية رأيتُ أنها مناسبة جيدة لنفض الغبار الذي علق بعلاقتنا بعد انتقالنا إلى إسرائيل.. ولجت إلى غرفة النوم، وكانت راشيل قد شارفت على الانتهاء من ترتيب الفراش.. فقلت مبتسمًا محاولاً التودد إليها:

- ما رأيك في تناول العشاء اليوم خارج البيت.

فردت بفتور، مصطنعة الانهماك في الترتب، متحاشية النظر والتطلع نحوي:

- لا أستطيع الخروج اليوم، فأنا أشعر بإرهاق شديد إثر ترتيب البيت.

- ولكنني مصّر.

استدارت ونظرت لي للحظات، ثم رسمت على وجهها ابتسامة مصطنعة بتكلف واضح وقالت:

- كما تشاء.. سأجهز أنا ويوسف في الثامنة.

وقد كان.. ارتدت راشيل ثوبًا ورديًّا أضفى بلونه الملائكي على وجهها الحيوية، فبدت أنيقة كأميرة مدللة.. واهتممت أنا بأناقتي فارتديت بزة كحلية، تجعلني أبدو أصغر في العمر بما لا يقل عن عشرة أعوام.. وتعطرت بأنفس العطور.. وبالطبع لم تنس راشيل الاهتمام بأناقة يوسف، فبدا في بهائه كصورة مصغرة من كيوبيد.. وقبل أن نخرج جميعًا من البيت اختلست النظر لانعكاس صورتنا في المرأة، فرأيت أسرة رائعة، ينتظرها مستقبل مشرق..

استقلينا سيارتنا الجديدة، وذهبنا إلى مطعم يتمتع بشهرة واسعة في تل أبيب.. جاء النادل فطلبت العشاء.. نظرت إليها أثناء مداعبتي ليوسف وقلت:

- بيتنا هنا أفضل من نظيره في الإسكندرية.. أليس كذلك؟

ردت وكأنها تحدث نفسها قائلة:

- نعم، فهو أرحب.

- وفيه سكينة لم أستشعرها في سابقه.

نظرت لي نظرة ساخرة ثم قالت:

- أتمنى ذلك.

ساد الصمت للحظات فكسرته قائلاً:

- يشغل بالي الآن الشروع في العمل، ومن أين أبدأ، فهل لك مقترحات؟

- أنت لا تجيد سوى عملك محاسبًا، فلتبحث عن مكتب صرافة جيد.

- ولكنني أفكر في إنشاء مكتبي الخاص، فما رأيك؟

- هذا جيد، ولكن هل تبقى معك ما يكفي من مال لأمر كهذا؟

- لا أعتقد أن ما معي سيكفي، ولذلك أفكر في الشراكة.

عقدت حاجبيها في تساؤل:

- وهل وجدت من يشاركك؟

- ليس بعد.

جاء العشاء ساخنًا، وبينما نحن نتناوله وجدت من يربت على كتفي.. استدرت فوجدته نعوم..

هللت فرحًا، وقلت والسعادة تغمر روحي:

-نعوم.. أخر شيء كنت أتوقعه هو رؤيتك ها هنا.

فرد مبتسمًا:

- ولما لا، وهذه أرض أجدادنا.

- عندك كل الحق، اجلس معنا لتناول العشاء.

التفت خلفه، وهنا انتبهت أن هناك فتاة بصحبته.

فاعتذر قائلاً:

-في المرة القادمة.

كتبت له عنوان المنزل.. وطلبت منه الحضور للحديث معًا في أمر مهم.. فوعدني بالمجيء، ثم حيا راشيل بإيماءة، فبادلته إياها وانصرف.

توجهت إلى راشيل بالحديث قائلاً:

– أتمنى أن يوافق نعوم على مشاركتي في مكتب الصرافة.

– هل هو صديقك؟

أجبتها وقد عدت لتناول الطعام قائلاً:

–نعم، بالطبع هو صديق عزيز، ولكن للأسف لم أره منذ عدة سنوات..

ردت وقد عادت لتناول الطعام قائلة:

– وهل يمتلك المال الذي يسمح له بمشاركتك؟

– بالطبع، فإن والده من الميسورين في سوريا.

– وفقك الرب.

انتهينا من تناول العشاء.. ثم عدنا أدراجنا إلى البيت على الفور.. فيوسف كان قد شرع في الإعلان عن نوبة بكاء حادة أشبه بالثورة..

ليلتها تمنيت في نفسي أن أكون قد نجحت في إذابة جبل الجليد الذي حال بيننا منذ أتينا إلى إسرائيل.

وبعد يومين أتاني نعوم، وهو بالمناسبة شاب مهذب، في مقتبل العمر، واثق جدًا من نفسه، وسيم.. ذو هيئة أرستقراطية.. يضفي عليه ثراؤه هالة من العظمة والجاذبية.. ذلك الثراء الذي يمده به والده بغير حساب، فوالده تاجر مشغولات ذهبية ميسور الحال، وذو شهرة واسعة في سوريا.. وقد سبق وتعرفت على نعوم في الإسكندرية أثناء إحدى زياراته لجدته، التي كانت تقطن في الحي ذاته الذي أحيا فيه بصحبة والدته.. ومنذ ذلك الحين ونحن صديقان مقربان رغم فارق العمر الذي تجاوز السبعة أعوام.. فلا يمكن أن يأتي إلى الإسكندرية بصحبة والدته ولا نتقابل

لنتسكع سويًّا.. إلى أن أسلمت جدته الروح، فقل حضوره، وعز لقاؤنا حتى انقطع تمامًا منذ خمسة أعوام.

استقبلته فرحًا، ورحبت به كثيرًا، وقد اعتلت وجهي ابتسامة ود وترحاب قائلاً:

-سعدت بوجودك هنا في إسرائيل..

فابتسم بدوره وقال:

-أنا أيضًا سعيد بوجودك، ولكن ما الموضوع الذي أردت التحدث إليّ فيه؟

-ولِمَ العجلة؟؟.. فلا حديث قبل أن نتناول العشاء سويًّا..

دعيت راشيل وعرفتهما ببعضهما بصورة جلية، ثم طلبت منها إعداد العشاء..

وبالفعل تناولنا العشاء سويًّا، ثم فاتحته في الأمر..

فنظرت إليه مستفهمًا:

- ما طبيعة عملك في إسرائيل؟

- ليس لدي عمل حتى الآن، فأنا هنا منذ وقت قصير، ولم أحدد طبيعة العمل الذي أرغب في الشروع فيه.

- عظيم، إذن ما رأيك في مشاركتي في مكتب صرافة؟

عقد حاجبيه في تساؤل وقال:

- مكتب صرافة؟!.. ولكن أنا لا أفقه شيئًا في تلك الأمور.

فقلت مداعبًا:

- ومنذ متى وأنت تفقه في شيء سوى النساء!!

قهقه كثيرًا فقد راقت له دعابتي، ثم أردفت بجدية:

- لا تقلق، سأتولى أنا أمر الإدارة.

فابتسم وقال:

- مادام الأمر كذلك فليس عندي ما يمنع.. نتشارك.

- تمام، سأبحث الأمر، وأقوم على دراسة الجدوى، ثم أبلغك.

- اتفقنا.

أحضرت راشيل الشاي، فشكرها نعوم على العشاء، وأثنى عليه كثيرًا، فابتسمت في خجل وانصرفت.

نظرت إليه متسائلاً:

- هل أتى والدك معك؟

استراح في جلسته، وأشعل لفافة تبغ، ثم أخذ نفسًا عميقًا وقال:

- لا، لقد فضّل البقاء في سوريا، يرى أنها وطنه الذي يريد أن يدفن فيه.

- مثله مثل راشيل، فهي أيضًا كانت تفضل البقاء في مصر، ولكنني أجبرتها على المجيء معي.

ضحك ساخرًا ثم قال:

- يا رجل ماذا تقول؟!! أي إجبار الذي تتحدث عنه؟!! أبي رجل عنيد ليس من السهل إجباره، أو حتى إقناعه.

- إذن دعه يفعل ما يحلو له..

- وهذا ما حدث.

غمزت إليه وقلت بابتسامة ساخرة:

- ومن تلك الفتاة التي كانت بصحبتك في المطعم؟

ضحك حتى أدمعت عيناه وقال:

- صديقة.. أنت تعرفني جيدًا.. لا أستطيع أن أحيا بدون أصدقاء.

- بالطبع أعرفك.. ولكن أما آن الأوان كي تتزوج؟

فضحك ضحكة عالية ثم قال:

- أتزوج؟! لا لا يا رجل، فأنا كالعصفور، خلق ليحيا حرًا طليقًا.. فهل أسجن نفسي في قفص، ثم أعطي مفتاحه لسجَّانتي بكامل إرادتي الحرة؟!!! يا رجل هذا جنون لم أصل إليه بعد.. فأنا لست مثلك.

وفي تلك الأثناء كانت راشيل قد عادت لتضع كوبين من العصير، فأثارها حديثه الذي أنصتت إليه في اندهاش ممزوج باستياء بدا على ملامحها، ثم ما لبثت أن اعتلت وجهها ابتسامة ساخرة وقالت:

-غدًا ستأتي من تقيدك بكامل إرادتك الحرة.. ما هي إلا مسألة وقت، فلا تزهُ كثيرًا..

فانفجرنا في ضحك نابع من القلب، وكانت هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها راشيل تشرق بضحكتها الصافية منذ أتينا إلى إسرائيل، فَسُرَّ قلبي كثيرًا.

وفي صباح اليوم التالي شرعت في المضي قدمًا نحو اتباع الإجراءات اللازمة لإنشاء مكتب الصرافة.. واستطعت أن أنجز الأمر في عدة أيام فقط.. فلم تعرقل مسيرتي أية معوقات..

أما بخصوص الاتفاق مع نعوم.. فقد جرى بسلاسة تفوق هدير المياه في شلال.. فنحن أصدقاء منذ أمد.. وصداقتنا تلك شكَّلت جسرًا من الثقة يعبر خلاله كلٌّ منا نحو الآخر..

وقد اشتمل العقد على أن يكون التمويل مناصفة بيننا.. أما الإدارة فتركها لي زاهدًا؛ حيث إنه لا يتقن أمور الصرافة، وذلك إلى أن يتعلمها.. فعلى الرغم من كونه ورث عن والده الجبين العالي ومظهرًا خُلِقَ للإدارة والقيادة فإنه جُرِّدَ من الولع بهما، منصرفًا إلى النساء.

* * * *

الفصل الرابع

توالت الأعوام في هدوء يشوبه الملل، وحظينا خلال العام الثاني من هجرتنا إلى إسرائيل بطفلتنا دينا.. وأسميتها دينا تيمنًا باسم ابنة يعقوب الوحيدة.

أما علاقتي براشيل، فلم تتحسن كثيرًا.. وجبل الجليد الذي حاولت مرارًا أن أذيبه أصر على الانتصاب باعتداد.. بل إنه ازداد قسوة وصلابة حتى يئست منه.. فتقبلت حياتنا كما هي.. فأنا لم أدخر جهدًا في مخاطبة ودها ولكن هيهات.. لقد أمست راشيل امرأة أخرى.. لا تنتمي بأي صورة كانت إلى الفتاة الرقيقة التي أحببتها.. روحها فقدت حيويتها فباتت باهتة لا لون لها.. مشاعرها تجاهي جفت تمامًا وباتت معاملتها تتسم بالآلية.. نبع حنانها توجَّه ليصب في مصب أوحد يتمثل في طفليها..

أما أنا فقد عدت لوحدتي الاختيارية، ولم أسع لإقامة أية علاقة مع سواها، على الرغم من إتاحة العديد من الفرص أمامي، ولكنني آثرت الإخلاص في حبها، إلى جانب خوفي من غضب الرب..

إلى أن أتى عام الحسم، والذي بفضله دبت الروح في خلاياي مرة أخرى، وأشعرني نشوة النصر العظيم.. عام ٦٧، وهو العلامة الفارقة في عمر دولتنا الحبيبة.. عام النصر.. فقد حققت إسرائيل نصرًا ساحقًا على العرب في حرب الأيام الستة (لحمت شيشيت هياهيم) كما تُدعى بالعبرية.

فقد كان تحرك إسرائيل الأول، والأكثر أهمية، مما أدى إلى اضطراب في صفوف الجيش المصري، والذي كان أكبر الجيوش العربية وأفضلها

تسليحًا.. واستهدف الهجوم المطارات ومهابط الطائرات المصرية، بحيث عطلت القدرة على استعمال الطائرات المقاتلة للأسطول الجوي المصري، وكانت هذه الخطوة الأهم في خسارتهم للحرب.

وفي ستة أيام فقط سيطرت إسرائيل على قطاع غزة، وشبه جزيرة سيناء من مصر، والضفة الغربية، بما فيها حدودية القدس الشرقية من الأردن، وهضبة الجولان من سوريا، ولو أراد قادة إسرائيل التوغل داخل مصر والاستيلاء على كامل أراضيها لفعلوا.

مصر التي استعبدنا في بناء حضارتها.. وفي النهاية نسبت الحضارة والتقدم للمصريين.. غافلين الدور الذي لعبه بنو إسرائيل، ولكن ها قد جاء اليوم الذي أخذنا فيه بثأرنا، واستردنا جزءًا من أرضنا، ولن نغفل حتى نسترد كامل الأرض التي وعدنا بها الرب.

فحدود أرضنا، من نهر النيل إلى نهر الفرات.

كما جاء في سفر التكوين..

(وفي ذلك اليوم قطع الرب مع إبرام ميثاقًا، قائلا: لنسلك أعطي هذه الأرض، من نهر مصر إلى النهر الكبير، نهر الفرات).[1]

وكان نتيجة لذلك النصر العظيم تهجير معظم سكان مدن القناة.. وتهجير معظم سكان محافظة القنيطرة في سوريا.. وتهجير عشرات الآلاف من الضفة الغربية.. وأيضًا فتح باب الاستيطان في القدس الشرقية.

[1] سفر التكوين، الإصحاح ١٥، آية: ١٨.

وبذلك أحرزنا نصرًا أدمى قلب العرب، وقر عين بني إسرائيل.

ولذلك شهدت إسرائيل احتفالات لم ترها من قبل.. وعَمَّت الفرحة كل داعمي الصهيونية حول العالم.. فلم يحدث أن تحالفت وسائل الإعلام الغربي مع الدعاية الإسرائيلية بشكل شبه متكامل، كما حدث في حرب ٦٧.. وخاصة الاتفاق في الإعلان على أن هذه الحرب هي آخر الحروب.. وأن إسرائيل حصلت على الحدود الآمنة التي كانت تهدف إليها..

وشاهد العالم أجمع كيف عشنا في نشوة النصر العظيم، وسط انبهار من الدول الغربية.. فابتلعتنا فرحة النصر، وماجت الميادين بالمحتفلين.. وشعرنا أن الأمور استقرت على هذا الحال.. فغدونا على يقين من استحالة اشتعال موقف عسكري قريبًا..

الغد أفضل.. لا شك..

أما بالنسبة لي، فكنت أمضي في سبيلي نحو الأفضل بالتوازي مع وطني الحبيب.. ناجح في عملي.. ولي من الأصدقاء عدد لا بأس به.. يأتي على رأسهم شريكي نعوم..

كما أنني حظيت بتقدير العديد من رجال الاقتصاد في الدولة.. فأشادوا برؤيتي الاقتصادية الثاقبة..

لم أكن أعاني سوى من تذمر راشيل.. فهي طوال الوقت تضع نصب عينيها خطأي في إجبارها على الهجرة إلى إسرائيل.. ظنًا منها أن الحياة في مصر كانت لتظل الفضلى.

حمقاء..

أتظن أن عبد الناصر كان سيتركنا لحالنا ننعم بالسلام والأمان دون مضايقات.

إنه ليس ببعيد عن هتلر النازي الذي اتخذ من اليهود وقودًا لأفرانه، وإن أتيحت له الفرصة، فلن يتردد في إعادة الصورة إلى أذهاننا..

فهو وجه آخر للنازية.. معادٍ للسامية.. يضمر المقت لليهود بلا حجة.

وها قد كشف الغطاء عن بغضه للجنس السامي أمام العالم أجمع.. وما هو ليس بمستبعد أن اليهود الذين مازالوا يقطنون في البلدان العربية سيتم تهجيرهم منها بعد سلب ممتلكاتهم، كما تنتزع النبتة من جذورها لتُلقى في الطرقات، فتتقاذفها الأقدام..

وذات يوم أتى نعوم إلى مكتبي مبتهجًا وعيناه تلمعان ببريق الهوى ليحدثني عن فتاة فلسطينية قائلاً بصوت يحمل في طياته الكثير من البهجة:

- لن تصدق روعتها حتى تراها..

نظرت له غير مصدق وقلت:

- فلسطينية يا نعوم؟! أنت تمزح ولا شك؟

- أنها ليست كأية فتاة.

- ولكنها عربية، أتريد الزواج من عربية؟؟!!!!

فقال بلهجته الضاحكة:

- ومن تحدث عن الزواج؟

- ماذا تقصد إذن؟

- أقصد، أن أحبها وتحبني، فنقضي يومين منعّمين بعواطفنا إلى أن نمل، فيمضي كلٌ منا إلى حال سبيله..

رددت مندفعًا:

- وهل ستوافق هي على مصادقتك وأنت يهودي صهيوني؟

ابتسم في استخفاف، ثم أشعل لفافة تبغ وقال:

- بالطبع لا.. ولذلك سأعمد إلى إخفاء حقيقة كوني صهيونيًّا حتى تقع في شباك هواي.. وحينها لن تجد مفرًا من الاستمرار معي حتى وإن علمت بحقيقتي..

تساءلت في حيرة قائلاً:

- ولكن كيف لها ألّا تعرف حقيقة كونك يهوديًّا صهيونيًّا؟

- هي من القدس الشرقية، وقد قابلتها هناك.. وأنت تعلم جيدًا أن هويتي غير معلومة سوى في تل أبيب.

نظرت له نظرة محذرة قائلاً:

- هذه مخاطرة قد لا تحمد عقباها.. فأهلها إن علموا بالأمر لن يدعوك وشأنك.

فقال في حماس:

- ليس في وسعهم شيء.. فنحن أسياد العالم.. وسيصبح ملكًا لنا عما قريب.

رأى في عينيّ نظرة تحمل الكثير من القلق.. فطمأنني قائلاً:

- لا تقلق.. فصاحبك غالب على أمره.

- أتمنى.

وهكذا ظن واهمًا أنه قد وضع حدًا لقلقي.. ولكن هذا للأسف من وجهة نظره.. فقد كنت أرى أن هذه المغامرة يجانبها الخير.. ولن تتوقف عند حد يومين ينهل فيهما من نهر عواطفها كما يتوقع.. ولكن ما باليد حيلة.. فهو مصّر على المضي قدما في غيابات تلك العلاقة، التي لا يعلم نهايتها سوى الرب.. وعلى أثر حديثنا ذلك اختفى عدة أيام حتى أتاني ذات يوم قائلاً بمرحه المعتاد:

- استعد للسفر معي بعد غد.

نظرت إليه وقد فغر فاهي في اندهاش ثم تساءلت:

- السفر؟!! إلى أين؟

- إلى فرنسا، ستأتي معي لزيارة إخواني هناك..

ترددت قائلاً:

- ولكن راشيل قد لا تقبل بهذا.

- ولماذا لا تقبل؟

تساءلت ساخرًا:

- لماذا لا تقبل؟!! اسمح لي يا صديقي، أنت تجهل حجم ما أكابده من معاناة مع تلك المرأة..

ثم تنهدت بأسى، وأشحت بنظري بعيدًا عنه قليلاً وأردفت:

- ولكن لا تقلق.. سأحاول إقناعها.

- لا تقل لي "سأحاول"، فلن أقبل أية أعذار..

قال جملته، ثم استدار ومضى دون كلمة أخرى..

عدت إلى البيت وأثناء تناولنا الغداء أبلغت راشيل بضرورة سفري المفاجئ بصحبة نعوم بعد غد، مصطنعًا الانهماك في تناول الطعام..

فعقدت حاجبيها متسائلة في استياء:

- ستتركنا وحدنا هنا؟!!

ألقيت بالشوكة من يدي ورمقتها بحده قائلاً:

-نعم.. وماذا في ذلك؟!!.. ألستم في بيتكم؟!!

بدا في صوتها الانفعال حين قالت:

- لا، نحن في بلد لا نشعر فيه بالأمان.

- لقد مرَّ على وجودك هنا سنوات ومازالت لا تشعرين بالأمان؟!

زفرت في استياء قائلة:

- نعم، هذه هي الحقيقة شئت أم أبيت..

فاحتدت نبرة صوتي:

- لقد وعدت الرجل، ولن أتراجع.

وهنا تدخل يوسف ابن الثماني أعوام في الحديث خوفًا من تصاعد الأمر قائلاً:

-سافر يا أبي، وسأهتم أنا بأمي وأختي، فاطمئن..

نظرت له مبتسمًا وقلت:

- باركك الرب يا بني.

ازدردت راشيل ريقها في صمت مبتلعة معه كلماتها.. فلم يعد هناك ما يمكنها قوله..

* * * * * *

الفصل الخامس

توجهت إلى المطار في الموعد المتفق عليه، وبالطبع لم يكن نعوم قد حضر بعد.. وهذه عادته التي داوم عليها بتفانٍ مطلق منذ طفولته.. حتى أنني كنت لأندهش لو حضرت ووجدته أتى في موعده.

انتظرته قليلاً حتى جاء..

فصاح بمرح قائلاً:

- أتيت قبل الموعد كعادتك!!!

فرددت عليه متهكمًا:

- وأنت أتيت متأخرًا كعادتك!!!

ضحك كثيرًا، ثم قال مشيرًا بإصبعه في وجهي محذرًا:

- سأخبرك بشيء، ولكن عدني ألا تغضب.

قطبت حاجبي في امتعاض قائلاً:

- ماذا هناك؟ آت بما عندك.

- ستسافر خولة معنا إلى باريس.

- خولة من؟ صديقتك العربية؟

طرق بعينيه إلى الأرض خجلاً وقال:

- نعم، هي بعينها.

نظرت إليه مندهشًا وتساءلت:

- كيف تطورت العلاقة بينكما إلى هذا الحد؟!!

ابتسم في زهو ثم قال:

- يا رجل هل تشك في قدرة صديقك؟!!.. لقد سارت الأمور كما خطت لها مسبقًا..

- وهل عرفت بكونك يهوديًّا؟

- نعم عرفت بعد أن باتت أسيرة هواي، ولا تستطيع الفكاك من براثن الهوى.

- حقًا؟!! بتلك البساطة!!

فرد مبتسمًا وهز كتفيه في استخفاف:

- نعم.. بتلك البساطة.

- وكيف تتقابلان؟ وأين؟ ألا تخاف رؤية أهلها لكما معًا؟!!

- أهلها باعوا أرضهم.. فهل سيمانعون في بيع ابنتهم؟!

- بالطبع سيمانعون.. دعني أصارحك يا نعوم، أنت تلعب بالنار، وأنا لا أستريح لتلك العلاقة.. وأشد ما يقلقني نهايتها..

ابتسم باستخفاف قائلاً:

- لا تقلق فصديقك ليس سهلا.

قالها ثم نهض للبحث عنها ؛ فالطائرة على وشك الإقلاع.

طفقت أفكر في حديثه متعجبًا.. أنا عليم بقدرة نعوم على إيقاع أية فتاة في شباكه، مستغلاً ما يمتلكه من مقاومات تجذب الفتيات.. فهو وسيم، في ريعان الشباب، بالإضافة إلى الإثارة التي يبعثها بسبب تعدد علاقاته النسائية.. فتشكل تلك النقطة مزية في نظر أغلب الفتيات، تدفعهن نحو

السعي للظفر به.. والأهم أنه يمتلك المال الوفير، الذي يعلم جيدًا كيفية توظيفه.. فيغدق من تهواها نفسه بالعطايا والمعاملة اللطيفة؛ حتى لا ترى سواه، وحينئذ يطبق شباكه عليها ليظفر بهواها حتى يزهدها منصرفًا إلى سواها.. وخطته تلك تؤتي بثمارها مع أغلب الفتيات.. ولكن فلسطينية!!.. ومسلمة!! فهذا ما لا أفهمه ولن أتفهمه.

وأثناء شرودي عاد نعوم وكانت معه..

هيفاء.. سمراء.. ذات شعر أسود لامع، يتدلى حتى خصرها النحيل، صانعًا تموجات خاطفة للقلوب، تشير إشارة وقحة نحو أسفل خصرها.. عيناها سوداوان لامعتان.. تشعان بريقًا، يعكس روحها.. فلا تدري أهي كذلك دائمًا، أم أن لمعتها هذه من فعل الهوى؟!

ملامح عربية بامتياز، ولكي أكون منصفًا؛ هي حقًا تتمتع بقدر رفيع من الجاذبية، لا تمتلك الشمس ذاتها مثيله.

في هذه اللحظة فقط التمست لنعوم عذرًا.. وشعرت بأنه ليس هنالك ما يمنع من أن يمرح صديقي قليلاً بفتاة جذورها عربية، ينهل من عبيرها إلى أن يملّها، وذلك على الرغم من مقتي للجنس العربي أجمع..

قدمها لي نعوم قائلاً:

- أقدم لك صديقتي خولة.

ثم التفت نحوها قائلاً:

- وهذا صديقي بنيامين الذي حدثتك عنه.

حييتها مبتسمًا وأردفتُ:

-صديقي مغرم بك.

ضحكت بعد أن اعتلت حمرة الخجل وجنتيها قائلة:

- أشكرك، ولكنك تبالغ قليلاً.

ثم أردفت والابتسامة لم تغادر وجهها الصبوح:

- أنت مصري؟ أليس كذلك؟

فابتسمت قائلاً:

- كيف عرفت؟

- لهجتك مصرية واضحة.

- نعم، ولدت وتربيت في مصر، ولكنني إسرائيلي.

ابتسمت ابتسامة مريرة، وأشاحت بوجهها إلى اللا شيء..

فشعرت وكأنني ألقيت حجرًا في بركة مياه هادئة فأيقظت تماسيح أفكارها التي طفقت بالتهام روحها، مما انعكس على وجهها المشرق، فبدا وكأن الغيوم اعتلته لتضع حائلاً بينه وبين شمس روحها.. ظلت واجمة للحظات، وكأن كلماتي تلك ذكَّرتها فجأة أن من تصحبهما في سفرها أعداء وطنها.. بل أعداء جنسها العربي قاطبة.

تدخل نعوم في الحديث ملاحقًا لما قد يجول بخلدها قائلاً بمرحه المعتاد:

-هيا بنا، وإلا سنتأخر على الطائرة.

ظل الصمت يطبق قبضته علينا طوال الرحلة، حتى وصلنا إلى الفندق، الذي كان نعوم قد حجز لنا فيه غرفتين قبيل سفرنا.

استأذنت منهما قائلاً:

-اسمحا لي، سوف أترككما لتستريحا، وأنا أيضًا أريد أن أستريح قليلاً.

فقال نعوم محذرًا:

- ولكن لا تنس موعدنا في الثامنة؛ لمقابلة إخواني.

- لا تقلق ستجدني في البهو قبل الموعد.

تركتهما وتوجهت إلى غرفتي من فوري.. أفرغت حقيبتي، ثم أخذت حمامًا دافئًا، فغلبني نعاس لذيذ استسلمت لخدره، فغفوت حتى الموعد المتفق عليه..

وفي تمام الثامنة تقابلنا جميعًا بعد أن انضم إلينا أخوة نعوم، وتم التعارف بينهم وبين خولة في عجالة، تعجبوا قليلاً عندما علموا بحقيقة كونها فلسطينية مسلمة، ولكنهم سرعان ما تقبّلوا الأمر؛ فهؤلاء- من انصهروا في بوتقة الغرب- يحملون فكرًا متحررًا.. فلا يبالون كثيرًا بالأديان واختلافها.. ولا يعنيهم اندماج الأعراق، فيرون أن لكل إنسان مطلق الحرية فيما يعتقده.. شريطة ألا يمس الضرر غيره أثر معتقده هذا.

أما بخصوص العلاقات العاطفية، فهم متحررون تمام التحرر، يتركون العنان لأرواحهم لتحط على كتف من تهوى.. غير عابئين بتقاليدنا الشرقية المحافظة.

تناولنا العشاء سويًّا وقضينا وقتًا طيبًا أسهم في إذابة كل التحفظات التي كانت خولة تستتر خلفها أول اللقاء.. فبدت وكأن هناك صداقة تجمعها بهم منذ القدم.. إلى أن تفرقنا على وعد بلقاء آخر يجمعنا قبل رحيلنا..

عدت إلى الفندق مرهقًا أثر السهر وإجهاد السفر، فغبت في ثبات عميق، ولكنني حلمت الحلم ذاته الذي كان يراودني في مصر.

استيقظت من نومي تتملكني الحيرة..

لماذا عادني هذا الحلم ثانية؟!!!!!

وهكذا مكثت أعاني الفكر لما تبقي من الليل حتى صبيحة اليوم التالي.. وفي الظهيرة ارتديت ثيابي، ونزلت لتناول قهوتي في بهو الفندق، وبعد مضي لحظات حضر نعوم، وكان وجهه لم يتخلَ عن آثار إرهاق ليلة أمس..

فتساءلت:

-ما بك؟ يبدو أنك لم تنم جيدًا أمس؟

فضحك وقال:

-نعم، فبعد أن تركتنا تجولنا قليلاً في شوارع باريس الساحرة.

أشار إلى النادل وطلب قدحًا من القهوة لينعش حواسه، ثم أشعل لفافة تبغ وابتسم مستطردًا:

- هل تظن أن إسرائيل ستكون بتلك الروعة في يوم من الأيام؟

- بالطبع، ولكن لا تتهرب منّي.. هل تسكعتم فقط؟!

انفجر في الضحك، ثم قال بعد أن هدأ قليلاً:

- ماذا تتوقع؟!

ابتسمت وأومأت إليه في إشارة تعني "آت بما عندك"..

- بالطبع قضينا ليلتنا سويًّا.

جاء النادل فوضع القهوة أمامه وانصرف، فعدت لاستجوابه متسائلاً:

- وحدث ما أتوقعه؟

ضحك كثيرًا حتى أدمعت عيناه، ثم رشف من قهوته وقال:

- بالطبع..

- أنت ماكر..

- ألم أقل لك صاحبك ليس سهلاً؟!!

- بدأت أهابك..

ضحك كثيرًا، ثم قال بعد فترة من الضحك:

- ولماذا؟! أتفكر في التحوّل الجنسي؟!!!!

ضحكت بدوري، ثم حذرته مرة أخرى من النار التي يلهو بها.. ولكنه بدا واثقًا جدًا من نفسه.

وما إن هدأ قليلاً من نوبة الضحك التي أصابته حتى تساءل:

- وأنت كيف قضيت ليلتك؟

- نائمًا، فليس لدي حبيبة أتسكع معها.

- لا تلومني..

ثم أكمل ساخرًا متهكمًا:

- فأنت من اختار الإخلاص والتفاني في هوى راشيل..

- يا رجل، أنا رجل متزوج..

– وإن يكن.. فزوجتك ستمكث في البيت تنتظرك.. وعشيقتك تمرح معك في كل مكان.

– لا يا سيدي.. يكفيني ما أعانيه من راشيل بسبب هجرتنا إلى إسرائيل، فأنا إلى الآن لم أتخلص من تذمرها بعد.. أتريد منّي أن أفتعل أزمات أخرى أنا في غنى عنها؟!!

رد مفسرًا:

– هذا سبب أدعى.. فإن شغلت فكرها بعلاقاتك النسائية المتعددة وغرامياتك لن يسعها التفكير في شيء آخر.. يا عزيزي من خلال تجاربي مع النساء أحب أن أسدي إليك نصيحة.. المرأة يا عزيزي تهوي النكد.. فهو يمثل لها غريزة بقاء.. وإن لم تبادر بتوفير سبله أمامها طواعية بكامل إرادتك الحرة، بحثتْ هي عن سبل قد تبدو غير مقنعة من وجهة نظرك.. وفي النهاية لن تستطيع تجنب غريزة النكد لديهن مهما حاولت.. فكن عاقلاً ووفر لها السبيل.. هذا بالطبع إلى جانب استمتاعك بشبابك الذي شرف على وداعك..

ابتسمت ساخرًا، ثم قلت محاولاً إجلاء الصورة في عينيه..

– فلسفتك تلك لا تنطبق على راشيل.. فزوجتي لا تفكر سوى في الهجرة من إسرائيل.. هذا إلى جانب إغفالك لحقيقة حبي لها.. فلن يطاوعني قلبي على خيانتها..

ضحك ساخرًا ثم قال:

– إذن فهنيئًا لك بلوعتك.. كان الرب في عونك.

– دعنا من هذا الحديث.. فأنا أريد أن أستشيرك في أمر حدث أمس، وتسبب لي في حيرة صحبتني طوال الليل.

عقد حاجبيه في تساؤل:

– ماذا حدث؟

– لقد عادني حلم كان يطاردني كثيرًا في مصر.

نظر لي في اهتمام وقال:

– أكمل..

– حلمت أن هناك نداء يدعوني "يا إسرائيل العصر" !!!!!

تساءل في اندهاش:

– إسرائيل العصر؟!! ماذا تقصد؟

– لا أعرف، ولكنني متحير منذ ليلة أمس.

فقال عائدًا إلى استهتاره المعتاد:

– لا تشغل بالك كثيرًا.. مؤكد هو مجرد حلم.

تنهدت واجمًا ثم قلت:

–لا أعتقد.

وفي أثناء حديثنا أتت خولة.. ولكنها بدت وكأن شمس روحها ودعتها على غير رجعة، مما انعكس على وجهها، فكان يفتقر لإشراقة صبيحة أمس.. والسبب معلوم بالطبع.. فقد غرست قدميها في كثبان من الرمال المتحركة، وتجهل سبل النجاة منها.

بادرت بالابتسام قائلاً:

- عمت صباحًا.

فابتسمت بدورها قائلة:

-عمت صباحًا.

تظاهرت بجهلي التام لما حدث ليلة أمس وقلت:

- وجهك كشمس المغيب اليوم.. هل أغضبك نعوم ليلة البارحة؟

- بالطبع لا، فهو إنسان رائع، لولا أنه....

لم تكمل، فقد حشر الحديث في حلقها، ولم تعد هناك كلمات تتناسب مع ما يجول بخلدها.. فوجمتْ وطرقتْ بناظريها الأرض في أسى.. وأنا أيضًا عجزت عن أيجاد كلمات تؤتي بثمارها، فآثرت الصمت..

كسر نعوم هذا الصمت حتى يقطع حبل أفكارها، وعرض علينا التنزه معًا.. فاعتذرت على الفور؛ فلم يكن لدي الرغبة في إقحام أنفي بينهما.. وخاصة في تلك اللحظات المظلمة التي تمر بها علاقتهما.. فمؤكد هي تدخر له اليوم الكثير من الندم والنحيب على ما أفقدها إياه.. وهو يدخر لها الكثير من الوعود البراقة، ليتمكن من قضاء ما تبقى من إجازته ينهل من رحيقها..

استأذنت منهما وانصرفت لأترجل قليلاً في طرقات باريس الساحرة..

يا إلهي!! كم كان الحق لا يجانب نعوم عندما تمنى أن تضاهي إسرائيل فرنسا في كمالها ورونقها.. ولكن يجب علينا توحيد أهدافنا.. أولاً نسترد كامل الأرض التي وعدنا بها الرب، ثم نعمل بعد ذلك على النهوض بها لتحاكي الدول الأوروبية.

توجهت صوب متحف اللوفر، وشاهدت هذا الزخم من اللوحات التي تعد الأثمن في العالم.. فإن كانت هناك أعجوبة ثامنة في تلك الدنيا، فهي متحف اللوفر بلا مزايدات.

حقًا باريس قِبلة الذوق، والجمال، والفن الراقي.

وأثناء تجولي واستمتاعي بالقطعة الفنية الراقية في متحف الدنيا المدعوة "باريس".. نبهتني معدتي بإغفالي إياها، مستغيثة بكل وسائلها للاستغاثة.. علِّي أستجب.. فأشفقت عليها، وتوجهت إلى أحد المطاعم ذائعة الصيت، فباريس تقتني أفضل مطاعم العالم، وهذا يمثل أيضًا دربًا من الذوق الرفيع الذي يتمتع به قاطنوها.. تناولت غدائي، ثم رأيت أن أعود إلى الفندق ثانية.. فلم يعد هنالك شيء لأفعله..

وفي أثناء طريقي للعودة إلى الفندق سألت نفسي متحيرًا:

-"لماذا أتيت مع نعوم إلى هنا تاركًا عملي وبيتي؟!"..

طفقت أفكر في السبب الخفي في ثنايا نفسي.. فقد أتي نعوم لرؤية إخوانه والتنزه مع خولة بحرية تامة.. أما عني؟! فلا أعلم سببًا وجيهًا.. قد أكون أتيت مدفوعًا برغبة خفية تهدف إلى ترويض راشيل من خلال ابتعادي عنها، عل هذا يستثير عواطفها التي أخمدتْها طواعية منذ أتينا إلى إسرائيل.. فأردت أن أمنحها بعض الوقت عسى أن تدفعها نيران الشوق إلى أحضاني ثانية. ربما يكون هذا دافعي، وربما هناك دافع آخر لا يعلمه إلا الرب.

قضيت ليلتي في شرفة الغرفة أطالع سِفْرَ التكوين.. فأنا أفضل قراءة هذا السفر بخاصة، لأنه يذكرني بكون الرب أقام الدنيا في ستة أيام فيقول:.

((اذكر يوم السبت لتقدسه. ستة أيام تعمل وتصنع جميع عملك. وأما اليوم السابع ففيه سبت للرب إلهك. لا تصنع عملاً ما. أنت وابنك وابنتك وعبدك وأمتك وبهيمتك ونزيلك الذي داخل أبوابك. لأن في ستة أيام صنع الرب السماء والأرض والبحر وكل ما فيها، واستراح في اليوم السابع. لذلك بارك الرب يوم السبت وقدسه)).[٢]

وبذلك يذكرنا الرب أن الدنيا أقيمت في ستة أيام، وهو القادر على خلقها ما بين طرفة عين، فما بالنا ونحن لا نملك من الأمر شيئًا فعلينا الصبر والإذعان على قضاء حوائجنا.. سوف تُبنى إسرائيل كما بُنيت الدنيا، كل ما علينا فعله هو التحلي بالأيمان إلى جانب العمل.

قرأت حتى أُجهدت عيناي.. فغلبني نعاس لذيذ استسلمت لخدره..

ولكنني حلمت الحلم نفسه مرة أخرى..

هناك نداء يتردد حولي صاحبه مجهول يدعوني:

- يا إسرائيل العصر..

- من أنت؟

- يجب أن تعرف أنك إسرائيل العصر..

- ماذا تقصد؟!!!!!!!!!!

---

[٢] سفر الخروج، الإصحاح ٢٠، الآيات: ١١،١٠،٩،٨.

- سوف تعرف..

- أنا لا أفهم.

- أنت المختار.. أنت المختار..

استيقظت من النوم مقطوع الأنفاس، أتصبب عرقًا، قواي منهكة.. وأشعر بظمأ شديد.. وكأنني كنت أصارع وحشًا إغريقيًّا..

جرعت شربة ماء، ثم عاودت القراءة في التوراة مرة أخرى، وبخاصة الجزء الذي يتناول قصة يعقوب بن إسحاق، ساعيًا لاستنباط وجه الشبه الذي يجمعني بنبي الرب إسرائيل.. ولمَ أنا إسرائيل العصر؟!.. وما يمكنني تقديمه لأنال هذا الشرف؟!!!!

أسئلة كثيرة تحاصرني ببراثنها ما لها من جواب.. أو على الأقل حتى تلك اللحظة..

في هذا الوقت تملكني شعور جارف بالحنين إلى وطني.. فقررت أن أحزّم أمتعتي وأرحل في صباح الغد.. أجريت اتصالاً هاتفيًّا لأحجز تذكرة طيران إلى إسرائيل.. ولحسن الحظ وجدت مكانًا شاغرًا.

انتظرت حتى منتصف الليل كي أتأكد من وصول نعوم إلى غرفته، ثم توجهت إليه وطرقت الباب، فتح لي بعد دقائق منزعجًا، وقال في لهفة:

- ماذا بك.. هل حدث شيء؟

فرددت مسرعًا:

- لا لا، أعتذر على الإزعاج.. ولكنني أتيت لأخبرك بسفري غدًا..

بدا على وجهه الوجوم، ممزوجًا بالدهشة ثم قال:

- لماذا؟! هل حدث شيء؟

- لا، أبدًا، ولكنني اشتقت ليوسف ودينا.. وأشعر بعدم جدوى وجودي ها هنا.

فقل خجلاً:

- آسف.. لقد تغافلت عنك كثيرًا.

لاحقته لإزالة الحرج عنه قائلاً:

- لا، لا أبدًا، فأنا أتفهم موقفك، ولكن فعلاً ليس لوجودي داعٍ..

- كما تشاء.. متى ستقلع طائرتك؟

- في العاشرة صباحًا.

- حسنًا، سأصحبك إلى المطار.

- ليس هناك داعٍ.

- لا يمكن، سأقابلك غدًا في الثامنة.

- حسنًا.

وهكذا وجدت نفسي مضطرًا لقبول صحبة نعوم إلى المطار.

عدت إلى غرفتي، وأعددت حقيبتي.. ولكنني لم أستطع العودة إلى النوم ثانية في تلك الليلة.. لا أعرف لماذا؟ فهل أنا خائف؟!

محتمل.. فمنذ أتيت إلى فرنسا والحلم الذي كان يطاردني في مصر بات يتكرر في كل ليلة.. فهل عادني لابتعادي عن الأراضي المقدسة؟؟..

قد يكون هذا سببًا.. ولكن جم ما أشعر به الآن هو رغبة ملحة في الفرار من باريس، والعودة إلى موطني.. وقد تعجبت كثيرًا لذلك الشعور فكأن جذوري التي تمدني بالسلام النفسي تقبع في إسرائيل، وهي ما تجذبني للعودة إليها متى ابتعدت.

وعلى غير عادته وجدت نعوم في تمام الثامنة يطرق باب غرفتي قائلاً:

- بنيامين.. أمازلت نائمًا؟

فتحت الباب قائلاً:

- لا، أنا جاهز.

- إذن هيا بنا كي لا نتأخر.

استقللنا السيارة حتى المطار.. وفي الطريق سألته:

- متى تنتوي العودة إلى إسرائيل؟

- لم أحدد موعدًا بعد.. فخولة لا تعلم بأننا سوف نعود إلى إسرائيل.

نظرت إليه مستفهما:

- ماذا تقصد؟

- لقد أوحيت لها بأننا سنظل في فرنسا، ولن نعود إلى إسرائيل مرة أخرى..

تساءلت مستنكرًا بصوت مرتفع:

- وهل ستظل حقًا في فرنسا؟!!

فسارع بالرد:

– بالطبع لا، فأنت تعلم شدة تعلقي ببلادي.. ولكنني أوهمتها بذلك حتى تظن أن علاقتنا ستستمر بعيدًا عن الصراع في إسرائيل، فتقبل المجيء معي إلى باريس..

هدأت نبرة صوتي قليلاً وقلت:

– إذن كيف ستقنعها بالعودة إلى إسرائيل؟

– بالتأكيد سأمهد لها فكرة العودة تدريجيًّا.

– الرب معك. ولكنني أعتقد أن ذلك لن يكون سهلاً.

– لا تقلق.. مؤكد سأعود.

وعند وصول السيارة إلى المطار أوصاني بالعمل.. فطمأنته، وودَّعته على وعد بلقاء قريب.

وعندما صعدت إلى الطائرة، وبدأتْ في الإقلاع تنفست الصعداء..

أخيرًا سأعود إلى أرض الوطن وأرى أولادي..

بالطبع ابتعت لهم هدايا مناسبة من تل أبيب.. فسفري من باريس أتى فجأة؛ ولم يسعني الوقت لشرائها من هناك..

وعند عودتي إلى البيت استقبلني الأولاد فرحين بعودتي، وامتدت فرحتهما عند رؤيتهما للهدايا التي تجنبت ذكر كونها من تل أبيب حتى لا يظنون أنني أغفلتهم في باريس.

أما راشيل فقد خفق قلبي لمرآها، وثار بداخلي نهر من الحنين، فحين صافحتني جذبتها نحوي، واحتضنتها بقوة محاولاً إذابة روحها في روحي، دافنًا رأسها في صدري ثم قلت:

- اشتقت إليك..

فردت في فتور صدمني وأيقظني من غفلة ضعفي قائلة:

- الشكر للرب على عودتك سالمًا.

ابتعدت عنها لشعوري بتبلد مشاعرها.. وتغيرت لهجتي إلى اللوم قائلاً:

- ولكن ما كل هذا الفتور؟! ألم يعني لك غيابي شيئًا؟

ردت متحاشية النظر في عيني قائلة بصوت جاف لا يحمل أية عواطف:

- بلي.. حيث إنني لم أر داعيًا لسفرك منذ البداية..

- لقد أعلمتك مسبقًا بضرورة سفري لإنجاز أعمالي المعلقة خارج البلاد.. ولكن هل عدم تفهمك لجدوى سفري يبرر فتور عواطفك؟!! المنتظر أن تكوني اشتقتِ لي..

- آسفة.. فلم أعتد إظهار ما ليس بداخلي..

وأردفت بصوت مبحوح فاتر:

-سيكون الحمام جاهزًا خلال لحظات..

احتقن وجهي بالدماء حين رمقتها بنظرة نارية تعبيرًا عما يعتمل بداخلي من حنق، ثم انسحبت من أمامها بلا كلمة أخرى.. فقد صدمتني بنضوب عواطفها.. والأدهى أنها اعترفت بمنتهي الصدق بعدم افتقادها لي أثناء غيابي.. لقد كان ابتعادي في الأصل لاستثارة عواطفها، وتحفيزها للعودة إلى أحضاني.. ولكنني اكتشفت أن سلاحي وجه ضدي، وشربت

أنا من الكأس الذي سعيت لإعداده لها.. فأنا من ذاق لوعة الشوق والحنين.. أما هي فما كان يكنه قلبها لي ظل في مصر..

******

الفصل السادس

توالت الأيام ووجدت نفسي أعود لحياتي الرتيبة المملة مرة أخرى.. الذهاب إلى العمل.. ثم العودة إلى البيت، فالنوم. ويوم السبت نذهب إلى المعبد للصلاة.. فيمدنا الحاخام بالأمل في الغد.. فنعاود أدراجنا حامليه معنا إلى بيوتنا لنحيا به أسبوعًا آخر.. وهكذا دواليك..

حتى جاء يوم ذهبت فيه إلى العمل فوجدت نعوم في مكتبي ينتظرني.. استقبلته فرحًا بعودته، وكأنني وجدت أخيرًا ملاذي من الملل قائلاً:

- حمدًا للرب على عودتك سالمًا.. أنت لا تعرف كم افتقدتك.

لاحظت الوجوم يعتلي وجهه.. فأكملت متسائلاً بعد أن جلست إلى مكتبي:

- ما بك؟ هل حدث لك مكروه؟

ألتفت لي وقال بنبرة تحمل الكثير من الكآبة والحزن:

- لقد واجهت خلافًا كبيرًا مع خولة عند إعلامها بضرورة عودتنا إلى إسرائيل.

اعتدلت في جلستي ثم قلت:

- هذا ما توقعته.

فأكمل في أسى:

- وهذا ما حدث.. أخبرتها أن لدي عمل مهم، ولا بد من العودة إلى إسرائيل، فانفعلت.. وأجهشت في بكاء يمزق نياط القلوب.. وقالت:

"ماذا سأقول لعائلتي؟! أنت وعدتني بالبقاء في باريس وبأننا سنبدأ حياة جديدة معًا بعيدة عن الصراع".

فأجبتها بأن هناك أمرًا مهمًا اضطرني إلى العودة.. وإن رغبت هي في البقاء في باريس فلها ذلك، وسوف أزورها كلما واتتني الفرصة.

ترقرقت العبرات في عينيها وقالت: "ستتركني وحدي هنا، وفي أحشائي ابنك؟!!".

هنا فقدت أعصابي فانتفضت لأقاطعه صائحًا:

- ماذا؟ ابنك؟!! أنت تمزح ولا شك.

- بل جاد كل الجد.

- وهل تأكدت؟

طرق بنظره إلى الأرض ثم أجاب:

- نعم، فقد ذهبنا إلى طبيب وأكد ذلك.

زفرت غاضبًا.. ثم قلت باستياء:

- لقد حذرتك مرارًا من الغرق في هذا المستنقع.. ولكنك لا تستمع لأحد.

هز رأسه موافقًا في أسى، ثم أردف:

- أعلم أعلم.. ولكن أنا الآن في حيرة من أمري.. ماذا سيكون مصير هذا الطفل؟ وما الذي ينتظرنا؟

- أنت تعلم أن الرب أوصى بعدم مصاهرتهم.. "لا تصاهرهم، بنتك لا تعط لابنه، وبنته لا تأخذ لابنك".[٣]

فأبناء اليهود من الأغيار أبناء زنا (مامزير)، ومن ولد لأم يهودية وأب غير يهودي فهو يهودي.. ومن ولد لأم غير يهودية وأب يهودي فهو غير يهودي.. وبذلك فإن هذا الطفل سيكون غير يهودي.

- أعلم كل ما تقوله، ولكن ما العمل؟

طرقت بنظري إلى الأرض عاقدًا يديّ، ثم قلت في أسى:

-لا أعرف..

صمت برهة ثم سألته:

- ولكن ألم تفكر في الإجهاض؟

أشعل لفافة تبغ وأخذ نفسًا عميقًا، ثم قال:

- بالطبع فكرت.. وعرضت عليها الأمر.

- وما رأيها؟

- رفضت بشكل قاطع.. فهي خائفة من أن يدركها الموت إبان العملية.. وبالطبع لن أستطيع إجبارها.

- هي عملية خطرة بالفعل.. ولكن ليس أمامكما خيار.

وقف عاقدًا أزرار بزته متأهبًا للانصراف ثم قال:

- لا أستطع التفكير الآن.. اسمح لي بالانصراف.

---

[٣] سفر التثنية، الإصحاح ٧، آية: ٣

- ولكن أنت لم تأخذ نصيبك من الربح.

- ليس الآن.. سآتي لك فيها بعد.. أعتذر منك لانشغالي عن متابعة العمل.

- لا تقل هذا فنحن أخوه.

انصرف ورأسه يعج بالأفكار.

كنت أشعر بحيرته، وتذكرت الأحلام التي كانت تراودني في مصر ثم في فرنسا.

ماذا حدث لكلينا؟ واضح أن هناك لعنة ما أصابتنا.. فأنا في حيرة من أمري، ولا أجد السبيل للسعادة على الرغم من إخلاصي وعشقي لزوجتي.. وهو أيضًا في حيرة من أمره، والحزن أمسى حليفه على الرغم من تحرره المطلق، وتعدد علاقاته النسائية إلى جانب الأموال الطائلة التي تقبع رهن إشارته.

وفي تلك اللحظة تراءت لي الدنيا في صورة فتاة لعوب- نسعى لإدراكها- تلوّح لنا مبتعدة في إشارة تعني "الوداع"، وعلى وجهها شبح ابتسامة ساخرة..

أنهيت عملي وعدت إلى البيت فوجدت راشيل نائمة على غير عادتها في ذلك التوقيت، فأيقظتها حتى تعد لنا الغداء.

وعقب الانتهاء من الغداء قصصت عليها ما حدث مع نعوم وخولة.. فانتابها الحزن لحال خولة، وتعاطفت معها أيما تعاطف، وكأنها وحدها

التي مسَّها الضر إثر علاقتها بنعوم دون الالتفات لحاله وما يكابده الآن من حيرة واضطراب.

وما إن انتهيت من الحديث حتى شعرت بإرهاق شديد.. فدلفت إلى غرفتي لأستريح قليلاً، غلبني النوم، فاستسلمت له، وغبت في سبات عميق..

ولكني استيقظت على الحالة ذاتها التي كنت عليها في باريس أتصبب عرقًا وحيرة..

فقد تكررت الرؤيا ذاتها.. ولكن في هذه المرة دعيت بصوت جهوري:

- يا أبا يوسف، أنت إسرائيل العصر..

- أنا؟!!

- نعم أنت إسرائيل العصر.

- ما الذي عليّ فعله؟!!

- ستعرف وحدك، ولكن يجب أولاً أن تؤمن..

- أؤمن بماذا؟

- بأنك إسرائيل العصر.

- أنا لا أفهم... ما المطلوب مني لأكون إسرائيل العصر؟

- تدبر يا أبا يوسف.. تدبر..

صحوت من نومي وأنا أردد:

-ما المطلوب مني؟!!

دخلت راشيل عليّ الغرفة متسائلة:

-ماذا بك؟!!!

أجبتها بعد أن هدأت نوعًا:

- لا شيء، مجرد حلم.

ناولتني كوبًا من الماء وهي تسألني:

- حلم أم كابوس؟

جرعت شربة ماء ثم أجبتها:

- لا أعرف.. حقًا لا أعرف.

- إذن حاول أن تعاود النوم.

- سأحاول.. أشكرك.

خرجت من الغرفة مغلقةً الباب خلفها، وتركتني فريسة لحيرتي.. جلست أفكر في المقصود من تلك الرؤيا؟ ولماذا عادتني مرة أخرى؟

وهل هي مجرد حلم أم رؤيا تحمل توجيهًا من نوع ما؟

نحن شعب مُلهم.. وبركات الرب تحل على المؤمنين.. وأنا أشد الناس إيمانًا.

تُرى ألهذا اختارني الرب للقيام بمهمة ما؟

لا أعرف..

وهكذا ظللت ساهرًا أتدبر أمر الرؤيا حتى أدركني الصباح، فارتديت ثيابي، وتوجهت إلى مكتب الصرافة ووجهي لم يتخل عن آثار إرهاق ليلة أمس بعد، فوجدت عيزرا مدير مكتبي الهمام يلحق بي ووجهه لا ينذر بالخير.. أشرت له أن "آت بما عندك"..

فأطلعني على تقارير تشرح خسائرنا في الأيام السابقة، فقد طفق العمل يتأثر بابتعاد نعوم إلى جانب توتري الذي أخذ في الازدياد منذ عدت من فرنسا؛ حيث إنني أمسيت شارد الذهن طوال الوقت.. دائم التنقيب عن تفسير الرؤيا لأستنبط الأمر الذي كلفت به لأكون إسرائيل العصر..

هذا إن ثبتت لي حقيقة كونه توجيهًا إلهيًّا.

ولكنني بالطبع لا أسعي لخسارة ما حققته من نجاح على الصعيدين المالي والاجتماعي.. فقد كابدت الكثير في بناء اسمي وسمعتي، وهذا لم يتحقق بسهولة ويسر.. وإنما بتقديم الكثير من التضحيات والتنازلات.. بخلاف نعوم الذي ولد وفي فمه ملعقة من ذهب.. ولذلك لن أتنازل عما حققته.. فأنا اليوم أحظي بمكانة مرموقة في المجتمع الإسرائيلي.. سأستميت للدفاع عنها..

****

الفصل السابع

توالت الأيام في رتابة، وخلالها لم أسمع عن نعوم أية أخبار، على الرغم من محاولاتي للتواصل معه، ولكن هيهات.. ولذلك كنت أحجب له نصيبه من الربح حتى عودته.

وفي يوم من تلك الأيام المملة أنهيت عملي، وعدت إلى البيت تعتلي وجهي علامات الحيرة والإرهاق فدلفت إلى غرفتي من فوري..

أتت راشيل على أثري وللمرة الأولى منذ فترة ليست باهينة تسألني عن حالي:

- ما بك؟ وجهك لا يريحني هل هناك خطبٌ ما؟

أجبتها أثناء استبدال ملابسي قائلاً:

- تراودني رؤيا منذ كنت في مصر لا أستطيع تفسيرها.

فردت مستفسرة..

- وما هي؟

-أرى أن هناك داعيًا يدعوني "يا إسرائيل العصر"، وفي رؤيا أخرى " يا أبا يوسف، أنت إسرائيل العصر"، ولا أعرف لذلك معنى.

أخذت ملابسي التي نزعتها لتنظفها، ثم قالت في استهتار:

- لا تشغل بالك كثيرًا، فمؤكد هذا مجرد حلم.

- لا أعتقد.

- دعك من هذا.. سأعد الغداء..

أنهت الحديث، وخرجت من الغرفة غير مكترثة لما أقول.

وبعد فترة وجيزة جاءت لتخبرني أن الغداء جاهزٌ.. فخرجت من غرفتي لنتناول الطعام جميعًا.. وعقب الانتهاء جلست أتحدث قليلاً مع الأولاد في أمور ديننا، ووطنهم الذي يجب أن يعتزوا به كثيرًا. أنا أثق في يوسف، وفي شدة تعلقه بوطنه، فهو يكاد يماثلني في الشبه والعقيدة لولا فارق العمر.. فأرى فيه انعكاسًا لصورتي بكل تفاصيلها فتطمئن نفسي.

فعندما هاجرنا إلى إسرائيل كان عمره لا يتجاوز العام.. فنشأ منتميًا لها بكامل جوارحه، معتزًا بها وبدينه، لا يعرف سواها وطنًا.. ويتمنى أن يراها في صفوة الأمم، ولذلك لن يدخر جهدًا في الدفاع عنها متى احتاجته.. ولقد غرست فيه الانتماء لوطنه ولجنسه السامي- أبناء الرب- تمهيدًا لحصاده في الوقت المناسب.. أما دينا فهي فتاة حنون، تبث الحب والحنان في أسرتنا الصغيرة. وعلى الرغم من كونها، تصغر يوسف بثلاثة أعوام، فإنها تغلفه بحنانها وعطفها، لتكون بمثابة أمٍ أخرى له بعد راشيل.. وهي أيضًا رقيقة إلى تلك الدرجة التي تجعلها تنتمي لهؤلاء الفتيات الرقيقات اللاتي لا يجدن حرجًا في أن يفقدن وعيهن كل صباح ومساء..

ولذلك فلا أملك ترف الظن في قدرتها على الدفاع عن نفسها فضلاً عن الوطن.

وبعد الانتهاء من تلك الجلسة عدت إلى غرفتي وأغلقتها خلفي.. فأنا لا أريد إزعاجًا من أحد.

قرأت سِفر التكوين كاملاً كي أستنبط وجه الشبه بيني وبين نبي الرب إسرائيل، مستعرضًا تفاصيل حياته ومعاناته حتى استنتجت عدة

احتمالات، أهمها اسما طفليّ يوسف ودينا، اللذين يتطابقان مع اسميّ ابنيّ يعقوب، يوسف فقيده العزيز، ودينا ابنته الوحيدة، وقد يكون أيضًا إيماني الشديد بضرورة أن يكون أبناء إسرائيل على قلب رجل واحد.

وهكذا ظل عقلي ينقب عن الأسباب بصبر الكاتب الجالس القرفصاء حتى غلبني النوم.. فنمت محتضنا الكتاب المقدس بين راحتيّ..

وحلمت..

وجدت نفسي أقف في مكان شاسع، لا أستطيع تمييز حدوده.. فأخذتُ أتلفت حولي لا أعرف أين عساي أكون.. وهنا سمعت صوتًا من بعيد يدعوني:

- يا بنيامين..
- من أنت؟ وماذا تريد مني؟
- أنت تعرف من أنا!!.. وما أريده منك ستعرفه وحدك..
- لقد مللت الألغاز، أرجوك وضِّح لي المطلوب مني..
- إنك على الطريق القويم..
- أي طريق؟
- فكِّر يا أبا يوسف.
- تقصد يوسف.. هل سيُؤخذ مني؟!!
- لا، بل أنت من سيقدمه للرب قربانًا عن رضا نفس.
- ماذا؟ ولكن إسرائيل لم يضح بابنه.

– ولذلك ابتلاه الرب، وانتزعه من بين أحضانه، فهو عشقه أكثر مما ينبغي.. أما أنت فستضحي به عن طيب خاطر.

– لماذا أنا؟ لماذا أنا؟!!

–.. ....

صحوت من نومي، ولساني يكرر هذا السؤال، فاستيقظت راشيل مفزوعة وقالت:

–ماذا دهاك؟

فصحت بها مستاءً:

– ما الذي يعنيك.. عودي إلى النوم.

– ولكنك.....

قاطعتها قائلاً:

–قلت لك.. لا يعنيك.. ألا تفهمين؟!!!

بالطبع أغضبها أسلوبي وانفعالي غير المبرر– من وجهة نظرها– فخرجت من الغرفة دون أن تنبس ببنت شفه، وأغلقت الباب خلفها بعنف شديد.. حتى كادت أن تحطمه.

لا أعرف لماذا انفعلت عليها بهذه الصورة؟؟!!.. هل لجهلي التام لما أعانيه.. أم ليقيني بعدم اكتراثها لأمري؟!!

لقد أصبحنا غريبين، لا يجمعنا سوى سقف بيت واحد.. كل منا يسبح في عالمه الخاص، ولا يعلم عن الآخر سوى القليل..

عدت إلى النوم، ولكن في تلك المرة بلا أحلام..

الفصل الثامن

وفي صباح اليوم التالي استيقظت متأخرًا كما هو متوقع.. فتوجهت إلى المكتب مرهقًا كمن قضى ليلته يصارع وحشًا أسطوريًا.. فوجدت نعوم أمامي جالسًا إلى مكتبي وحاله ليس أفضل من حالي.

فقلت متهكمًا..

- أهلاً.. أخيرًا ظهرت!!

قطب وجهه استياءً وأردف:

- اعذرني فقد استحوذت عليّ مشاكلي.

فقلت أثناء جلوسي إلى مكتبي:

- ماذا حدث؟

أجاب بصوت يغلفه الحزن بعد أن أشعل لفافة تبغ:

- عندما عدنا من فرنسا استأجرت غرفة لخولة في فندق هنا في تل أبيب لتكون بعيدة عن عائلتها فلا يراها أحدهم.. ولكنها مازالت حزينة و......

قاطعته قائلاً:

-واضح أن الأمر تطور وأحببتها.

رد مسرعًا كمن لدغته حيّة:

- لا أبدًا.

فابتسمت ساخرًا وقلت:

- إذن فلماذا تكترث لأمرها؟ ولماذا لم تتخل عنها وترحل في صمت؟!!

طأطأ رأسه، وقال بصوت خفيض:

- لا أعرف.. قد تكون عاطفة الأبوة التي طفقت في الإنبات بين جنبات نفسي تمنعني.. فأنا أشتاق لرؤية ابني الذي في أحشائها اليوم قبل غد..

- ولكن هذا الطفل غير يهودي.. ونحن يهود أرثوذكس، عقيدتنا لا تسمح بالزواج من الأغيار.

طرق إلى الأرض بناظريه، ثم رمقني بنظرة تحمل الكثير من الأسى وقال:

- أعرف.. ولكنني بالطبع لن أستطيع إلقاءه في الطرقات..

نظرت له نظرة غير المصدق لمبرراته الواهية، ثم قلت مقتحمًا حصنه الواهي:

- بل لأنك لا تستطيع الاستغناء عنها ببساطة.. واجه نفسك بالحقيقة.

صمت برهة.. ثم ابتسم مغيرًا مجرى الحديث وقال:

- دعك مني الآن وقل لي ما بك؟ وجهك لا ينذر بالخير.

اعتدلت في جلستي، وابتسمت ابتسامة مريرة ثم قلت:

- المعتاد..

- راشيل؟

- نعم.. حياتي معها تسير من سيئ إلى أسوأ.

اعتدل في جلسته هو الآخر وأردف:

– حاول تهدئة الأوضاع بينكما، احتويها.. فالمرأة كالتربة الخصبة، كلما سقيتها الاهتمام والرعاية أعادتها إليك نبته حب خضراء تسر الناظرين.

– لن يصلح ذات البين سوى ترك إسرائيل.. وبالطبع هذا لن يحدث.

صمت قليلاً، ثم استطردت ساخرًا:

-ألا ترى معي أن النساء نبع أحزاننا.. أنا راشيل.. وأنت خولة.

فرد متهكمًا:

– أرى ذلك وبكل وضوح.

– هن سبب شقائنا في تلك الحياة.. منذ تسببت حواء في إخراج آدم من الجنة كما جاء في سفر التكوين"وكانت الحية أحيل جميع حيوانات البرية التي عملها الرب الإله. فقالت للمرأة أحقًا قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة. فقالت المرأة للحية من ثمر شجر الجنة نأكل. وأما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله لا تأكلا منه ولا تمسّاه لئلا تموتا. فقالت الحية للمرأة لن تموتا. بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر. فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل وأنها بهجة للعيون، وأن الشجرة شهية للنظر. فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت رجلها أيضًا معها فأكل. فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان. فخاطا أوراق تين، وصنعا لأنفسهما مآزر".[٤]

فابتسم ابتسامة مريرة ثم قال:

-الرب بكيدهن عليم..

---

[٤] سفر التكوين، الإصحاح ٣، الآيات: ١،٢،٣،٤،٥،٦،٧

وبتلك الجملة التي تحمل في طياتها آلامًا كثيرة أنهينا حديثنا، وعدنا إلى العمل، وبعد الانتهاء منه خرجنا للتنزه معًا في بلادنا الحبيبة، وتطرقنا للحديث عن الاستعدادات المقامة لردع أي عدوان من جانب العرب..

ومن أهم وأقوى تلك الاستعدادات "خط برليف".. والذي يمتد بطول الساحل الشرقي لقناة السويس.. والذي شرعت إسرائيل في بنائه عقب انتصارها في حرب ٦٧ مباشرة، وهدفه تأمين الضفة الشرقية للقناة من عبور أية قوات مصرية.

فبعد النصر العظيم الذي تحقق ضدهم، يجب أن نحافظ على ما سيطرنا عليه من أراضٍ في سيناء- أرض أجدادنا.

وليكن الرب في عوننا لنسترد كامل أرض مصر التي استعبدنا في بناء حضارتها.. ولكن هذا يستلزم بعض الوقت.

وأنا أرى أن الطريق الآن أصبح ممهدًا، وبخاصة بعد انكسار شوكة عبد الناصر.. فلقد سقط العرب في أيدينا.. وتلك الأرض ستؤول لنا عما قريب، وحينها لن نقبل بشريك..

فقد كان وعد "بلفور" بإقامة وطن لليهود على الأرضي المقدسة مجرد رد الحق لأصحابه.. وقد جاء هذا الوعد لشعور "بلفور" بالشفقة تجاهنا، بسبب ما عانيناه من اضطهاد في جميع دول العالم. فقد رأى ضرورة ملحة في أن تقدم الحضارة المسيحية شيئًا لنا- نحن معشر اليهود- تعويضًا عما عانيناه.

ولذلك فإنشاء دولتنا على أرض أجدادنا يعد تعويضًا لنا عما عانيناه.

تناولنا الغداء أنا ونعوم سويًّا، ثم ذهبنا إلى أحد المقاهي.. فكلانا يحتاج الآخر حتى لو أمسى الصمت ثالثنا.. فكل منا يعاني وحدته على طريقته، واجتماعنا معًا قد يمنحنا بعض الأمل في الغد.

استأذن نعوم لدخول دورة المياه.. وأثناء غيابه شعرت أن أحدًا ما يحدثني..

تلفّت حولي فلم أجد أحدًا.. ولكن الصوت جاءني مرة أخرى.. وفي تلك المرة أدركت أنه ذات الصوت الذي يحدثني في رؤياي، على أنه كان يتردد في دهاليز عقلي، وكأنني أفكر بصوت مغاير لصوتي.. قائلاً:

-يا أبا يوسف، لقد تأخرت..

رددت على طريقته مفكرًا:

-تأخرت على ماذا؟

فجاءني الرد بالطريقة ذاتها:

-لقد تأخرت..

أفقت من غفلتي التي امتدت للحظات على عودة نعوم من دورة المياه.

أظن أنني بدأت أهذي.

لاحظ نعوم شرود ذهني، وعلامات الحيرة على وجهي فسألني قلقًا:

- ما بك؟

فأجبته وأنا أتأهب للذهاب قائلاً:

- لا شيء.. ولكنني أريد العودة إلى البيت.

- حسنًا، هيا بنا.

أوصلني نعوم إلى البيت، فطلبت منه الصعود، ولكنه اعتذر حيث أن الوقت كان قد تأخر، ودَّعني ومضى، فصعدت الدرج متراخي الأطراف، مفكك الأوصال.. جسدي يزن أطنانًا، حتى أن قدميّ لا تكادان تحملانني.. أولجت المفتاح في الباب ودلفت، وهنا سمعت صوت أم كلثوم يتردد في أرجاء البيت..

ناديت راشيل غاضبًا، وما إن حضرت أمامي حتى صحت بها قائلاً:

-لماذا أسمع إذاعة الشرق الأوسط تتردد في البيت؟

أجابت خائفة بخفوت:

-وماذا في ذلك؟

-فيه أنك تتعمدين ترسيخ الثقافة العربية في أذهان أبنائنا.

فردت مسرعة:

-لا أبدًا.. ولكنني حقًا أحب سماع السيدة أم كلثوم.. وأنت تعلم ذلك.

-نعم كنت أعلم.. ولكن هذا كان في مصر وليس هنا.

ثم استطردت قائلاً:

-لا أريد سماع هذه الترهات تتردد في البيت بعد اليوم. مفهوم؟!!!!

تركتني وذهبت دون تعليق.. ولجت إلى غرفتي على الفور والغضب مازال يعبث بي.

فأتى يوسف على عقبي وقال بحذر:

-أبي أريد اللعب معك.

-ليس الآن يا يوسف.

فرد محتجًا:

-ولكنك لم تلعب معنا منذ فترة بعيدة.

ورأيت دينا تقف خلفه وكأنها تدعمه في مطلبه.. مختلسة النظر إلى عيني..

فقلت بلهجة أقرب إلى التعنيف:

- قلت لك يا يوسف ليس الآن، فأنا متعب اليوم..

- كما تشاء يا أبي.

استدار خارجًا مطأطأ الرأس تتبعه دينا.

تخلصت من إلحاحها، وأغلقت الباب خلفها، وجلست محاولاً الاسترخاء.. فلقد كان يومًا مرهقًا بحق.

ولكنني سمعت صوتًا يتحدث إليّ.. التفت حولي فلم أجد أحدًا.

تكرر الصوت مرة أخرى، ولكن هذه المرة بشكل أوضح.. وكأن أحدًا يحدثني.

- يا بنيامين، لقد تأخرت.

انتفضت من مجلسي واقفًا، ثم قلت:

- أين أنت؟

- لا تبحث عني، فلن تراني.

- ماذا تريد مني؟

- التضحية يا أبا يوسف.

- أتريد مني التضحية بابني يوسف.

- ليس يوسف فقط، بل ودينا أيضًا.

ارتجفت من هول الفكرة، فتساءلت بصوت مرتعش:

- أضحي بابني وابنتي؟!!

- لن تتقرب من الرب سوى بالتضحية.. فالرب ليغار من أن ينازعه أحد في قلب المؤمن.. وكي تبرهن على إيمانك، وشدة تعلق قلبك بالرب قدم طفليك قربانًا..

- ولماذا أنا؟

- أنت المختار لتكون إسرائيل هذا العصر.. أنت من ستبني دولة إسرائيل بفضله، وسيكون لك شأن عظيم، ولكن يجب أن تخلص حبك للرب، وتضحي بطفليك ليتم إخلاصك.. وإن لم تستجب لأمر الرب، فستكون العواقب وخيمة.

اختفى الصوت بعد هذه الكلمات.. فأخذت أتلفّت حولي كالملهوف ولكنني لم أجد أحدًا، وكأنني كنت أحدث نفسي!!

هذه المرة الأولى التي أسمع فيها الصوت جهارًا.. ففي المرات السابقة كان الأمر يقتصر على الرؤيا.. واليوم في المقهى بدا كما لو كان أحد يخترق عقلي بالحديث على غير إرادة مني..

فهل لكوني لم أستجب للرؤيا وحدها، فأرسل لي الرب ملكًا يأمرني أمّرا مباشرًا، كي لا يترك لي حجة في عدم التنفيذ، فأمتثل للأمر!!!

أمعقول الرب يريد مني التضحية بطفليّ؟!!!!

ولما لا!!.. فالرب انتزع يوسف وبنيامين من أحضان أبيهما يعقوب.. فصبر صبرًا جميلاً.. ولذلك كرّم نسله، وجعله شعبه المختار.. والأقرب إليه دون سائر البشر أجمعين.

ولكن قلبي يأبي التضحية بطفليّ.. فكيف يتسنى لي ذلك؟ وكيف لي التأكد أن هذا ليس بهذيان؟!!

أعلم أن الأقرب لصوت العقل الآن هو كوني قد جننت.

******

الفصل التاسع

مرت الأيام والحلم نفسه يطاردني كصياد ماهر يعلم متى يقتنص الفرص.. فبدأت أوقن أن تلك الرؤيا توجيه إلهي.. وأن هناك خطرًا يتهددني إن تقاعست عن التنفيذ.

لا أعرف ما قد يحدث إن لم أنفذ الأمر.. ولكنني لاحظت تراجعًا كبيرًا في إيرادات المكتب، وقلة في الإقبال عليه في التعاملات المالية بشكل غير مسبوق.. فهل لهذا علاقة ما بالوعيد؟!!!

ربما، وقد يكون الرب يوجهني للتضحية بطفليّ لأمر عظيم قدّره لي في سماء الغيب.

لا أعلم.. ولكنني أشعر وكأن بداخلي جذوة- لا أدري كنهها- طفقت في الاشتعال.

حتى أتاني يوسف ذات يوم صائحًا:

- أبي.. أبي.. لقد دعتنا المعلمة للانضمام إلى رحلة متوجهة إلى الشاطئ قائلة: "من أراد الانضمام هو وعائلته فمرحبًا به".

طرقت للحظات أفكر ثم تساءلت:

- رحلة إلى الشاطئ!!!!!

- نعم يا أبي.. أرجوك لا ترفض.. فأنا أتمنى الذهاب مع أصدقائي.

- أنا لا أفكر في الرفض يا بني.. ولكن هل علمت والدتك بهذا الأمر؟

- نعم.. لقد أخبرتها ورحّبت..

تباطأت في الرد مفكرًا ثم قلت:

- حسنًا.. سنذهب جميعًا.

فقال والسعادة تقفز من عينيه:

-أشكرك يا أبي، سأخبر دينا.

سمعته يدعو دينا صائحًا والفرحة تنبعث من نبرات صوته ليخبرها بموافقتي..

فأتتني راشيل على عقبه مستفهمة:

-أحقًا وافقت على الرحلة؟!

-نعم وافقت.. الطفلان في حاجة للاستمتاع بأجواء جديدة فلهما زمنٌ لم يتنزها. ولكن ألك رأي آخر؟

-بالطبع لا.. فنحن جميعًا في حاجة إلى تلك النزهة.

-حسنًا. أتمنى أن نقضي يومًا سعيدًا.

ابتسمت في فتور واستدارت خارجة من الغرفة.. وفي تلك الليلة نمت نومًا هادئًا بلا أحلام أو رؤى، وفي صباح اليوم التالي استيقظت باكرًا، وقد أخذت على عاتقي محاولة إصلاح ما أفسده إهمالي للعمل في الفترة المنصرمة.. وعندما وصلت إلى المكتب سمعت صوت نعوم يدوّي في المكان.. فدلفت مسرعًا لفهم ما يحدث متسائلاً:

-ماذا هناك؟ ماذا حدث؟

صاح نعوم غاضبًا مشيرًا إلى أحد العاملين:

-هذا الأستاذ أخطأ في الحساب.. وعندما راجعته رد بأسلوب لا يليق..

وجّهت حديثي نحو الموظف وقلت:

-اذهب أنت الآن وسوف أستدعيك لاحقًا.

فانصرف من أمامنا وانفض الجمع.

أخذت نعوم إلى مكتبي وسألته عما حدث، فقال لي إنه متوتر، ويريد الذهاب.. تركته يمضي، ثم استدعيت الموظف ليشرح لي أسباب الخلاف الذي نشب بينه وبين نعوم.. فعلمت كون الموظف على حق ونعوم هو من أخطأ.. فاعتذرت منه، ووعدته أن أشرح لنعوم الخطأ الذي وقع فيه.

وبعد حوالي ساعتين عاد نعوم- وكان قد هدأ نوعًا- فجلس أمامي على المكتب وقال في وجوم:

- أنا من أخطأ في الحساب وليس الموظف.

- أعلم.. ولكن دعك من هذا الأمر فأنا اعتذرت منه

وقبل الاعتذار.

تنهد في ارتياح ثم قال:

- جيد.

طرقت حينًا ثم سألته في قلق:

- قل لي.. لماذا أعصابك ثائرة إلى هذا الحد؟

- أشعر بضيق شديد.

- لماذا؟ ماذا حدث؟

أشعل لفافة تبغ وغمغم قائلاً:

- لقد قابلت خولة إحدى أخواتها في السوق.

انتفضت ثائرًا وصحت في غضب:

- ولماذا خرجت من الفندق؟

نفث نفسًا عميقًا ثم أردف:

- تقول إنها شعرت بالملل والوحدة فخرجت للتنزه.

- وماذا حدث؟

- أوقفتها أختها وسألتها أين اختفت، وقد لاحظت عليها إمارات الحمل فواجهتها معنفة مستنكرة.. لم تجد خولة ردًا مناسبًا، فأطلقت لقدميها العنان هربًا منها.

تساءلت في جزع:

- وهل تتبعتها؟

- لا أظن.. وإلا لوجدتْ إخوانها في الفندق على أعقابها بدقائق معدودات، ولكنني أعتقد أن هذا الأمر لن يستمر طويلاً.. فمؤكد سيبحثون عنها حتى يجدونها.

زفرت في نفاد صبر ثم قلت:

- وما العمل؟

- لقد أمرتها بأن تجهز حتى نترك ذلك الفندق، ونذهب إلى مكان آخر يبتعد عن الناس قليلاً.

- وهل تنوى الاحتفاظ بالطفل؟

- نعم بالطبع، سآخذ منها الطفل عندما تلد، وأدعها ترحل.

- أنت تكذب يا نعوم.. لن تدعها ترحل كما تزعم.. فعشقك لها واضح كالشمس في كبد السماء..

- وإن صدقت.. فلن أضيّع عمري مع عربية.

نظرت إليه نظرة غير المصدق، ثم أتبعت:

- أتمنى ذلك.

وما إن أتممت جملتي حتى استأذن للعودة إليها هربًا من مواجهة الحقيقة.. فمضى إلى حال سبيله، وعيناي تتبعانه بأسى.. أين نعوم الذي كان رمزًا للحيوية والمرح؟!!.. لقد عبث به الدهر أيما عبث.. وتقاذفته الأيام لتخلق منه خلقًا آخر مطأطأ الرأس.. مكسور الفؤاد.. متراخي الأطراف، وكأن عمره أضيف له عشرون عامًا.. فلم يعد يعني بمظهره كما اعتاد سابقًا، فأطلق للحيته العنان، وازداد شراهة للتدخين، فأمسى كمدخنة مصنع متهالك، لا يكترث مالكه لمعايير النظافة البيئية.

واه حسرتاه عليك يا نعوم.. لقد دفعت بنفسك إلى الهاوية.. ليتك استمعت لنصيحة صديق مخلص، لا يعنيه سوى مصلحتك.

*****

الفصل العاشر

توالت الأيام في رتابة.. وعلى الرغم من محاولاتي لبذل قصارى جهدي في العمل، وسعيي لاستعادة نجاحي، وسمعة المكتب الطيبة إلا أن كل محاولاتي باءت بالفشل، وكأن هناك لعنة ما أصابتني.. فقد عادني حظي العسر، فلم أظفر بتقدم يذكر، وكأنني أزرع في تربة بور ترويها مياه أجاج.. إلى أن أيقنت أن هناك شيئًا ما ينقصني!!

مؤكد رضا الرب وتوفيقه..

استسلمت للفشل، واتخذته حليفًا، إلى أن يقضي الرب أمرًا كان مفعولاً..

وذلك حتى حان موعد الرحلة في صبيحة الغد.. وتلك الليلة شهدت سعادة تغمر يوسف ودينا بصورة لا يمكنني وصفها.. فهما لا يتنزهان إلا قليلاً.. ولذلك ظلا ساهرين طوال الليل يعاندان النوم حتى فقدا الوعي قرابة الفجر أثر الإرهاق.. وما إن غفت أعينهما حتى استيقظا في جزع خشية أن يكون موعد الرحلة قد انقضى أثناء نومهما.. فطمأنتهما أن الوقت لم يحن بعد، فعادا للنوم ثانية.

وقد استغرقت راشيل معظم الليل لإعداد الأطعمة والمشروبات.. فأعدت الكثير والكثير، وكأننا سوف نمكث خارج البيت عدة أيام وليس يومًا واحدًا، فأجهدت نفسها كثيرًا.

أنا أيضًا لم أذق للنوم طعمًا طوال الليل.. فرؤيتي لهم سعداء تتقاذفهم أمواج المرح أشعلت بداخلي جذوة الشك في حقيقة رؤياي..

هل هي حقًا توجيه إلهي.. أم مجرد أضغاث أحلام؟ وإن ثبت لي حقيقة كونها توجيهًا إلهيًّا.. فكيف ستمضي حياتي بدونهما؟ ؟ كيف سأستسيغ طعمًا للحياة بعد فقدي لابتسامتهما تلك؟ وهل ما سأناله بعد التضحية بهما سيكون على قدر تلك التضحية؟! فهما طفلاي فلذتا كبدي، والتضحية بهما أمر صعب.

وبذلك عكف عقلي طوال الليل يعبث بأعصابي.. وانهمرت عليّ الأسئلة لتحاصرني كفأر وقع في الشرك.

هل حقا قُدّر لي أمر عظيم لن يتم إلا بالتضحية لأنال رضا الرب؟

وهل أمتلك القدرة التي تخولني لتنفيذ ما أمرت به؟ ولماذا لا أتجاهل الأمر برمته وكأن شيئًا لم يكن؟

ولكن كم أتمنى حقًا نيل رضا الرب "وما نيل المطالب بالتمني" وكم يعنيني أن يصير لي شأن عظيم كما قد وعدت.. إلى جانب خوفي من وعيد الرب إن لم أنفذ أمره.

حقًا الاختيار صعب، والأصعب الإقدام على تنفيذه..

وهكذا جفاني النوم، وأسلمني فريسة سهلة المراس لعقلي الذي ظل يعبث بي طوال الليل.. إلى أن اتخذت قراري.. سأتجاهل الأمر ساعيًا لأن أمضي في حياتي، وكأن شيئًا لم يكن. إلا إن واتتني إشارة من الرب فعندئذ لن يمكنني التجاهل. وسأضطر للانصياع لأوامر الرب خالي الوفاض.

وفي قرابة الخامسة صباحًا شعرت بنعاس لذيذ يدغدغ أعصابي، فاستسلمت له على غير إرادة مني. وفي تمام السادسة دق المنبه فهرع الولدان فرحين وجاءا إلى غرفتي صائحين:

-اصح يا أبي لقد حان الموعد.

صحوت مفزوعًا على صوتها، أتلفّت حولي حتى استجمع عقلي شتاته قائلاً:

- صحوت.. صحوت اخفضا صوتكما قليلاً.

أمرتها راشيل بسرعة ارتداء ملابسها استعدادًا للخروج.. فخرجا من الغرفة على عاجلين فأوقع كل منهما الآخر.

وبالفعل استغرقنا ساعة حتى أتممنا استعدادنا.. فقد كانت الحافلة ستقلنا في تمام السابعة.

ركبنا الحافلة التابعة للمدرسة.. فوجدنا عددًا من أصدقاء يوسف ودينا وذويهم.. تعارفنا جميعًا، وكان أغلبهم يهود الدول العربية (مزراحيم).. مما سهل التفاهم بيننا كثيرًا.. وكان انتماؤهم لإسرائيل وأيمانهم بها لا يقلان عن انتمائي وأيماني بها.. ولكن هذا لا يمنع وجود قلة جاءوا مرغمين مثلهم كمثل راشيل، وإلى الآن مازالوا يعانون المقارنة بينها وبين البلدان التي نشأوا فيها. فهم يبحثون عن الاستقرار والأمان اللذين تمتعوا بهما منذ نشأتهم، ولا يستوعبون أن ذلك يتطلب بعض الوقت والجهد ليتحقق.. وها نحن نسرع الخطى على الطريق القويم.

فقد استرددنا أرض سيناء المباركة التي تجلى الرب فيها بحديثه مع نبيه موسي، والتي شهدت أيضًا نزول الصحائف، وما هي إلا مسألة وقت لا أكثر، وسرعان ما ستكون إسرائيل أعظم دول العالم.

وأثناء احتدام النقاش وجدنا أنفسنا قد وصلنا إلى الشاطئ.. وكان آيةً في النظافة.. مياهه زرقاء رقراقة تسر الناظرين، وتبث في روحك شعورًا

خفي، وكأن قدمك أول قدم تطأ تلك الأرض التي خلقت حتى تستنشق عبيرًا قد خلقه الرب لتنعم به وحدك.. فتغفل كل المحيطين بك من بشر، وتسلم روحك للنسائم كي تمرح بها، وتعلمها الطفو فوق المياه، بل وحتى الطيران..

فيا بارئ الكون ما أبدع خلقك.

وبالطبع لا يمكنني إغفال دور المدرسة ومجهوداتها في تنظيم الرحلة، فقد كانت منظمة بصورة جيدة.. والقائمون عليها ذوو خبرة في إدارة المجموعات.. فأنزلونا من الحافلة بنظام يضمن لكل أسرة الانتقال إلى المكان المخصص لها على الشاطئ، أسفل مظله وعدد من المقاعد يتناسب وعدد الأسرة.. وحيث تبتعد كل أسرة عن نظيرتها مسافة لا تقل عن المتر لضمان الخصوصية.

وكان هناك عدد محدود من المصطفين على الشاطئ، لا يتبعون رحلتنا يرمقوننا بنظرات مستطلعة..

نظرت في عين يوسف ودينا فرأيت فرحة بكر تطل من عيونهما.. فرحة كالتي تسربت إلى نفس آدم يوم خلق ورأى نعيم الرب.. فرحة لا يسعني وصفها.. حتى أنهما أبيا إضاعة الوقت في تناول الطعام.. وبمجرد أن رأيا المياه استعدا للسباحة، تاركين أمهما تحاول إقناعهما بتناول الفطور أولاً.. ولكن هيهات.. فجم ما يبغيانه الآن أن ينعما بالمياه الخلابة والطقس الرائع.

وعندما يئست راشيل منهما تركتهما يمرحان.

مضي وقت وكان الطقس العام يدعو الجميع للبهجة واستمتاع. ولكن عقلي كان وحيدًا في علم آخر لا يدركه سواي.

متاهة مترامية الأطراف من الشك.. يلهو "منيتورها"[٥] بعقلي البائس.

ولكنني قررت انتظار إشارة الرب.. وإن أتت فلن أتردد في تنفيذ الأمر.

نظرت إلى البحر وتوجهت إلى راشيل بالحديث محاولاً تبديد أجواء الصمت التي تجمعنا قائلاً:

- الطقس رائع، أليس كذلك؟

رددت باقتضاب:

- الإسكندرية كانت أفضل.

- أنا معك.. فالإسكندرية كانت رائعة هي الأخرى.

- إلى جانب أنها كانت تجمعنا بعائلاتنا.

استدرت ورمقتها بثقة قائلاً:

- إذن لماذا آثر أبوك وإخوتك الرحيل إن كانت الحياة هناك مازالت وردية إلى تلك اللحظة.. ألا تنتبهين للحقيقة حتى الآن؟!!

ثم استطردت قائلاً:

---

[٥] والمنتور هو كائن أسطوري يمتلك رأس ثور وجسد إنسان، وكما جاء في الأساطير الأغريقية فهو يحيا في متاهة مترامية الأطرف، وتلقى له الضحايا ليلهو بمطاردتها إلى أن يفترسها .

-إذن دعيني أوضح لك عزيزتي ما تغفلينه.. إن اليهود بعد انتصار ٦٧ يواجهون أبشع صور الاضطهاد في جميع الدول العربية.. فقد تعرضت للهجوم أغلب الأحياء التي يعيشون بها.. وقد أُحرق عدد غير هين من المعابد والكنس.. هذا إلى جانب حملة الاعتقالات الموسعة، والتي لم يستثني منها حتى الحاخامات.. بالطبع بعد أن صادروا ممتلكاتهم.. وأغلب من هاجروا بعد الحرب فروا بأرواحهم، تاركين كل ما لهم خوفًا مما سيلحق بهم.. فبعد هزيمة عبد الناصر لن يترك يهوديًّا واحدًا في مصر.

أبعد كل هذا تحدثينني عن الإسكندرية؟!!!!!

نظرت لي بتحدٍ قائلة:

- ولو افترضت أن هذا حقًا ما حدث.. فالدولة التي هاجروا إليها ستكون أفضل من إسرائيل.

- ولماذا لا نجعلها نحن أفضل دولة في الدنيا؟!!

صاحت بعصبية:

- لأنها ليست بلادنا.. ليست أرضنا.. لم نولد هنا، ولا نشعر بالانتماء إليها.

- ولكن هذه أرض جدنا يعقوب.. والأرض التي وعد الرب بها ذريته من بعده، والآن أضحت ملكًا لنا بعد مرور كل هذا الزمان.. وأنت تأتين لتقولين ليست أرضنا!!!

ألم يقل الرب لإبراهيم في سفر التكوين: "اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أُريك، فأجعلك أمة عظيمة،

وأباركك وأعظم اسمك، وتكون بركة، وأبارك مباركيك، ولاعنك ألعنه، وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض"

وقال أيضا : "لنسلك أعطي هذه الأرض" [٦]

هدأت نبرة صوتها وقالت:

- أنا لا أعترض على مشيئة الرب.. ولكن ألم تقل أنت بنفسك إن الرب منحها لنسل إبراهيم؟!!.. . أليس العرب أبناء إسماعيل بن إبراهيم من جاريته هاجر؟!!.. إذن فهم أيضًا نسل إبراهيم، أي أنهم من وجهة نظري لهم الحق في هذه الأرض مثلنا تمامًا.. فمن أين أتيتم بأن هذه الأرض لأبناء يعقوب وحده؟!!

وفي النهاية هم من استمر وجودهم فيها على مر الزمان.. فكيف نأتي نحن كي نحيا وسط مجموعة دول تكره اغتصابنا لأرضهم بالقوة؟!

كيف سنربي أبناءنا وسط كل هذه الحروب والعداءات؟ ولماذا؟!

رددت عليها متهكمًا:

- الحروب التي انتصرنا فيها، أليس كذلك؟!! نحن الآن الأقوى في الشرق الأوسط، مدعومين من أمريكا الدولة الفتية، وسائر الدول الأوربية.

فقالت بأسى:

- الدول الأوربية التي وعدتنا بأرض فلسطين لأنها تكره وجودنا في بلادهم.

---

[٦] سفر التكوين، الإصحاح ١٢، الآيات: ١،٢،٣،٧

- لا أبدًا فبلفور كان محبًا لليهود.

- أنت تخادع نفسك.. مثلك كمثل سائر الصهاينة.. فبلفور كان يكره اليهود، ولذلك وعدهم بأرض فلسطين ليتخلص منهم بعيدًا عن بلاده.

انفعلت عليها، وصحت بها قائلاً:

- من أين تأتين بهذا الكلام؟!!

فقالت بتحدٍ صريح:

- هذه هي الحقيقة التي تخدعون أنفسكم كي لا تروها.. نحن مكروهون من جميع الأجناس.. العالم أجمع يريد أن يلفظنا، ولذلك دفعوا بنا إلى فلسطين.

استدرت ناظرًا إلى البحر وقلت بيأس:

- لا فائدة من الحديث معك.

تغيرت نبرة صوتها من الهجوم لنبرة لطالما تمنيت أن تطرق قلبي منذ أتينا إلى إسرائيل إبان احتضان يدي براحتيها قائلة:

- لا هناك فائدة.. هيا بنا نسافر إلى أي دولة أوربية، ونسترد ما كان بيننا.. دعنا ننسى ما مررنا به هنا من بُعد وجفاء، لنعود لسابق عهدنا.. دعنا نترك كل هذه الشرور والحروب.. أرجوك.. فأنا لا أستطيع التنفس في هذه الأجواء.. أرجوك دعنا نبدأ من جديد.. فأنا مازلت أحبك، وأريد استعادة حياتنا الهادئة..

أريد حياة هادئة راقية لأبنائي تبتعد عن الكره والصراع الذي نعانيه هنا.. فلماذا نعيش حياة مهددة لأن جيراننا يكرهوننا ويتحرقون لاقتناص أقرب فرصة تواتيهم لاستعادة أرضهم؟؟.

- من قال هذا الكلام الفارغ؟!!.. ومن يجرؤ على الاقتراب منا ونحن الآن أقوى وأعظم من ذي قبل!!.. لقد مضى زمن الحروب.. الأرض الآن لنا وسوف تُبنى وتعمر بسواعدنا.. ولن يطالبوا بها بعد الهزيمة الشنعاء التي لحقت بهم.. أنت تعطيهم حجمًا أكبر من حجمهم.. لماذا تحسبين لهم حسابًا، ونحن في قلعة محصنة لن يجرؤ أحد على الاقتراب منا، فضلاً عن مهاجمتنا.. وزعيمهم عبد الناصر قد كسر، ولن تسمعين له صوتًا بعد الآن.

تركت يدي وعاد صوتها لحدته قائلة:

- وما تعليقك على المناوشات التي تتم على ضفة القناة؟!!

- هذه آخر أنفاس لهم.. فهم لم يستوعبوا الهزيمة بعد.. ويعتقدون أنهم بتلك الأمور الصبيانية سيضغطون على إسرائيل.. ولكن لا تقلقي سيحسم الأمر قريبًا.. فأنفاسهم مقطوعة، إلى جانب أن المجتمع الدولي في صفنا.. صدقيني سيحسم الأمر في القريب العاجل.

- على العكس.. فهم بالفعل يستنزفون إسرائيل.. وعبد الناصر لن يستسلم بتلك السهولة التي تنتظرها.

ضحكت بشدة وقلت:

-يستنزفون إسرائيل بتلك الألعاب الصبيانية.. أنت حقًا حمقاء.

ثم أكملت بعد أن هدأت نوعًا:

-أما عبد الناصر فقد استسلم بالفعل.. فهل هناك استسلام أكثر من محاولته التنحي عن السلطة.. هو الآن جسد بلا روح.

-والعمليات الانتحارية التي يقوم بها الفلسطينيون؟!!!

-أيضًا ستأخذ وقتها وتنتهي.. يكفيهم ما توفره إسرائيل لهم من قوت يومهم.. وسيمسون عبيدًا لنا، نسخّرهم في الأعمال الشاقة مثلما استخدَمَنَا المصريون قديمًا.. وسيحين الوقت الذي ستصبح أرض مصر كاملة لنا.. فملكنا سيكون من النيل إلى الفرات كما وعدنا الرب.

نظرت إلى البحر قائلة:

-لا فائدة من الحديث معك.. اسمح لي بالاستمتاع بالطقس في صمت كي لا نعكر صفو اليوم.

-كما تشائين.

ساد الصمت، وبداخلي تتصارع الأفكار..

-لماذا هذا الحوار الآن؟!! وكأنها تعرف ما يجول بخلدي، وأرادت إعطائي فرصة للتراجع.

مرت لحظات ثقيلة حتى أتى يوسف ودينا، ودعاني كي أسبح معهما في البحر.. فاستجبت لهما هربًا من تلك الأجواء التي شحنت بشحنات سالبة عالية الفولت، مترجلاً معهما نحو المياه.

أخذنا نمرح بعض الوقت حتى تنبهت لتردد الصوت في ذهني قائلاً:

-نفذ الأمر يا بنيامين.. نفذ ما أمرت به الآن.

أخذت أتلفت حولي غير مصدق لما يحدث حتى تكرر الصوت ثانية:

-الآن اسلم روحيّ طفليك يا بنيامين لتخلص حبك للرب، وتبدي انصياعك لأوامره.. فتنل رضاه وتنأى عن سخطه.

هل هذه الإشارة التي انتظرتها وعاهدت الرب إذا ما أتتني سأنصاع لها؟!!

نعم هي!!

نظرت إليهما وهما يمرحان في سعادة وأمان فرق قلبي.. أحقًا حان موعد فقدكما؟!! عيناي لم تشبع من رؤيتكما بعد.

ولكن الرب أرسل لي الإشارة فلا يمكنني التقاعس.. وقد يسّر السبل أمامي لتنفيذ مهمتي.

فلا بد من التنفيذ وإلا سيحل عليّ غضب الرب.. يجب أن أمتثل لأوامره كما فعل جدنا إبراهيم عندما أمره الرب بالتضحية بابنه كما جاء في سِفر التكوين:

((فقال: "خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحاق واذهب إلى أرض المُريّا وأصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذي أقول لك".

فبكر إبراهيم صباحًا وشدّ على حماره، وأخذ اثنين من غلمانه معه وإسحاق ابنه، وشقق حطبًا لمحرقة، وقام وذهب إلى الموضع الذي قال له الله..

ثم مدّ إبراهيم يده وأخذ السكين ليذبح ابنه.. فناداه ملاك الرب من السماء وقل: "إبراهيم، إبراهيم".

فقال: "هأنا ذا".

فقال: " لا تمد يدك إلى الغلام، ولا تفعل به شيئًا، لأني الآن علمت أنك خائف الله، فلم تمسك ابنك وحيدك عني".

فرفع إبراهيم عينيه ونظر، وإذا كبش وراءه ممسكًا في الغابة بقرنيه، فذهب إبراهيم وأخذ الكبش وأصعده محرقة عوضًا عن ابنه)).[٧]

أنا لا أقِلُ أيمانًا من إبراهيم.. ولا بد أن أقدم فروض الطاعة والولاء، ولا أمسك وحدي عن الرب.. وقد ينقذهما الرب كما أنقذ إسحاق في اللحظة الأخيرة.. أو يخلفني خيرًا منهما.

انتبهت إلى أن البقعة التي نسبح فيها الآن لا تحوي سوانا.

شعرت أن تلك الفرصة التي يمنحها لي الرب لتنفيذ أمره.. ولذلك حتم عليّ اقتناصها.

ألقيت نظرة على راشيل فوجدتها تطالع كتابًا ما، ولا تنتبه إلينا، التفتُّ حولي فلم أجد أحدًا يرانا.

لقد عقدت العزم واتخذت قراري..

سوف أنفذ أمر الرب..

---

[٧] سفر التكوين، الإصحاح ٢٢، الآيات: ١٢،١١،١٠،٣،٢. وهو ما جاء بالفعل في التوراة، ليختلف مع المعتقدات الإسلامية التي تؤكد أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام

وضعت يديّ على رأسهما، فنظرا لي بعيون بريئة لم تختبر قسوة الحياة بعد، وعلى ثغرهما ابتسامة تحمل من الود الكثير.. ولكنني ضغطت عليهما حتى غمرتهما المياه..

حاولا التملص في عدم فهم فارتعشت يداي رافضة ما تقدم عليه نفسي فاستطاعا الفكاك من بين راحتيّ.. وارتفعا فوق سطح المياه فشهقا يعبان الهواء في صدريهما اللذين ضاقا بفعل المياه والصدمة، وقال يوسف وقد تنبه لما أقدم على فعله:

-لماذا يا أبي؟ لماذا؟!!

فأجبته بصوت خافت:

-صدقني.. سيكون حالكما أفضل عند الرب.. هو أرادكما ولا يمكنني التقاعس عن أوامره.. مجد إسرائيل في حاجة لتلك التضحية.. فتقبلها يا بني مثلما تقبل إسحاق أمر الرب لأبيه بذبحه بنفس راضية خانعة.. وأنت لا تقل إيمانًا عن إسحاق.. أليس كذلك يا بني؟

امتثل يا ابني لأمر الرب.. فالنعيم ينتظركما..

-ولكنك يا أبي لست إبراهيم.

ترقرقت في عينيه عبرة راجية، وربتت دينا على يدي في مرح ظنًا منها أنني ألعب معهما، غير مدركة لما هي مقدمة عليه.

فأحكمت قبضتي عليهما، فلاحقني يوسف بحنجرة طفقت المياه في اختراقها قائلاً:

-ولكن يا أبي.. أرجوك لا..

ولكنني أغلقت أذنيّ عن توسلاتها كي لا يحتلني ضعفي.. ونفسي فرضت سطوتها على راحتيّ ليقوما بمهمتهما على الوجه الأكمل.

فغمرتها بالمياه مرة أخرى للحظات حتى ساد الصمت.

****

الفصل الحادي عشر

استغرقت عدة دقائق حتى تمالكت رباط جأشي، إلى جانب تأكدي التام من غرقهما.

الآن يجب على أن أتهيأ لما سيحدث.. فهناك الكثير من الصراخ والبكاء ينتظرنني من راشيل عند سماعها للخبر.. بالإضافة إلى أصدقاء يوسف ودينا، وذويهم المتواجدين معنا على الشاطئ، والذين سيلهبون المشهد ليزداد سوءًا..

ولذلك فيحتم عليّ إتقان دوري في التظاهر بالدهشة الممزوجة بالجزع والحزن.. والعمل على التأكيد طوال الوقت أن الأمر تم دون أن يكون في يديّ حيلة لمنعه.

خرجت من المياه منهارًا، وأنهارٌ من العبرات تنهمر من مدامعي صائحًا بصوت جهوري:

-راشيل.. راشيل..

فزعت راشيل من مظهري، فهبت واقفة متسائلة في جزع:

-ماذا هناك؟ ماذا حدث؟ أين الطفلان؟!!!!!

فأجبتها باكيًا:

-لقد تركتهما، وقلت لهما "سأسبح بجواركما، ولا تتحركا كثيرًا عن هذا المكان"، وسبحت بعيدًا عنهما قليلاً، وعندما عدت لم أجد أحدًا منهما.

ثم أجهشت في البكاء بصوت عالٍ قائلاً:

-لا أعرف ماذا حدث؟!!... لا أعرف كيف غرقا؟؟!!.. يا ليتني لم أتركهما.. يا ليتني..

وشرعت في البكاء والصراخ بصورة هستيرية. بالطبع أحاط بنا أغلب المتواجدين على الشاطئ ليتساءلون في جزع عما هناك.

تلقت راشيل الخبر فاغرة الفاه، فقد أصابها الذهول وحالة من رفض الواقع، وقالت وكأنها تحدث نفسها:

-كيف حدث هذا؟ كيف غرقا في آن واحد؟!!

ثم أكملت في دهشة ملتفتة إلى الموجودين حولنا:

-يوسف ودينا غرقا!!!! لا لا لا أنا لا أصدق هذا الهذيان.. أنا أثق في يوسف وحرصه، وأعلم أنه غير متهور.. فكيف له الغرق هو ودينا بتلك البساطة؟! كيف؟!!!!!

ثم أكملت وهي تنظر لي في لوم:

-ولماذا تركتهما وحدهما؟ لماذا؟!!

قالت جملتها الأخيرة وشرعت في صراخ يمزق نياط القلوب، مهرولة نحو الشاطئ لتبحث عنهما ثم تعود لتوجه حديثها للجمع المحيط بنا:

-لا.. لا يمكن أن يغرقا بتلك البساطة.. أليس كذلك؟ أرجوكم قولوا لي إنني محقة.. لن يضيع عمري هباء.. مؤكد هما في مكان ما، وسيظهران حالاً.. أليس كذلك؟

ثم تعاود الصراخ وسط نظرات الشفقة المصوبة نحوها من المحيطين بنا.. لتعود صوب المياه للبحث عنهما من جديد، فيلتف حولها الكثيرون محاولين تهدئة روعها، ومنعها من إصابة نفسها بأذى أثر تهورها.

إلى أن خارت قواها فسقطت أرضًا وهي تردد:

-أرجوك قل لي إن هذا كابوس.. . أرجوك.. أرجوك..

أنا لا أصدق ما تقوله.. أريد يوسف ودينا.. أريد طفليّ..

وأخذت في الصراخ والعويل.

تدخل أحد الموجودين محاولاً تهدئتها قائلاً:

-لا تخافي يا سيدتي سنبحث عنهما جيدًا.. فقد يكونان خرجا من المياه، وأبوهما لم يرهما ثم تاها.. أرجوك أمهلينا بعض الوقت لنبحث بتروٍ.

-الحق معك.

قالتها راشيل وقد هبت على لهجتها بعض نسمات الأمل.

-الحق معك.. سأنتظر.. مؤكد هذا ما حدث.

نظر لي في تساؤل غير واضح اللهجة:

-لماذا أجزمت أنهما غرقا.. فهل شاهدتهما يغرقان؟!!

أجبت مسرعًا وقد بدا على صوتي التوتر والاندفاع:

-لا لا.. أنا كنت بعيدًا عنهما.. ولكنني توقعت هذا عندما عدت ولم أجدهما.

فرمقني بنظرة تحمل في طياتها دربًا من الشك ثم قال:

-إذن كل شيء جائز..

ثم أردف:

-أعرفكم بنفسي.. أنا وسيم وهذه زوجتي سارة.. الآن سنبحث أنا وهؤلاء الشباب في جهة اليمين.. وأنت وراشيل في الجهة المقابلة.. ثم نلتقي هنا ثانية.

وبالفعل تحرك أغلب من كانوا يحيطون بنا للبحث عن الطفلين..

استغرق البحث النهار بأكمله.. وبالطبع كلما مر الوقت دون جدوى كانت راشيل تزداد في النحيب والصراخ.. فتارة تسقط في استسلام وفقدان للأمل.. وتارة أخرى تعاود البحث والأمل يتملكها.. ووجدتني أنا الآخر مع مرور الوقت أشعر بألم يعتصر قلبي ليدميه.. فراشيل مازالت تتعاطى الأمل، أما أنا فعلى يقين بعدم جدوى البحث.. لقد مضيا إلى عالم آخر..

نعم.. أنا حقًا أتألم لفقدهما.. ولا يمكنني الإنكار.

قلبي ينزف لفراقهما..

فهل سيغفر لي الرب شعوري هذا؟؟..

ولكن أشد ما أثار حفيظتي طوال عملية البحث نظرات ذلك الرجل المدعو وسيم.. فقد كان يرميني بنظرات لا أرحب بها كثيرًا، وكأن الشك يعتمل بداخله نحوي. ولكنني تمنيت في نفسي أن يتوقف الأمر عند حد الشكوك، والتي كنت أنا السبب ورائها عندما أعلنت غرقهما فور خروجي من المياه، ولا يحاول العبث خلفي..

وبالطبع أمسى هذا الرجل قائد عملية البحث.. وعلمت أثناء بحثنا أنه قد حُرِم نعمة الإنجاب.. ولذلك كان يبحث معنا هو وزوجته بحرية تامة.

إلى أن أعلنت الشمس انتهاء النهار، راسمة لوحة درامية تعكس مصرعها، فبدت وكأنها تنزف دفئًا كما تنزف قلوبنا ألمًا.. لتجبرنا على إنهاء عملية البحث.. فالرؤية ستقارب الاستحالة في ذلك التوقيت.

فبادر وسيم بالقول وهو يلهث:

-البحث الآن لا طائل من ورائه.. ولذلك اقترح أن نوقف البحث الآن ونأتي غدًا في وضح النهار علنا نتوصل إلى شيء.

ثم أخذ نفسًا عميقًا، وأكمل بصعوبة موجهًا حديثه إلى راشيل:

-وإن ظهرا فمؤكد سيتوجهان نحو أمن الشاطئ. فأنت تقولين إن ابنك يحسن التصرف.. أليس كذلك يا سيدتي؟

فقالت راشيل في يأس:

-ولكننا سألنا أمن الشاطئ وقالوا "لم يذهب إليهم أحد".

-نعم.. هذا حدث.. ولكن أرجوك امنحينا بعض الوقت لنستطيع البحث في ضوء النهار.. غدا سنبدأ البحث من جديد.. والآن عودي إلى بيتك واستريحي قدر الإمكان فغدا ينتظرنا المزيد من البحث.

واستطرد قائلاً بصوت جاد:

-وأعدك سأقابلك هنا صباحًا.. ولن أتركك حتى تعثري على يوسف ودينا.

صمتت راشيل في أسى، فلم يكن أمامها خيار آخر.

وعند هذا الحد تفرق الجمع الذي أمسى وسيم وزوجته وزوجين آخرين.. فالباقون أضناهم البحث وانسحبوا تباعًا مع مرور الوقت.

****

الفصل الثاني عشر

عدنا إلى البيت عند حلول المساء، الذي أطبق على روحنا بمزيد من الكآبة.. وبالطبع راشيل كانت قد استنفدت كل طاقتها في الصراخ والبحث طوال اليوم.. فأمست كبالونة انتزعت سدادتها فتهاوت في خفوت.

فلم تنبس ببنت شفه طوال طريق عودتنا إلى البيت.. وما إن وصلنا دلفت إلى غرفة الأولاد مباشرة وأظنها فقدت وعيها بالداخل.

وهنا فقط بدأت أنزع قناع الدهشة وعدم التصديق.. القناع الذي حافظت على ارتدائه منذ الحادث وحتى الآن.. وبدأت أشعر بحزن دفين على فراقهما.. دون تمثيل..

فالألم يوغر صدري ليعتصر قلبي.

وشرعت التساؤلات في التصارع في ذهني ليلتهم بعضها بعضًا..

وماذا بعد؟

ماذا سيحدث الآن؟

كيف سأصبح صانع مجد إسرائيل بعدما قدّمت ذريتي قربانًا للرب؟

وكما هو متوقع لم يطاوعني النعاس في تلك الليلة.. فظل يراوغني حتى رأيت راشيل تقف أمامي.. فتنبهت إلى شروق الشمس.

توجهت من فورها إلى خزانة الثياب لتستبدل ثيابها التي لم تستبدلها منذ عدنا إلى البيت ليلة البارحة.. فمن الجلي أنها قد قضت كامل ليلتها بها. وبالطبع لم تكن قد تخلصت من آثار البكاء والنحيب أثر ليلة أمس..

فبدت كمدينة محتلة تهدمت أسوارها.. ومرآها بتلك الحالة أوغر صدري ليزيد من آلامي.

ولكن نظرة الأمل أوجدت سبيلاً إلى عينيها حسدتها عليها، وتمنيت لو أن لي الحق في أن أمتلكها أنا الآخر.. ولكن أيعقل أن يكون الرب قد أخفى لي مفاجأة، مثلما أخفى ليعقوب حياة يوسف وأعاده إليه بعد عدة سنوات؟!..

هل يجوز لي التطلع لهذا الحلم؟!!

أفقت من غفلتي التي حملت لي بعض نسمات الأمل على صوتها تحدثني دون أن تنظر نحوي قائلة:

-ألم تجهز بعد؟!!!

فأجبتها مسرعًا:

-سوف أرتدي ثيابي حالاً.

وهممت بالوقوف لاستبدل ثيابي أنا الآخر، ثم تنبهت إلى ضرورة ارتداء القناع- الذي كنت قد انتزعته أمس- بالتوازي مع ارتداء ثيابي حتى لا أبث الريبة في نفس راشيل.

أتمنى ألا أجد هذا المتطفل الوسيم الذي أقحم أنفه في حياتي عنوة.. وللأسف لن أجرؤ على لفظه خارجها.

توجهنا من فورنا إلى الشاطئ.. وبالفعل وجدناه هناك في انتظارنا.. وكأن الغرقى أطفاله!!!

وقد بدا اليوم عمليًّا أكثر من نهار أمس.. وهو بالمناسبة يحظي بقدر وفير من اسمه.. فهو يمتلك قدرًا لا بأس به من الوسامة، في مقتبل العقد الرابع من العمر.. حرمه الرب نعمة الإنجاب، وأعتقد أن هذا السر وراء اهتمامه بيوسف ودينا.. فاختفاؤهما أشعل بداخله عاطفة الأبوة التي أخمدت بأمر من الرب.

وهو من أولئك المتشككين المصابين بداء "البارانويا" فيرون في كل فرد مشروع مجرم إلى أن يثبت العكس.. ولذلك فلن يترك فرصة الارتياب فيّ.

ولكنه أيضًا والحق يقال يتميز بقدر وفير من الشهامة التي ندر توافرها في شباب اليوم.. فلا يدخر جهدًا في مساندة من يحتاجه عارضًا خدماته بكل أريحية.. وبالطبع هذه السمة الفضلى لا تتعارض مع كونه عاشقًا للظهور.. فشهامته تلك تفتح أمامه أبواب القلوب.

ولكن على الرغم من حمد تلك الصفة فإنها لا تتناسب مع حالتي في ذلك التوقيت.. فلا أتمنى منه أن يقحم أنفه في حياتي، لأنه سيفسدها ولا شك.. غير أنني آسف لا أعرف لي سبيلاً للتخلص منه.. والأحرى أنه يجب عليّ إظهار امتناني لخدماته واهتمامه طوال الوقت..

قابلنا بروح تشع بالحماس والتأهب قائلاً:

-أهلاً.. لقد حضرت قبلكما وبدأت البحث.

فقالت راشيل في تهكم وهي ترمقني:

-لقد تأخرنا بفضل بنيامين.

تدخلت في الحديث محاولاً تغيير مجراه قائلاً:

-هيا نبدأ البحث حتى لا يسرقنا الوقت.

وهكذا بدأنا اليوم بإلقاء اللوم عليّ من جانب راشيل.. فيا تري كيف ستكون خاتمته؟!

حاولت أن أتقن دوري.. وأعتقد أن راشيل لم يعتريها الشك فيّ للحظة.. واستمر البحث طوال اليوم حتى مللنا وأيقنت راشيل من غرق الطفلين.. فتوارت نظرة الأمل لتحتل محلها نظرة اليأس والإحباط.

وبادرت بقول ما لا يجسر أحدنا على لفظه في يأس:

-ليس هناك فائدة من البحث..

وأكملت والدمع اتخذ سبيله على وجنتيها:

-لقد غرقا.

توقفنا جميعًا بعد أن ألقت بتلك القذيفة في وجوهنا.. فبادر وسيم للتأكيد على رأيها قائلاً:

-هذا ما أراه أنا أيضًا.. على الرغم من عدم تقبلي لفكرة غرق الطفلين بتلك البساطة في صمت..

ثم استطرد في استياء وكأنه يحدث نفسه:

-هذا لا يعقل.. كيف لم يستغث أحدهما لإنقاذ الآخر؟!

وكيف غرقا معًا في آن واحد إن كان هذا ما حدث؟!

أعتقد أن هناك علامات استفهام كثيرة تحيط بأمر غرقهما.

تجنبت الحديث تمامًا، حيث إنني لا أريد جذب الأنظار نحوي واكتفيت بالبكاء.

وهكذا انتهي البحث بعد أن طلب وسيم رقم هاتفنا بحجة التواصل للاطمئنان على أحوالنا، ومعرفة إن كانت هناك أخبار جديدة جيدة.. وبالطبع لم أملك ترف الرفض على الرغم من ارتيابي في طلبه، وفي طبيعة الحديث الذي قد ينشأ بينه وبين راشيل.. فأنا أخشى أن يعبث بأفكارها.. ولكن ما باليد حيلة.

*****

الفصل الثالث عشر

عدنا إلى البيت فدلفت راشيل إلى الحمام لتأخذ حمامًا دافئًا.. فجلست في الصالة أنتظر خروجها كي آخذ دوري في الاستحمام، ولكنها تأخرت كثيرًا بالداخل فانتابني القلق.

طرقت الباب في جزع فردت بصوت أخفى الدمع نبراته، متمتمة بكلمات لم أتبينها، ولكنني اطمأننت لكونها قادرة على الرد.

عدت إلى مقعدي أنتظر.. وعندما خرجت من الحمام توجهت إليها على الفور لمواساتها، ولكنها صدتني قائلة:

-لا أستطيع الحديث الآن.. أرجوك دعني أستريح..

وولجت مباشرة إلى غرفة يوسف ودينا دون كلمة أخرى..

دلفت إلى الحمام أنا الآخر وأخذت حمامًا.. ثم عدت إلى غرفتي وعندما اضطجعت على فراشي بدأ شريط الأحداث يدور أمام عيني وكأنه يحدث الآن.

كيف فعلت هذا؟!!

كيف ضحّيت بطفليّ؟!!

كيف تخلّيت عنهما؟!!

كيف تجاهلت استغاثتهما؟!!!

نظرة عين يوسف وربت دينا بيدها على يدي لا أستطيع نسيانهما.

لم أجد إجابة تمحي ما يختلج في صدري من ألم وحزن دفينين.

لا أصدق أن صوتهما لن يتردد في البيت ثانية.

لا أصدق أنني أمسيت وحيدًا.

نعم وحيدًا؛ فراشيل تحوّلت منذ الحادث إلى شبح، لا يأكل ولا ينام، فكيف لي مطالبتها الشعور بي!!

لن يشعر بي أحد، ولن أستطيع أن أقص ما في صدري على أحد.

توجهت إلى الشرفة، وتطلعت إلى السماء قائلاً بصوت خافت:

-يا رب هل كان وعدك لي حقيقة، أم أنه أضغاث أحلام؟!!

أشعر أنني موشك على فقدان عقلي..

الألم يعتصرني.. يا ليتني ما ضحّيت بهما..

ولكن ماذا عن وعد الرب بأن لي أمرًا عظيمًا إن نفذت الأمر؟!! فهل أستغني عنه بذلك اليسر؟!!

وماذا أيضًا عن وعيده إن لم أمتثل؟!! فهل أستطيع تحمل تبعاته؟!!

بداخلي صراع لن ينتهي، وهناك ضوء في ضميري شرع في السطوع، يحدثني بأن تلك البلد مشؤمة كما كنت راشيل ترى.

فهل حقًا كانت ترى ما لا أراه؟!!!

يا ليتني تركت لنفسي فرصة أوفر للتفكير، ولكن فات الميعاد.

بدأت أشعر بالشفقة تجاه راشيل، تلك المسكينة التي حرمتها أهلها عندما أجبرتها على المجيء معي لإسرائيل أولاً، والآن حرمتها ولديها.

كيف ستعيش؟!!

أود الاعتذار منها بشدة وأرجو تعويضها، ولكن كيف؟!!

فما فقد لن يعوض.

الألم يعتصرني، ويشعل جوارحي بلهيب الفراق والندم.

-سامحاني يا ولديّ.. سامحاني أرجوكما..

****

الفصل الرابع عشر

نمت بعد صراع طال حتى شروق الشمس..

فرأيت يوسف يصارع الأمواج محاولاً التحدث إليّ..

ثم قال بعد صراع طال:

- اعثر على جثمانينا يا أبي، أرح قلب أمي...

فرددت عليه مسرعًا وأنا أحاول الوصول إليه لإنقاذه:

- سامحني يا بني، أعدك بالعثور عليكما...أعدك..

استيقظت مفزوعًا وأنا أردد" أعدك يا يوسف أعدك".

فجلست على الفراش لحظات كي استجمع قواي، ثم توجهت إلى دورة المياه وغسلت وجهي.. نظرت إلى المرآة على استحياء فطالعني وجهٌ لم أعد أعرفه.. وتساءل ضميري:

أي وجه هذا؟!

أهذا حقًا وجهي أم من يطالعني مسخ دميم؟!!

كم تخفي هاتان العينان من أهوال!!!

تراجعت عن النظر في عينيّ وتنهدت خوفًا، وضجرًا.

عدت إلى غرفتي بخطوات حثيثة كي لا تشعر بي راشيل.. وشرعت أفكر في هذا الحلم وعلاته.

فهل رأيتهما هكذا لكوني استغرقت في التفكير فيهما إلى أن ابتلعتني غياهب النوم؟! أم لما يعتمل في صدري من آلام وأوجاع، ورغبتي الملحة في استعادتهما؟!!

ظلت الحيرة تفتك بي، حتى شرفت خلايا عقلي على الاشتعال الذاتي؛ فتناولت عقارًا ليساعدني على النوم.. مؤكد في الصباح ستنجلي الصورة وتتضح بعض الأمور.

وعندما استيقظت صباحًا وجدت راشيل مازالت نائمة.. أعتقد أنها تناولت بعض العقاقير لتساعدها على النوم، هي الأخرى.

أخذت حمامًا وارتديت ثيابي وخرجت من البيت متوجهًا مباشرة نحو الشاطئ.

توجهت إلى أمن الشاطئ، وسألت كبيرهم عن جثماني يوسف ودينا فرد قائلاً:

- لم نعثر على شيء حتى الآن يا سيدي، ولكن اطمئن فسوف يطفوان قريبًا.

فتساءلت مستفسرًا:

- متى تظن؟

- في الغالب في خلال ثماني وأربعين ساعة، ونحن لن نكف عن البحث فلا تقلق.

شكرته وتركت له رقم الهاتف للاتصال بي إذا ما جد جديد. فوعدني بسرعة الاتصال إن عثروا عليهما.

توجهت إلى العمل، عقب عودتي من الشاطئ مباشرة، فلا شك أن العمل سيكون أفضل كثيرًا من الجلوس في المنزل أمام راشيل عيناها في عيني تخترقانني بهما في كل تحركاتي.

لا أعرف لماذا تستحضرني الآن قصة "القلب الواشي" للكاتب "إدجار آلان بو" التي أتذكر تفاصيلها جيدًا.. وكانت تتحدث عن رجل قام بقتل رجل عجوز وشوه جثته حتى ضاعت معالمها.. وقام بقطع رأسه ويديه ورجليه ودفنه تحت ألواح الكوخ الخشبية، ثم أعاد الألواح ونظَّف الكوخ بعناية.. وحين دخل عليه رجال الشرطة عقب إبلاغ جار الرجل العجوز عن سماعه صرخة، رحّب القاتل بالشرطة وأخذهم في أرجاء المنزل حتى بدأ صوت رنين، واستمر الصوت في الازدياد.. فبدأ القاتل يشعر أن قلب القتيل يعلو صوته، فأخذ في التوتر حتى اعترف بجريمته ظنًا منه أن القلب سيشي به.

وهذا ما ينطبق على حالي أمام راشيل.. فينتابني شعور بأن أمري سيفضح وتقر عيناي وتعترف بكل شيء.. ولذلك سأعمد إلى الهرب منها قدر المستطاع.

دلفت إلى المكتب فوجدت كل العاملين على علم بما حدث.

فصعقتهم مفاجأة حضوري.. وبالطبع جاءوا جميعًا لمواساتي، وتقديم واجب العزاء.. ولكنني تعجبت من اختفاء نعوم حتى الآن.

وبعد انصرافهم سألت عنه عيزرا.. فأجابني بأنه لم يحضر منذ يومين.. أي تقريبًا منذ يوم الحادث.

شكرت الرجل وأذنت له بالانصراف.

وما هي إلا دقائق حتى وجدت نعوم أمامي مهرولاً تنتابه حالة من الذهول، مما تبادر إلى سمعه من العاملين.. قائلاً في جزع:

- ماذا حدث؟ وكيف حدث هذا؟ ولماذا لم تخبرني؟

أجبته وفي عينيّ مسحة حزن لا تخفى:

- حدث هذا منذ يومين. ولم أخبرك لأنني أجهل مكانك.. فأنت دائم التنقل بسبب خولة.

ثم استطردت وقد ترقرقت في عينيّ عبرة فحجزتها داخل أسوار أهدابي:

- أما عن كيفية حدوث هذا، فلا أعرف.

لقد حدث بالفعل.. وإلى الآن لا أدرك كيف!!!

بدا على وجهه حزن عميق وقال:

- كم أشعر بالأسى تجاهك يا مسكين.

مر صمت ثقيل فلم يجد الكثير مما يمكنه قوله.

وهنا فقط سمحت لعيني أن تعبر عما بداخلي من آلام؛ ففرت العبرات كسجناء لم يروا الضوء لعقود أنعم عليهم سجّانهم بالحرية.. فبكيت كما لم أبك من قبل.

نهض نعوم من مجلسه وأخذ رأسي في صدره محاولاً تهدئتي قائلاً:

- تماسك يا بنيامين تماسك، أنا لم أعهدك بهذا الضعف.

وأخذ يربت على كتفي حتى هدأت نوعًا.

جففت أدمعي مع احتفاظ جوارحي برجفة أصرت على الاستمرار.

فجلس أمامي قائلاً:

- إن كان حالك هكذا فما حال راشيل؟

أجبته بصوت مرتعش:

- كما لك أن تتوقع، في أسوأ حال.. لا تأكل تقريبًا ولا تنام إلا بمساعدة العقاقير، صامتة طوال الوقت.

- الرب معها، الحادث ليس بالهين، فقد فقدت طفليها في يوم واحد.

ثم أردف قائلاً:

- أرجوك حاول أن تحتضنها، وتتحمل انفعالاتها وتناسى الخلاف بينكما لبعض الوقت.

ثم تنهد وقال في أسى:

- اعمل على التآم الصدع الذي يفرقكما.. أرجوك.

- صدقني يا صديقي ما حدث جعل الصدع بيننا أخدودًا لا يمكن إصلاحه..

هزّ رأسه موافقًا.. ثم قال:

- هذا متوقع.. ولكن حاول ألا تتركها وحيدة، فقد تقدم على الانتحار في هذا الوقت.. لاحظ أن أهلها ليسوا بجانبها ليشدوا من أزرها، ولن تجد الآن من يحنو عليها سواك.. فحاول تعويضها غيابهم.

- كيف لي تعويضها أو حتى مواساتها، وهي تراني السبب في كل شيء.. فمن وجهة نظرها أنا من أبعدها عن أهلها، وأنا السبب في موت يوسف ودينا.

عقد حاجبيه في استنكار متسائلاً:

- السبب؟!! وكيف تكون سببًا؟!!

تنهدت في ألم قائلاً:

- نعم تراني السبب؛ لأني كنت مع الولدين في المياه عندما وقع الحادث.

نظر لي في عدم فهم حقيقي ثم قال:

- وكيف لم تستطع إنقاذهما؟!

- هذا ما حدث. فلقد تركتهما وابتعدت قليلاً عنهما للسباحة على عمق لا يناسبهما، وعندما عدت لم أجدهما. فبحثت عنهما في كل مكان، ولكن للأسف كأنا قد اختفيا، فأيقنت من غرقهما.

نظر لي مندهشًا للحظات ثم قال:

- عقلي لا يستوعب ما تقول، كيف غرقا بتلك السرعة، ولم يستغيثا أو يصرخا؟!!

- لعله حدث ولكنني لم أنتبه.

- يا إلهي.. عقلي لا يستوعب ما تقوله..

ثم استطرد في أسى:

- آسف بشدة لسماع ذلك.

ظللنا صامتين كالقبور لبعض الوقت، فلا يوجد الكثير مما يمكننا قوله.. ثم سألته عن حاله في محاولة لتغيير مجري الحديث..

فرد في وجل قائلاً:

- مازلنا نتنقل هنا وهناك حتى نبتعد عن الأنظار؛ فأنت تتذكر ما حدث مع أختها.

- نعم أتذكر... ولكن هل جد جديد في الأمر؟

- لا، ولكننا من باب الحيطة لا نستقر في مكان.

صمت قليلاً، ثم استطرد:

- لن أخفي عليك سرًا.. أريد الخلاص من تلك المعضلة اليوم قبل غد.. ولكنني أجهل السبيل.

- الوقت الآن لا يسمح بمثل هذا الحديث.. ما حدث قد حدث. ولكن نصيحتي لك أن تتخلص منها بمجرد أن تضع مولودها؛ فهذا الوضع لا يمكن أن يستمر.

- أعلم، وهذا ما أنوي فعله.

ظل نعوم معي حتى أنهيت عملي، ثم أوصلني إلى البيت. فدعوته للصعود ولكنه اعتذر.. فشكرته على اهتمامه بي، ووقفته بجانبي فودّعني وانصرف.

صعدت السلم بقدمين لا تكادان تحملانني حتى وصلت إلى الباب.. فسمعت وكأن أحدًا ما بالداخل يتحدث إلى راشيل.. استرقت السمع لأتبيّن من عساه يكون فتبيّنت صوت وسيم وزوجته سارة.

أولجت المفتاح في الباب ثم دلفت.

ألقيت عليهم السلام وقبّلت رأس راشيل ثم جلست مرحبًا بهما رغم ما يعتمل بداخلي نحو هذا الرجل، ولكن ما باليد حيلة.

وجهت كلامي له محييًا:

- أهلاً وسهلاً، كيف حالك؟

فرد بلهجة لم أميزها قائلاً:

- بخير، ولكن كيف حالك أنت بعد فقدك لطفليك؟

أجبته ساخرًا من سؤاله مشيرًا إلى نفسي:

- لست سعيدًا كما ترى..

- نعم نعم أرى ذلك، ولكن ألم تتخذ أي إجراء جديد؟

- ذهبت اليوم صباحًا إلى الشاطئ وسألت الأمن عليهما وأعلموني أن "لا جديد"، لم يعثروا على شيء، فتركت لهم رقم الهاتف لإبلاغي في حال عثروا عليهما.

- عظيم، عظيم. أنا اتصلت للاطمئنان على السيدة راشيل، وعندما علمت أنها وحيدة، وأنك ذهبت إلى العمل استأذنتها في الحضور أنا وسارة لمواساتها.

-لقد كان لدي أعمال مهمة يحتم علي إتمامها في المكتب.

فقال بلهجة استشعرت فيها التهكم والسخرية:

- الرب معك.

شعرت برغبة قوية في الهرب من أمامه، فاستأذنت منه وأنا متأهب للوقوف قائلاً:

- اسمح لي بالانصراف.. فقد كان يومًا صعبًا بحق، وأريد أن أستريح.

أشار في عدم اكتراث قائلاً:

- بالطبع، تفضل.

استدرت متوجهًا إلى غرفتي مع شعوري بنظراته تخترق ظهري.. فقد آثرت الهرب من الحديث معه تجنبًا للجدل، وبخاصة أن أعصابي بدأت تخونني فخفت أن أنفعل بلا سبب واضح من وجهة نظر راشيل. فهو في

نظرها رجل صالح يسعي للوقوف بجانبنا، فلا داعي أبدًا لأن أعامله معاملة فظة.

أغلقت الباب خلفي وشرعت في استبدال ثيابي أثناء تفكيري في فحوى تلك الزيارة.. ظللت بداخلها منتظرًا ذهابهما، فمضت لحظات ثقيلة حتى سمعت صوت الباب يغلق خلفهما.

وبعد أن انصرفا دلفت راشيل إلى غرفتي ورمقتني بنظرة نارية لم أتبين مغزاها ثم قالت:

- لقد رحلا.. يمكنك الخروج الآن.

شعرت بالتوتر، وقلت لها بصوت مرتجف:

- آسف لانسحابي من المجلس، ولكن أعصابي حقًا متوترة، ولا أستطيع التحدث مع أحد.

- ولكنك استطعت الذهاب إلى عملك، والتعامل مع موظفيك!

- هناك لا أحد يتدخل في شئون الآخر، فقد جاءوا لمواساتي ثم تركوني وشأني.

فقالت ساخرة:

- فقط هذا ما حدث؟!!!

- نعم هذا ما حدث، إلى أن أتى نعوم وسألني عما حدث، وقدم واجب العزاء، وبعد انتهاء العمل أوصلني إلى البيت ورحل دون أن يقحم أنفه في حياتي.

- وهل وجدت راحة البال لمزاولة عملك.

فأجبتها ونبرة التوتر لا تزال تسيطر على صوتي قائلاً:

- بالطبع لا، أنا فقط رغبت في تركك وحدك حتى لا يزيد كلٌ منا من أحزان الآخر.

هزت رأسها في استنكار ثم أتبعت:

- وهل تتوقع أن بعدك اليوم قلل من حزني؟!!

تنهدت في نفاد صبر قائلاً:

- مؤكد لا.. ولكنني اعتقدت أن تواجدي كان سيزيده.

صمتت لحظات، ثم قالت بلهجة آمرة جففت الدماء في عروقي:

- بنيامين، أريد جثماني يوسف ودينا.

- هذا حقك، وأنا أيضًا أسعى لذلك.

- أريد قبرهما بنفسي.

قالتها بصوت غذّاه حزن دفين بعد قوة، مما دفعني إلى تغيير لهجتي إلى عطف في محاولة لاحتوائها:

- سيحدث ما تريدين، أعدك.

- أنا أحملك مسئولية العثور عليهما.

- وهل قصّرت؟!!

في تلك اللحظة لم تستطع مقاومة عبراتها فانهمرت كشلال جارف:

- أنا لا أفتش في ضميرك، ولكنني أريد دفن طفليّ.. فعقلي لن يتقبل فكرة أن جثمانيهما أمسيا طعامًا للأسماك.

- أمرك يا راشيل. وأعدك لن أتوانى عن البحث عنهما مهما كلفني الأمر.

قلت جملتي وربت على كتفيها في حنان، ثم تركتها ودلفت إلى دورة المياه هربًا من عينيها.

فخرجت من الغرفة وجلست في الصالة، وعيناها تتعقبانني في كل خطوة وكأنها تراقبني.. لا أدري لمَ؟!!

خرجت من دورة المياه متجهًا إلى غرفة الأطفال مباشرة.

فبدأ الصراع يتأجج بداخلي من جديد.

أخذت أدعو الرب، وابتهل له كي يرشدني إلى صواب السبيل.. وأن يكشف لي عن وعده ويجنبني وعيده.

فهأنذا امتثلت لأمره وقدمت طفليّ قربانًا بكامل إرادتي الحرة، كما فعل إبراهيم مع إسحاق قبل أن يفتديه الرب بالكبش.

أريد ثمن التضحية، فما قدمته ليس بالقليل..

وأثناء غياب عقلي في متاهة أفكاره سمعت صوتًا، فتنبهت محاولاً الكشف عن مصدره، وهنا تردد ثانية فصارت في جسدي رجفة.. فلقد كان صوت يوسف وكأنه يأتي من عالم آخر..

التفت حولي في جزع، وانتابني الهلع، ولكني لم أجد أحدًا.

فتكرر الصوت مرة أخرى قائلاً:

- أبي أبي ي ي ي.

أخذت أبحث عن مصدر الصوت، متوهمًا للحظات أن يوسف مازال على قيد الحياة.. قائلاً في لهفة:

- أين أنت يا يوسف؟ أين أنت؟

فرد بصوت غير واضح:

- لا تبحث عني هنا يا أبي.. قدّم قربانًا لتجدني أنا ودينا..

قدم قربانًا يا أبي لتعثر علينا.

- أي قربان؟ لقد ضحيت بكما من أجل مجد إسرائيل، ونفذت ما أمر الرب به.

سمعت الصوت نفسه الذي كان يوجهني سابقًا يقول:

- دماء الشباب يا بنيامين مقابل الجثمانين.

- لقد نفذت ما أمرت به فأين الجزاء؟

- لكل شيء ثمن.. لكل شيء ثمن.

- أريد ما وعدت به.. وأيضًا الجثمانين.

- حياة طفليك كانت ثمنًا للمجد الذي ستناله.. ولكن جثماني يوسف ودينا لهما ثمن آخر.

- وكيف أدفع هذا الثمن؟

- ....

* * * * * * *

الفصل الخامس عشر

لقد مللت هذا اللغز، ولا أدري ما الذي أقحمت نفسي فيه.

يمكنني تجاهل هذا كله، وأن أعتبر ما حدث ليوسف ودينا مجرد حادث- مثلما يعلم الجميع - وأحاول تناسي أن غرقهما كان قراري.

وأتجاهل ذلك الصوت الذي يأمرني بأشياء يشيب لهولها الولدان، ما عدت قادرًا على تنفيذها. ولكن ظل بداخلي صوت تتردد أصداؤه ليذكرني بأن من غرست قدماه في الوحل لن يسعه إخراجهما بسهولة.

فحدثت نفسي بصوت مرتفع:

- ولكنني لن أسمح لقدمي بالانزلاق أكثر من ذلك.

سوف أترك الأمور تمضي إلى المصب المقدر لها دون تدخل من جانبي.. فإن أراد الرب أن يظهر جثمانيهما فسيظهران.

حقا أستطيع البدء من جديد.. ما حدث قد حدث.. ولا يمكنني تداركه.. ويوسف ودينا أمسيا ينعمان بنعيم الرب.

أنا أهديتهما له.. وقدمتهما قربانًا لجلاله، ومؤكد قد تقبلهما. فما لي الآن إلا أن أنتظر المجد الذي وعدت به.. ولن أعبأ بشيء سواه.

وهذا قراري الذي لا رجعة فيه.

وهكذا وجدت نفسي في صباح اليوم التالي أقوى، وأكثر حيوية من سابقه.. وكأنني خرجت لتوي من شرنقة الأحزان لأبعث خلقًا جديدًا. لن أسمح لراشيل أن تستشعر وهني، وهشاشة روحي مرة أخرى.

وعند خروجي من الغرفة فوجئت بها أمامي مرتدية ثيابها ومتأهبة للخروج.

نظرت إلى الساعة المعلقة خلفها، ثم رسمت على وجهي علامات الاستفهام قائلاً:

- إلى أين أنت ذاهبة في هذا التوقيت بمفردك؟

ردت باقتضاب متعمدة البحث في حقيبتها عن شيء ما، أظنها لا تدري كنهه كي لا تنظر في عيني قائلة:

- اتفقت مع وسيم أمس على مقابلته اليوم في الشاطئ.

- ولماذا وسيم؟ سأذهب أنا معك.

ردت باندفاع ملوحة بيديها في إشارة تحمل من الرفض الكثير قائلة:

- لا لا ليس هناك داعٍ.. اذهب أنت إلى عملك.

- بالطبع لا.. سآتي معكِ.

انفعلت بشدة، وارتفعت نبرة صوتها قائلة في ثقة:

- أخبرتك بأني سأذهب برفقة وسيم، ولا أريدك معي، أظن أن كلامي واضح.

فاجأني أسلوبها معي، فنظرت إليها مشدوها، شاعرًا أن هناك خطبًا ما تسعى لإخفائه.

أيكون وسيم لمّح لها عما بداخله من شك وريبة فيّ؟!

لا أعتقد.. فوسيم أذكى من ذلك.. أعتقد أنه سينتظر ليتأكد من شكوكه أولاً.

ولكن التحول في أسلوبها معي، ورفضها ذهابي معها يشعرانني بأن الأمر لن يمر بالسهولة التي كنت أنتظرها.

فهذا الوسيم مصر على إقحام أنفه في حياتي، وأعتقد أنه لن ينسحب منها إلا بعد أن يفضح أمري كضوء الشمس.

تنهدت في استسلام، وبالفعل تنحيت جانبًا مفسحًا لها الطريق لتمضي في هدوء..

فاعتلت وجهها ابتسامة تحمل في طياتها شعورًا بالانتصار.. تاركةً إياي لتلهو بي حيرتي.. وانصرفت.

فقد رأيت أن من الحكمة السماح لها بفعل ما تبتغيه.. فأنا لا أسعى لمضاعفة شكوكها- إن وجدت- ويجب أن أكون حذرًا معها قدر المستطاع.. فلن يفضح أمري سوى توتري.. فأنا وحدي الشاهد على الحادث، وإن لم أضعف، أو تخُني أعصابي فلن يكون هناك أحد قادرًا على إثبات إدانتي. فليس ثمة دليل ضدي سواي.

إن تمالكت أعصابي سيمضي الأمر بسلام، وكأنه سحابة صيف.. وإلا فلا يحق لي لوم أحد سوى نفسي.

أخذت حمامًا دافئا في محاولة لتهدئة أعصابي الثائرة، ثم ارتديت ثيابي، وتوجهت إلى المكتب، وفي عينيّ نظرة تحدٍ لا تخفى على أحد.

يجب أن أتماسك.. يجب.

لاحظ العاملون صلابة مظهري، ونظراتي الثاقبة فأثار هذا ريبهم.. فأخذ كل منهم يفتش في نفسه تأهبًا لتدارك أي خطأ أو تقصير إن وجد.

أمضيت يوم عملي في هدوء، ثم عدت إلى البيت، وكانت الساعة قد تعدت الخامسة، فوجدت راشيل قد عادت هي الأخرى.

بحثت عنها في البيت فوجدتها في غرفتنا تبعثر شيئًا ما في خزانة الثياب.. حييتها فردت التحية بإيماءة.

تساءلت محاولاً استنباط أية معلومة عن يومها برفقة وسيم:

- هل هناك أخبار جديدة؟

فردت باقتضاب:

- لا.

- الأمر عادة يأخذ وقتًا.

قلتها في محاولة لجذب أطراف الحديث ولكنها لم ترد. وهنا أدركت أنها تعد ثيابها استعدادًا لنقلها إلى غرفة يوسف ودينا.

فأصابتني صدمة عظيمة، وكأن صاعقة هوت فوق رأسي لتفتت آمالي.. ظللت أرمق المشهد، وكأنه مشهد النهاية لتسدل الستار على حياتي الهادئة.. شاعرًا أن غدي يهدم أمام عيني، ولا أستطيع فعل شيء حيال ذلك.

خرجتْ من الغرفة بلا كلمة واحدة، آخذة معها أغلب متعلقاتها. وبالطبع أمسى الحديث غير مجد، فلم أسع لمعرفة السبب وراء تركها لغرفتنا.

استبدلت ثيابي وأغلقت باب غرفتنا التي أمست غرفتي وحدي، وشرعت في قراءة التوراة.

فالرب وحده القادر على مواساتي فيما فقدته.

أخذت أقرأ حتى تملكني الحزن والأسى.. فانفجرت في بكاء مكتوم أنعي به حالي.

******

الفصل السادس عشر

مرت الأيام ونحن نسير على الوتيرة ذاتها، كلٌ منا يسبح في عالمه الخاص.. لنعيش كغريبين لا يجمعهما سوى سقف بيت واحد.

لا يعلم كل منا شيئًا عن الآخر.. نتعمد ألا نتقابل، ولو على سبيل المصادفة.. فلا أخرج من غرفتي إلا حين أسمع صوت مزلاج غرفتها.. وأظنها تتعمد ذلك هي الأخرى.

حتى الطعام لا يعلم أيٌ منا ماذا يأكل الآخر أو متى.

فكلٌ منا غدا مسئولاً عن نفسه مسئولية كاملة.

وذات يوم كنت عائدًا من عملي فوجدتها في انتظاري في الصالة ألقيت عليها السلام فلم ترده.

ولكنها قالت بصوت حاد في لهجة آمرة:

- بنيامين، أريد جثماني يوسف ودينا.

أجبتها في هدوء متعمد كي أمتص أي انفعال من جانبها قائلاً:

- سنعثر عليهما يا راشيل.. لا تقلقي.
- بدأت أشك في هذا.. الأيام تمضي ولم تفعل شيئًا.
- لن أيأس حتى أجدهما.

ظلت ترمقني بنظرة تحمل معاني كثيرة، ثم تنهدت في ألم وقالت:

- بنيامين لن أكذب عليك.. قلبي غير مستريح لغرق الأولاد بتلك الطريقة

قالتها وأرسلت عينيها إلى السقف متحاشية نظراتي.

شعرت وكأنها ألقت حجرًا في بركة ماء آثن لتخرج تماسيح اعتادت الثبات.. وحينها أيقنت من رغبتها في تغيير مسار استراتيجيتها معي من الضغط على أعصابي إلى الهجوم المباشر، ولذلك حاولت السيطرة على ملامحي ثم قلت:

- ماذا تقصدين؟!

تلجلجت قائلة:

- لا أعرف.. كل ما أعرفه أنني أريد دفن ولديّ، وأنت وعدتني بهذا.
- وأنا أسعى للوفاء بوعدي، فماذا عساي أن أفعل لاستعجال الأمر؟! ولماذا تحملينني الذنب؟!
- وهل حقًا ترى نفسك لا تتحمل أي ذنب؟!

ثم استطردت قائلة في تحدٍ:

- من أتى بنا إلى هذا البلد المشؤوم؟ أليس أنت؟!
من الذي ابتعد بالولدين عن الباقين في المياه أليس أنت؟!
لا.. والأهم أنك تركتهما وحدهما وابتعدت أنت الآخر.
أفبعد كل هذا تقول لي لماذا تحملينني الذنب؟!!!!!

قالت آخر كلماتها وانفجرت في بكاء، ونحيب يمزق نياط القلوب.. وأردفت:

- لا يا أستاذ الذنب كل الذنب يقع على عاتقك.. فأنت المسئول الأول أمامي الآن.. أريد أن التأكد من موت طفليّ.. وتجاهلك للحادث يثير في نفسي الريبة.. فمن يغرق ولداه الوحيدان، ويذهب إلى عمله كأن شيئًا لم يكن؟!!!!!.

هناك شيء ما خطأ لا يستوعبه عقلي، ولا يستسيغه قلبي.
هناك شيء ما تخفيه في جنبات عقلك.. أراه في عينيك، أسمعه في دقات قلبك، ألمسه في راحتيك مهما حاولت إخفاءه.
فلنا مع بعضنا عمرٌ.. لن تخدعني مهما حاولت.. وصمتي لن يطول كثيرًا يا بنيامين لن يطول.

عند تلك اللحظة لم أتمالك أعصابي فثرت قائلاً:

- لقد جننت تمامًا.. والحياة معك أصبحت مستحيلة.
- أعلم.. ولكنها ستصبح أكثر استحالة إن لم أر يوسف ودينا.

اندفعت بالتساؤل على غير إرادة مني:

- ماذا قال لك وسيم؟!!

فأجابتني بالتساؤل هي الأخرى لتقتحم حاجزي الأمني قائلة:

- ولماذا تسأل عن وسيم؟ أيعلم شيئًا تريد إخفاءه؟!

رددت مسرعًا، ولكن بصوت مرتعش:

- بالطبع لا.. ليس هناك شيء أسعى لإخفائه.. ولكن نظراته لي لا تريحني.
- وأعتقد أنك كذلك لا تستريح له، ولذلك فهناك شعور متبادل لا يمكنك لومه عليه.. ولن أسمح لك بالحديث عن الرجل بسوء.. فهو من أنبل الرجال الذين صادفتهم طوال عمري.

اعتلت وجهي ابتسامة ساخرة وقلت بتهكم:

- أفضل الرجال!! هناك إعجاب إذن.

- أرجوك لا تحاول الهرب من الموضوع.

-أنا لا أتهرب من شيء.. وليس هناك شيء لأخشى منه. ولكنني أستشعر نبرات الإعجاب في صوتك.. فقولي لي إن هذا صحيح، وسوف أرحب وأتركك له بدون عناء عوضًا عن العذاب الذي أكابده منذ تقابلتما.. اعترفي وأعدك بانسحابي، بل وبتقديمك له هبة في عيد مولده.

تملكها غضب شديد، وعلا صوتها قائلة:

- كيف تسمح لنفسك بقذفي باتهام بشع كهذا؟! حقًا أنت بارع في قلب الحقائق.. أحسدك على مهاراتك.

- بالطبع.. فمن تسمح لنفسها بالإعجاب برجل غير زوجها فلن ترى زوجها سوى في صورة شيطان.

لوحت بيدها في وجهي محذرة ثم قالت:

- أفهمك جيدًا.. وأفهم ما ترمي إليه.. ولن أسمح لك بأن تتهمني بشيء بشع كهذا.

ثم نظرت إليّ نظرة أقرب إلى السبة وقالت:

- أنت حقًا حقير.

رفعت يدي لألطم وجهها، ولكنني تذكرت أن الحق لم يجانب حديثها فهي على حق فيما قالته.

أنا أختلق هذا الكلام الفارغ كي أجعلها مذنبة أمامي وأمام نفسها، محاولاً العبث في أفكارها لتشتيتها عن قضية موت الطفلين.

ولكنها حقًا تقرأ عينّي ككتاب مفتوح.. ولذلك لن أبالغ بلطمها وهي على حق.

تراجعت وخفضت يدي، تاركًا إياها تنظر لي في تحدٍ.. ولسان حالها يقول: "آت بها عندك.. ما عدت أهابك"..

خرجت من البيت مسرعًا، وما إن لامست قدماي الطرقات تنفست الصعداء.. أخذت أتجول في الطرقات لا أعرف لي واجهة. ضميري يؤلمني، وقلبي ينفطر على ولديّ اللذين أغرقتهما بيديّ.

نظرة عين دينا وربتها على يدي، وأخر جملة نبتت من شفاه يوسف "أنت لست إبراهيم يا أبي"، يمزقونني ويشعلون جوارحي بلهيب الندم.

هذا إلى جانب تطاول راشيل على شخصي، والذي لم أستطع ردعه.

فمنذ تلاقينا والاحترام ثالثنا.. ولم تشهد علاقتنا على مر السنين أن وقفت في وجهي تتحداني مثلما حدث اليوم.

اليوم أرى هذا الصرح من الاحترام الذي حرصنا على تشييده، والذي أسهم في الحفاظ على كيان الأسرة، بعد أن خفتت جذوة العشق- يتهدّم فوق رأسي.

لقد صارت قوية حد إضعافي.. شرسة حد الافتراس كهرة سُلب منها أبناؤها.

هناك شيء يقف خلف تلك القوة.. إما دعم وسيم وإما أن هذه قوة امرأة فقدت أعز ما لديها، فما عادت تخشى شيئًا.. ولا تبقي على شيء.. وأنا السبب في هذا، ولا يحق لي إلقاء اللوم على أحد سواي.. فلقد

استنفدت رصيد حبها قطرة قطرة، حتى جفت منابعه فعانت معي القهر والإجبار عندما أجبرتها على الابتعاد عن عائلتها ومجيئها إلى إسرائيل على الرغم من رفضها.

الآن فقط أشعر كم أضناها قهري.. وكم آلمها إهمالي لعواطفها.

يا ليت أيام الإسكندرية تعود.. ولكن الزمان لا يقبل اعتذاراتنا مهما تضرعنا.. فهو قطار ماضٍ في سبيله، لا يكترث لأحد، ومن لا يسعه حظه ويسقط أسفل عجلاته يدهسه دون أن يجفل.

لقد أصبحت راشيل بالنسبة لي طلسمًا، لا أعلم ما يدور بخلدها، فضلاً عن التنبؤ بتصرفاتها.

نظرات الشك التي ترميني بها تنفذ إلى قلبي لتتركني صريعها..

أمضيت الليل أتنقل من هذا المقهى إلى ذاك، حتى مللت واقترب الفجر من البزوغ.. فقررت العودة إلى البيت.

أولجت المفتاح في الباب ودلفت، متوقعًا أن تكون قد غفت، ولكنها للأسف كانت مازالت مستيقظة.. خرجت من غرفة الطفلين- والتي باتت غرفتها- عقب سماعها صوت مزلاج الباب، فوقفت ترمقني بكراهية عاقدة يديها على صدرها في تحدٍ سافر، ولكنها لحسن الحظ آثرت الصمت.

دلفت إلى غرفتي غير مبالٍ بها، وأغلقت الباب خلفي.. استبدلت ثيابي وجرعت جرعة ماء، ثم تناولت التوراة وأخذت أقرأ حتى سطعت الشمس في الأفق لتبدد ظلمات الآلام، وتنشر ضياء الآمال.

فشعرت أن عينيّ لم تعد تحتمل كل هذا الإرهاق من قصر وقت النوم والقراءة المستمرة إضافة إلى البكاء.. وإن رحمتهما وحاولت النعاس تطاردني رؤى تستنفد طاقتي.

نعم فعندما أستيقظ أشعر وكأنني كنت في سباق عدو غير متكافئ الفرص.. أنفاسي تتسارع.. دقات قلبي تزداد.. وأتصبب عرقًا.

ولقد قرأت ذات مرة أن بعض الأحلام تستهلك طاقة الجسد، وتلك الرؤى تثبت لي صحة ما قرأته.

لم تعد هناك راحة.. العالم ضاق بي على قدر رحابته.

وبركة المياه الراكدة التي كنت أحيا بها في سلام، أُلقي بها حجر عظيم، ولن تعود مطلقًا لسابق عهدها، وليس من حقي لوم أحد.. فأنا من تطوع بإلقاء ذلك الحجر.

أغلقت عينيّ، ودعوت الرب ألا أفتحهما مرة أخرى كي أستريح من عذابي.

فغبت عن الوعي إرهاقًا وحزنًا وخوفًا من الغد الذي أعلن رفضه لحاضري المظلم.

****

الفصل السابع عشر

ولكنني صحوت..

صحوت لأتعذب من جديد..

ارتديت ثيابي واستقليت سيارتي متوجهًا إلى عملي، وعندما وصلت ودلفت إلى مكتبي لحقني عيزرا مسرعًا حاملاً على وجهه ابتسامته كعادته وفي يده مظروف.. نظرت إلى المظروف وتساءلت:

- ما هذا؟

- لقد وصل قبل حضورك بدقائق، وهو من جهة سيادية في الدولة.

أخذته من يده، وأشرت له بالانصراف.

جلست إلى مكتبي وفتحته في نفاد صبر فطالعني به أمر بدد- ولو بدرجة ضئيلة- اليأس الذي أكابده.

فكان يحوي تكليفًا لشغل منصب مدير بنك من أقوى البنوك في إسرائيل، وذلك لما عُرف عني من نزاهة وكفاءة في العمل المحاسبي، إلى جانب تفانيّ في خدمة إسرائيل.

أشرق وجهي قليلاً، ودخل على قلبي سرور ما كنت أظنه قد يتخلل ظلام روحي مرة أخرى.

واضح أن دوري في الصفقة قد حان.. أخيرًا سأنال ما ضحيت من أجله.

نعم فالأمور لا تأتي إلا بصورة تدريجية.. أتولى اليوم منصبًا عظيمًا كهذا، والذي في طياته اعتراف من الدولة بقدري ومكانتي، وغدًا أتنقل

لشغل منصب أرفع، حتى أحقق الخير الوفير لي ولبلدي الحبيب الذي ضحيت من أجله بأحبائي.

شعرت أن الغد بدأ يشملني بنظرة عطف ليبتسم لي من جديد.. وأن الأيام العصيبة قد ولّت.. بعد أن مثلت آخر اختبار وضعني فيه الرب.

نظرت إلى السماء شاكرًا الرب على إنقاذي من هاوية الشك التي كادت أن تبتلعني في باطنها لتحيل حياتي جحيمًا.

- لك جزيل الشكر يا رب على دعمي، وسأظل مخلصًا لك ولإسرائيل أبد الدهر.

أكملت يومي، وعلى وجهي ابتسامة لا تُخفى.. وعندما عدت إلى البيت وجدت راشيل كما تركتها.. الشك والحزن يتسليان بتقاذفها بينهما.. حاولت أن أبدد الخلاف الذي جمعنا أمس، فأخبرتها بما كلّفت به من جانب الدولة، ولكن وجهها لم يعطني أي تعبير.

فالحياة بكل ما عليها ما عادت تعني لها شيئًا.. فقد تركزت أهدافها في الحياة على شيء أوحد، وهو إيجاد يوسف ودينا.

*****

الفصل الثامن عشر

توالت الأيام في تباطؤ، فلا يميزها شيء سوى تسلمي الوظيفة التي كُلّفت بها بعد أن سلمت نعوم إدارة مكتب الصرافة على الرغم من محاولاته المستميتة للتهرب من المسئولية، ولكنه في النهاية وافق على مضض.

رأيت كل سبل النجاح متاحة أمامي، بل ومدعمة من الرب.. ولكن وسط كل هذا ظلت في حلقي غصة.

فأي نجاح يمكن أن أستسيغ عذوبته وأنا أحيا في الجحيم برفقة راشيل؟!!

فكل يوم تسوء حالتها عن سابقه.. وقد سعيت لاستعادتها بشتى الطرق ولكن هيهات..

لقد استقبلت قِبلة الأحزان ولن يعيدها شيء.. فصارت كزهرة تتساقط أوراقها أمامي رويدًا رويدًا لتعلن اقتراب النهاية.

الفصل التاسع عشر

وذات ليلة من ليالي الصيف القائظ رأيت يوسف ودينا في أعماق البحر، يحاولان الهرب من الأسماك المفترسة، ورأيت يوسف يسعى لحماية دينا بشتى السبل.. وفي تلك اللحظة انتبه لوجودي على الشاطئ فنظر لي مستغيثًا.. ولكنني وجدت نفسي غير قادر على التحرك، وكأن قدميّ مسلسلتان بأثقال تزن أطنانًا تمنعني من التحرك فقلت له دامع العينين:

- تماسك يا يوسف.. تماسك..

- لن أصمد يا أبي لن أصمد..

- أترى ما نحن فيه.. أنقذنا يا أبي أنقذنا..

لم يعد لي أمل في سواك.

صحوت من نومي دامع العينين، تسري في جسدي رجفة، جفاف الحلق.. تجرعت شربة ماء، ثم حاولت تمالك أعصابي، فتوجهت إلى الشرفة لاستنشق نسائم الفجر النقية.. أخذت شهيقًا طويلاً محاولاً إنعاش روحي، ولكن عبراتي استبقتني لتنهمر على غير إرادة مني، وكأن لها إرادتها الخاصة.

فعادني لوم نفسي بعد أن تواري قليلاً منذ تسلمت عملي في البنك.

ولكن ها هو يوسف أتي ليذكرني بعهدي له.. فأعدت التفكير في قراري السابق الذي عمدت عقبه على تجاهل أمر بحثي عنهما، بعد أن تراءى لي كون إيجادهما قد يسهم في إراحة ضميري بعض الشيء ويرثي راشيل.. معطيًا إياي فرصة لفتح صفحة جديدة معها.

ولكن كيف لي فعل هذا؟! كيف؟!!

بالطبع أنا أتذكر التوجيه الذي أنار لي طريقي ليرشدني إلى سبيل إيجادهما، والذي ألزمني بتقديم دماء الشباب قربانًا..

ولكن كيف لي ذلك؟! وأين؟!

تنهدت في نفاد صبر.. فكم أتمنى أن أضع نقطة فاصلة لهذه المرحلة لاستقبل حياة جديدة بآمال عريضة برفقة راشيل. وهذا لن يتم إلا إذا عثرت على جثماني يوسف ودينا.

ولذلك يجب أن أجد السبيل لاستعادتهما مهما كلفني الأمر.. فالثمن لن يكون أغلى منهما بالتأكيد.. ولا من حياتي التي فقدت عذوبتها متى فقدتهما.

وتلك المسكينة راشيل.. شعوري بالذنب تجاهها يُدمي قلبي كلما رأيتها تذبل في كل يوم عن سابقه.

وقد تكرر ذلك الحلم عدة مرات بصور مختلفة على فترات متفاوتة، ولكنه يجري ليصب في المصب ذاته، مؤكدًا على فكرة استعادتهما بقوة.. وقد نجح بتفوق في تدمير ما تبقي لي من أعصاب.

فكلما تكرر صحوت من نومي أبكي فراقهما، راثيًا حالي، وبالطبع هذا خلف أثرًا كبيرًا على عملي بوصفي مديرًا لمؤسسة عظيمة كالتي أديرها.

فبدأت استشعر خيبة الأمل من جانب مجلس الإدارة، ولهم عذرهم فهم لم يجدوا ما كانوا ينتظرونه من جانبي.. وهذا زادني حملاً، فغدوت أدور في حلقة مفرغة لا أستطيع الفكاك منها.

سوف أفشل ويضيع جهدي وتضحياتي هباءً منثورًا إن لم أتخذ قرارًا حاسمًا.. ما عاد أمامي وقت لأضيّعه.

بدأت أرتب أفكاري، وقررت التقدم بطلب يوم عطلة لمقابلة نعوم.. فمنذ تولى إدارة المكتب تيسر لي العثور عليه كثيرًا على عكس ما كان.

وبالفعل نفذت ما عزمت عليه، وتوجهت إلى المكتب صباحًا فوجدت نعوم جالسًا إلى مكتب الإدارة الذي كان مكتبي، وآل إليه الآن..

هلل فرحًا عندما رآني، فمنذ تسلمت عملي في البنك لم نعد نلتقي إلا قليلاً، وقال مبتسمًا:

- أهلاً أهلاً.. أين أنت يا رجل؟ أصرت رجلاً من كبار الدولة يجب أن نأخذ موعدًا مسبقًا لمقابلتك.

ابتسمت لدعابته ثم قلت:

- أنت تعرف كيف تعثر عليّ، فمنزلي معروف، وتستطيع أن تحضر إليه وقتما تشاء.. ولكنني لا أستطيع العثور عليك إلا إذا أخذت إجازة من عملي لمقابلتك في المكتب.

ابتسم مغيرًا مجرى الحديث قائلاً:

- قل لي.. كيف حالك وحال راشيل؟

تنهدت في حسرة قائلاً:

- راشيل حالتها تزداد سوءًا في كل يوم عما يسبقه.. وهذا بالطبع يضعني تحت ضغط مضاعف.. مما انعكس على أدائي في العمل.. وأعتقد أن مجلس الإدارة غير راضٍ عن أدائي.

فرد متسائلاً بحسرة:

- لم تستطع تجاوز ما حدث.. أليس كذلك؟

- لم تتجاوزه البتة.. وكأنه حدث أمس.. ولن أخفي عليك سرًا أنا أيضًا مازلت أعاني من تبعات الحادث.

قلتها وترقرقت عبرة في مقلتيّ سعيت لإخفائها.

مرت دقائق في صمت، ثم حاولت أن أغيّر مجري الحديث، فسألته عن أحوال خولة، وكم بقي لها لتضع مولودها..

فأجاب بصوت يغلفه الحزن:

-تبقى لها ما يقرب من الشهرين.. وبالطبع حالها لا يختلف كثيرًا عن حال راشيل.. وعلاقتنا أصابها حالة من الجمود والتحجر، فأمسى الصمت حليفنا الذي يأبي التخلي عنا ولو للحظات.

- أتعلم أنك تنتوي أخذ الطفل منها عقب الوضع؟

فرد باندفاع ملوحًا أن لا:

- بالطبع لا.. فقد وعدتها بأن نسافر ثلاثتنا إلى أوربا عقب استردادها عافيتها.

نظرت له مستفهمًا:

- وهل حقًا هذا ما سيحدث؟

طرق الأرض بقدمه في قوة، ورد مندفعًا وكأنني أهنته:

- بالطبع لا.. مكاني هنا.. في إسرائيل.. فنحن من علينا بناؤها.. أنسيت؟!

- لا لم أنس.. ولكنني خشيت أن تكون أنت من نسى، فأردت فقط تذكيرك.

اعتدل في جلسته وزفر بقوة ثم قال:

- أنا لم أنس.. لا تقلق.

صمتنا فترة وجيزة حتى نهدأ.. فكلانا أعصابه ثائرة.

وبعد دقائق فاتحته في الأمر الذي أتيت من أجله قائلاً:

-أريد أن أعرض عليك أمرًا.

عقد حاجبيه في تساؤل:

- تفضل.

- أريد إنشاء شركة سياحة هنا.. في تل أبيب.

- رائع.. وما الذي تنتظره؟!

- ليس في وسعي تشتيت نفسي ما بين عدة أعمال، وقد أسلفت بأن مجلس إدارة البنك غير راضٍ عن أدائي.. فما بالك لو علموا بأمر كهذا.. إلى جانب راشيل، كيف لي أخبارها وهي مازالت متوقفة بكامل جوارحها عند ذلك يوم.

ولذلك رأيت أن من الأفضل ألا تحمل الشركة اسمي في الوقت الراهن، وحتى تتحسن الأمور.

ثم أردفت بجدية:

- ولذلك قررت عرض الأمر عليك..

رد متحيرًا:

- ماذا تقصد؟ أنا لا أفهم.

- أقصد أن نكون شريكين في الخفاء.. على أن تحمل تلك الشركة اسمك وحدك رسميًّا في الوقت الحالي، وتكون تحت إدارتك.. ولا تقلق سأساندك، وأدعمك من الخلف دون إثارة الأقاويل حولي.

أشعل نعوم لفافة تبغ، وأخذ نفسًا عميقًا، مفكرًا ثم تساءل:

- ومكتب الصرافة.. من سيديره؟

- أنت أيضًا.

- يا رجل.. أتريد من نعوم الذي كان لا يعمل تقريبًا قبل أن يأتي إلى إسرائيل أن يتولى إدارة شركتين بهذا الحجم؟!!

قالها ضاحكًا حتى أدمعت عيناه، فرددت بهدوء وثبات:

- نعم.. أريد من نعوم إدارة شركتين بهذا الحجم!!

أين حديثك عن بناء إسرائيل على أكتافنا؟! أيكون هذا دون عمل؟!

أدار وجهه هربًا من مواجهتي فأكملت:

ولا تقلق لن تذهب إليها كل يوم.. فسوف نأتي برجل يفهم في أمور السياحة، ويعلم من أين تؤكل الكتف، ليتولى أمر إدارتها تحت أنظارنا.

- هذا الأمر يحتاج إلى الكثير من التروّي في التفكير، لا يمكنني إعطاءك ردًا الآن.

قالها بشرود ينم على أن حديثي لاقى صدى في نفسه.

ولذلك لاحقته قائلاً:

- وأنا لا أنتظر منك ردًا الآن.. خذ وقتك كاملاً في التفكير وعندما تقرر أعلمني..

قلتها وهممت بالوقوف استعدادًا للانصراف، فأمسك يدي يستمهلني قائلاً:

- إلى أين؟!! لن أدعك تذهب.. ستظل معي حتى أنهي عملي ثم ننطلق.. فلي زمن لم أتسكع معك.

ثم أردف في أسى طارقًا بعينيه أرضًا:

- لا أعرف يا صديقي ما الذي اقترفناه لنعاني ما نعانيه..
فالحياة أخذت منّا الكثير.. حتى إنني أكاد أرى شبابنا يمضي أمام أعيننا ونحن ننظر مكتوفي الأيدي..
- كل شيء سيمضي بسلام.. أؤكد لك.. لقد شارفت على رؤية الضوء في نهاية النفق، فنحن على الطريق القويم.. ما هي إلا مسألة وقت لا أكثر، وستنقشع الغمامة.

قلتها وعلى وجهي ابتسامة تحمل الكثير من الآمال..

فابتسم بدوره قائلاً:

- أتمنى.

قضينا يومنا سويًا، فبعد انتهاء العمل خرجنا لتناول الغداء، والذي قد تحمّل نعوم نفقاته كاملة في مطعم فاخر.. ثم توجهنا إلى مقهى يتسم بالرقي والهدوء، وجلسنا سويًا نستعيد زكريات الأيام الخوالي..

ولا أنكر أن وجود نعوم معي في ذلك اليوم أدخل السرور على قلبي الذي ذبل من كثرة الهموم، فكان كقُبلة الحياة التي مُنحت لغارق قبل استسلام رئتيه لقبضة الموت.. فأنعش روحي، ومنحني أملاً حقيقيًّا في الغد.. ووجدت نفسي مازلت قادرًا على الضحك من القلب.

لا عرف كيف لتكون الحياة بدون نعوم.. فهو من تبقي لي.

* * *

الفصل العشرون

أدركت أن بداية النهاية قد اقتربت عندما هاتفني نعوم ليبلغني بموافقته على عرضي. فلم تسعني الفرحة آنذاك، مما انعكس على نبرات صوتي:

- جيد جدًا.. أنا سعيد بموافقتك.. ولكن يجب أن نبدأ في أسرع وقت.

فرد مندهشًا:

- ولكننا لم نجد المكان المناسب ليكون محلاً للشركة بعد.

- إذن حاول أن تجد المكان المناسب في أسرع وقت.. ولكن أنتظر.. سأجده أنا وأبلغك.

فتساءل متحيرًا:

- ولكن لمَ العَجَلة؟!!

ارتعش صوتي وأجبت مسرعًا في محاولة لتشويشه:

- لأنني في حاجة إلى المال.

- ولمَ لم تقول هذا؟! خذ ما يكفيك إلى أن نبدأ العمل.

- لا.. لا أريد الاستدانة.. أريد الشروع في العمل فورًا.

فقال مستسلمًا:

- كما تشاء.

قالها وهو يحاول مضغ حديثي ليتمكن من ازدراده.. ولكن ليس أمامه سوى أن يصدقني.

وبالفعل تقابلنا للاتفاق على التفاصيل.. وتولي هو الإجراءات اللازمة لاستخراج التصاريح، وبالطبع كانت الشركة تحمل اسمه وحده كما

اتفقنا سابقًا.. أنا حقًا لا أنتوي توريط نعوم في شيء، ولكنني أيضًا لا أريد الظهور في الصورة.. وخاصة بعد حادثة غرق يوسف ودينا. وقد توليت أنا أمر البحث عن المكان المناسب للشركة.. وبالفعل عثرت عليه.. فاتصلت بنعوم وأعطيته العنوان ليذهب لرؤيته وإعطائي رأيه.. وبالفعل ذهب، وأعجب به كثيرًا.

شرعنا في تجهيزه على الفور.. ورأيت وجوب تأسيسه بأثاث وثير على درجة عالية من الفخامة والرقي ليعطي انطباعًا جيدًا عن الخدمة المقدمة للعملاء.

ونشر نعوم إعلانًا في الجريدة يطلب فيه عاملين ذوي كفاءة عالية في المجال السياحي، وبالفعل تقدم الكثيرون.. انتقى هو أفضلهم، ثم عرضهم عليّ كي نقرر سويًّا أيهم أنسب لشغل منصب المدير.

وقد تم أمر استخراج التصاريح بسهولة ويسر.. فقد أجريت اتصالاً هاتفيًّا مع المسئول الأول لاستخراج التصاريح بصفتي صديقًا لنعوم لتيسير الإجراءات.

وقد رحب كثيرًا بالفكرة، وحثني على تشجيع نعوم لإتمامها قائلاً:

- هذا أمر عظيم.. أرجو منك طمأنته، وأعلمه ألا يشغل باله كثيرًا بالإجراءات.. فأنا سأعمل على تيسر الأمور متى جاءني.

فرددت ممتنًا:

- أشكرك يا سيدي.

- لا تشكرني فهذا عملي.. وأنت تعلم أن رغبة النظام الآن تهدف إلى استقطاب أكبر عدد ممكن من اليهود الذين آثروا البقاء في البلاد التي

نشأوا فيها.. وأيضًا كسب المزيد من التعاطف من غير اليهود، لإرسال المزيد من الدعم اللازم لإقامة المستعمرات.

ولن يتأتى ذلك إلا بحسن المعاملة مع الجنسيات الأخرى وخاصة الأوربيين والأمريكان.

ثم استطرد قائلاً:

- فإسرائيل مازالت في حاجة إلى الدعم السياسي والاستراتيجي العالمي لتقف في وجه العرب.. وحتى تستطيع تحدي من تسول له نفسه الوقوف في وجهها.. هذا إن أمسى هناك من يستطيع.

فقلت ساخرًا:

-أنا لا أظن أن تلك الفكرة مازالت مطروحة، وإلا فلماذا انتظروا حتى الآن؟! وحتى بعد اقتحام مسجدهم المدعو الأقصى، عقب انتصار ٦٧ العظيم بثلاثة أيام فقط، ورفع العلم الإسرائيلي، مانعين إياهم من الولوج والصلاة فيه أسبوعًا كاملاً.. ومنذ ما يقرب من العام أحرق الجناح الشرقي فيه.. وعلى الرغم من علم العرب بكل هذا لم يحركوا ساكنًا، ولم نسمع لهم صوتًا.. فهم إلى الآن غارقون في هزيمتهم ومرارتها، التي لن تترك حلوقهم على مر الزمان..

فأمّن على حديثي قائلاً:

- الحق معك.. الأرض الآن لنا.. ويجب ترسيخ هذه العقيدة في أذهان العالم أجمع، ولن يتأتى ذلك إلا بعد أن تأتي الوفود السياحية لترى ما آل إليه الحال هنا من قوة وسطوة لإسرائيل على الأرض.

فتنشأ الأجيال القادمة لا تعلم سوى أن هذه الأرض أرض دولة إسرائيل.. أليس كذلك؟!!

- بالطبع سيدي.. لك جزيل الشكر.. وسأبلغ نعوم بترحابك به.

فقال بصوت ضاحك:

- وأنا في انتظاره.

وهكذا تم الأمر بسهولة لم أتوقعها.. وفي وقت قياسي كانت أوراق الشركة جاهزة. واتفقنا أنا ونعوم على أن يكون حفل الافتتاح حفلاً مهيبًا يليق بجلال شركة تحمل اسم نعوم.. فدعونا أغلب قيادات الدولة، وصحفيين عظام ورجال أعمال ذوي مكانة اجتماعية راقية.

وجاء موعد حفل الافتتاح.. انتقيت أبهى بزة اقتنيها في خزانتي وتعطرت بأنفس العطور.. ثم طالعت انعكاس صورتي في المرآة فرأيت رجلاً واثقًا من نفسه.. يبث الهيبة والاحترام في نفوس من يرونه من الوهلة الأولى.. ولكن لو فتش أحدهم بداخله فسيجد أن تلك الصورة ما هي إلا قشرة خارجية، أغلّف بها ما بنفسي من ضعف ووهن.. أنتظر غدًا أفضل بأمل واهٍ.

شكرت الرب على ظاهري الذي أحتفظ بتماسكه، على عكس ما يعتمل في نفسي.

فالناس لا تحترم سوى القوي ذي النفوذ.. وأنا مازلت كذلك لمن لا يسعه اختراق دهاليز عقلي ليقرأ خفايا نفسي.

وعندما خرجت من غرفتي رأتني راشيل.. استفزها مظهري فرمقتني بنظرة متفحصة من أعلى رأسي حتى أخمص قدميّ.. فلاحقتها تجنبًا لإثارة شكوكها قائلاً:

- اليوم حفل افتتاح شركة السياحة التي أنشأها نعوم. وقد دعا كبار رجال الدولة، فكان لا بد أن أظهر بمظهر يليق بمنصبي الجديد.

ظلت ترمقني في صمت مطبق دون أن تبدي أية ردة فعل.

مرت لحظات ثقيلة كالدهر، فوجدت أنها لا تنوي الحديث، وشعرت وكأنني طالب فاشل ينتظر عفو معلمه فأردفت:

- سأذهب حتى لا أتأخر، فيجب أن أكون بجانبه طوال الحفل.

انسحبت من أمامها، وخرجت مسرعًا هربًا من سهام مقلتيها.

استقليت سيارتي، وطوال الطريق ظللت أفكر في راشيل، وعلاقتي بها التي اقتربت من الاستحالة.. فما عاد في قدرتي النظر إلى عينيها.. هذين السلاحين الفتاكين اللذين أشعر باختراقهما لجدار روحي كلما طالعتني بهما.

وللأسف أثناء فراري منها كانت علاقتها تقوى، وتشتد بكل من وسيم وزوجته، وكأنها وجدت فيهما ملاذها الآمن. فمنذ أتينا إلى إسرائيل لم تحظ بأصدقاء، ولذلك أصبحا صديقيها اللذين لم يتركاها في محنتها، فاستحوذا على كامل ثقتها.

وعلى الرغم من مواجهتي لها بشكوكي في علاقتها بوسيم، وغيرتي عليها منه، في محاولة من جانبي لتحجيم تلك العلاقة، التي أعلم جيدًا كونها لن تجر عليّ سوى الويلات، فإنها أجهضت خطتي بكل قوة

وحسم، فلم تترك أمامي أية ثغرة أنفذ من خلالها لإحداث الفرقة، ولذلك أتجنب الحديث معها عن وسيم مطلقًا.. هذا إن سمحت الظروف للحديث.. فهي تتجنبني كالموت، وأنا أيضًا أتجنبها كجلاد قاس.

وأعتقد أن في ظل وجود هذا الوسيم في حياتنا يبث سمومه في عقلها، فلن تلبث أن تهجرني، وترحل عن إسرائيل ما إن عثرنا على يوسف ودينا.. وحينها لن أستطيع إجبارها على البقاء معي كما كان يحدث قديمًا.

فبعد تأكدها من موت الولدين، لن يجبرها على المكوث في إسرائيل كائنًا ما كان.

أما الحب الذي كان يجمعنا فقد استغللته ضدها أكثر مما ينبغي.. والمشاعر التي كانت تكنها لي جفت منابعها منذ أجبرتها على الهجرة من مصر والابتعاد عن عائلتها.

فلماذا أنتظر بعدما مزقت أخر خيط كان يجذبها نحوي.

ولكنني مازالت أراهن على أمل واهٍ.. يمثل وجود وسيم في طريقه حجر عثرة.. وهذا الأمل ما يدفعني إلى المضي قدمًا في استعادة جثماني يوسف ودينا.

وأثناء شرودي وجدت نفسي قد وصلت إلى مكان الحفل. فحاولت تناسي همومي، ولو بصورة مؤقتة، مصطنعًا الابتسامة على شفتيّ استعدادًا لمقابلة الحضور.

استقبلني نعوم وكان متوترًا بحق، فهو لم يعتد المجاملات التي لا بد من الكثير منها اليوم، وقال عاتبًا:

- لماذا تأخرت؟

- آسف.. ولكن راشيل استوقفتني بنظرتها القاتلة، فحاولت تبرير خروجي بهذا الحال.

وأشرت إلى لباسي فتنبه يتفحصني بعين ناقدة ثم قال:

- لها حق إن استوقفتك.. فأنت تبدو وكأن اليوم يوم عرسك.

ابتسمت ساخرًا ثم أردفت:

- بالطبع لا.. ليس ما ظننت.. بل كانت في عينيها نظرة تقول: "إلى أين تذهب متأنقًا هكذا، وولداك لم نعرف لهما طريقًا بعد؟".

- وماذا فعلت معها؟

- لا شيء.. أعلمتها بالحفل، وانسحبت من أمامها في صمت.

فقال متأثرًا:

- لك الرب.

بدأ الحضور في التوافد، وكنت إلى جانب نعوم طوال الوقت بوصفي صديقًا قديمًا وشريكًا سابقًا في مكتب الصرافة فقط.

وقد كان حفلاً فخيمًا بحق كما كنت أتمنى.. فلا بد من إعطاء انطباع جيد عن الجودة المقدمة من جانب الإدارة، وهذا لن يتأتى سوى بتنظيم حفل مهيب يجمع كبار رجال الدولة.

وقدَّم نعوم عروضًا رائعة للمدعوين، معلنًا عن رحلات افتتاحية للشركة، تتضمن معالم إسرائيل، والتي قد ازدادت بعد نصر ٦٧ لتتضمن القدس الشرقية، ورام الله، وهي مدن تاريخية جاذبة للسيّاح.. إلى جانب

سيناء، وما تحمله من آثار لتاريخ الأمة اليهودية، كجبل الطور، والاثنتي عشرة عينًا وسواهما.

وقد نجح نعوم في إدارة اليوم ببراعة أرضتني عنه.. فلي فضل غير منكور في خلقه خلقًا آخر، يقدّر قيمة العمل، والاجتهاد بعد أن كان لا يعنيه سوى نزواته.

*****

الفصل الحادي والعشرون

وفي صبيحة اليوم التالي للحفل ذهبت إلى عملي كعادتي، وعندما عدت إلى البيت وجدت وسيم في ضيافة راشيل، دون زوجته سارة.

نظرت إليه نظرة أقرب إلى السبة ثم قلت:

- ما الذي أتي بك إلى هنا أثناء غيابي؟

نظر نحوي جالسًا بطرف عينه وقال بهدوء:

- جئت لزيارة السيدة راشيل.

- ومن أنت لتسمح لنفسك بزيارتها منفردًا دون زوجتك، وفي غيابي؟

قلتها بحدة، مشيرًا إليه باستهانة، فنهض ليقف أمامي في تحدٍ واضح رامقًا إياي بغضب يستعر، فنهضت راشيل بدورها في محاولة لتهدئة الموقف وقالت:

- اهدآ أرجوكما.

فقاطعها:

- ما الذي ترمي إليه؟!! وما هذا الهذيان الذي تتفوه به؟

- هذيان؟!!.. أم أنني تلمست الحقيقة؟

امتقع وجهه واحمرت أذناه وقال:

- أي حقيقة؟! أنت مؤكد جننت:

- حقيقة أنك معجب بزوجتي.. وتريد استغلال الحادث لتقوية علاقتك بها، مغتنمًا فرصة ضعفها وهشاشتها بعد فقدها لطفليها.

- أنا لا أسمح لك.. فالسيدة راشيل خير مثال للاحترام.. ثم إنني رجل متزوج ومحب لزوجتي.

قاطعته قائلاً:

- نعم نعم.. تلك الألاعيب أحفظها جيدًا.. أنت تسعى لإحراز هدف في شباكها على حسابي، بامتداحها أمامي لتثبت تقديرك لها.. أليس كذلك؟!

- اسمعني جيدًا.. هذه السيدة صديقة لي ولزوجتي.. والتي على علم بتواجدي هنا الآن.

قالها بغضب شديد، مشيرًا إلى راشيل التي امتقع وجهها، مما دفعني إلى إعلاء وتيرة التوتر، لأزيد من الضغط على أعصابها قائلاً:

- أنا لا تعنيني زوجتك أو طرق خداعك لها.. ولكنني لن أسمح لك بالتلاعب بزوجتي.

ثم أردفت، مشيرًا إلى الباب قائلاً:

- اخرج من بيتي الآن، ولا تعد إليه أبدًا.

رمقني لثوانٍ قبل أن تعتلي وجهه ابتسامة ساخرة.. فشعرت وقتها أنه اخترق ذهني وقرأ أفكاري.

سألته بصوت مرتعش ينم عن اضطرابي وضعف حججي:

- ما الذي يضحك الآن؟

عاد صوته إلى الهدوء وقال:

- أنت أعلم بما يضحك.. وهذا واضح من نظرة عينيك المترددة المرتعشة.. لعبتك مكشوفة يا أستاذ.. لن أترك هذه السيدة ما حييت..

ولن أتخلى عنها في بحثها عن ولديها، وخصوصًا بعد أن أوضحت لي شكوكها في أن حقيقة موت يوسف ودينا جريمة وليس حادثًا.

رمقت راشيل بدهشة أعتقد أنني أتقنتها متسائلاً:

- أحقًا تشكين في كون غرقهما جريمة قتل وليس حادثًا؟

فردت بصوت جاد يحمل من القوة الكثير:

- نعم أشك.. ولن أتهاون حتى أكتشف الحقيقة. ووسيم سيدعمني حتى أتوصل إليها.

فقلت في تودد:

- ولماذا هو وأنا معك؟

عقدت حاجبيها في استنكار وقالت:

- أنت معي؟! أحقًا ما تقول؟!

- نعم فأنا زوجك، وهما طفلاي..

فقالت في أسى:

- الآن فقط تذكرت كوني زوجتك؟! وأين كنت منذ الحادث؟!! لقد كنت تتجنبني، وتتعمد الهرب مني وكأنني الموت..
انتظرت منك ألّا يغمض لك طرف حتى تجد يوسف ودينا.. وأن تتوقف حياتك، حتى تعلم السبيل إليهما، ولكنني فوجئت بأن حياتك تسير بشكل أقرب إلى الطبيعي. فكيف لك هذا؟ ولماذا أجزمت بغرقهما، ولم تشك لحظة في اختطافهما؟

أليست كل هذه علامات استفهام، أقحمتها بيديك في رأسي وتركتني أصارع وحدتي وضعفي وقلة حيلتي؟!!
الرب أرسل في سبيلي وسيم لينقذني من متاهة أفكاري، ويضعني على أرض الواقع بمساعدته لي في بحثي عنهما سواء كانا متوفيين أو تائهين.
وأنت الآن تأتي بمنتهي البساطة لطرده من حياتي حتى أعود لمتاهتي وحدي من جديد!! لا.. لن أسمح لك، وليكن في علمك تصرفاتك غير المبررة تلك تجعلك المشتبه به الأول في نظري في اختفائهما.

ألقت تلك القذيفة في وجهي وانسحبت إلى غرفتها في صمت.

ظل وسيم يرمقني بكراهية عدة ثوانٍ فبادلته إياها بمقت.. وقلت ضاغطًا على أسناني في غلٍ:

- أنت من أدخل الشك في رأسها.

فرد متهكمًا، وعلى وجهه ابتسامة ساخرة:

- بل أنت أيها الغبي.. لا تلومن سوى نفسك.

قالها واتجه إلى الباب مباشرة خارجًا، وتركني أعاني قسوة صدمتي.

ألقيت بنفسي على المقعد، وقد أظلمت الدنيا في عينيّ، شاعرًا باقتراب نهايتي.

ماذا أفعل الآن؟

أعلم جيدًا إنني من أثار الريبة في نفس وسيم يوم الحادث، وما هو متوقع أن ينقل شكه إلى راشيل.. وأعلم أيضًا حقيقة افتقاري لمهارة تقمص دور الأب المكلوم حتى أتقنه على راشيل.

ولكنني استدرجت إلى مباراة أعلنت نتيجتها بسحقي قبل إطلاق صافرة البدء، فقد عجزت عن إقناع راشيل بدوري، في الوقت الذي كان وسيم يغذي فيه عقلها بفكرة غرقهما على يديّ.. وقد أعنته على ذلك بتركي الملعب له، يلهو بعقلها كيفما يشاء.. وعندما حاولت التدخل كان الأوان قد فات.

ولكن هذا حدث أثناء تراجع إدراكي.. فقد كنت بعد الحادث مشوش الفكر، وبداخلي يستعر صراع ما بين ندمي وحزني على فقد ولديّ، وبين إيماني بالتوجيه الذي ألزمني بذلك ومدى مصداقيته..

ولم تهدأ عواصف نفسي حتى اتخذ الوعد سبيله إلى حيز التنفيذ.. وذلك حين تسلمت الاستدعاء لتولي منصب مدير البنك.. فحينها فقط أيقنت أن قدري قد رسمه الرب لي.. وبأنني على الدرب القويم..

ولكن ما مضي قد مضي.. وندمي لن يستعيد الأيام الماضية.. يجب ألا يشغل فكري الآن سوى المستقبل، دون أن أسمح لهذا الوسيم أن يهبط من عزيمتي وإصراري على مواصلة طريقي..

معضلتي الآن راشيل.. فكيف يجمعنا بيت واحد بعد توجيه اتهامها لي بصورة شبه مباشرة.

لم يعد لي مكان ها هنا..

نهضت إلى غرفتي وأعددت حقيبتي استعدادًا للانتقال للعيش في فندق. وعند خروجي من البيت تعمدت غلق الباب خلفي بقوة حتى شارفت على اقتلاعه لجذب انتباهها، ولكنها لم تكترث.

استقليت سيارتي متوجهًا إلى أحد الفنادق الفاخرة في تل أبيب.. فمكانتي الاجتماعية الآن لا تسمح لي بالتواجد في مستوى أقل من ذلك.. فقد أمسيت من كبار رجال الدولة.

استأجرت غرفة مريحة على قدر لا بأس به من الفخامة. وعندما دلفت إليها تنهدت في ارتياح.. مؤكد ستكون الحياة هنا ألطف من العيش بصحبة راشيل.. يكفيني تجنب قاذفتيّ اللهب اللتين تحرقانني بهما كلما رمقتني.

أعتقد أنها ستنتظر عودتي ظنًا منها أنني خرجت للتجول قليلاً ثم العودة، ولكن عند تأخري ستدخل إلى غرفتي لتفاجأ بفراغ خزانتي.

وفي تلك اللحظة سيمضي فكرها في سبيل من اثنين لا ثالث لهما:

الأول أنني مظلوم واتهامها لي جرحني، فقررت ترك البيت لشعوري بالظلم والاضطهاد، وفي هذه الحالة ستحاول البحث عني للاعتذار.

والسبيل الآخر هو أنني مذنب بالفعل، ولذلك تهربت من مواجهتها.

وأظن أن السبيل الثاني هو الأقرب إلى ذهنها الآن.. وعلى الرغم من علمي من أن ابتعادي عن البيت قد يعزز من شكوكها فإنني لا يمكنني مقاومة رغبتي في الهرب من عينيها.

أعصابي لم تعد تحتمل مواجهتها لي، وأظنها أنها ستتكرر إذا ما مكثت أمامها.

لن أهتم كثيرًا الآن لما قد يجول بخاطرها.. ففي النهاية هي لا تملك دليل إدانة ضدي.. مجرد ترهات في عقلها، يشاركها فيها وسيم– الشهم– الذي لا أعرف ماذا ينتظر من وراء اتهامه لي، حتى وإن نجح في إثباته.

ولكنني لن أتركه يحيا في سلام.. لكل شيء نهاية.. ونهاية هذا الوسيم على يديّ.

لقد أفسد حياتي ودمر علاقتي براشيل، ولن أسامحه على فعلته تلك.. سيدفع ثمن تدخله فيما لا يعنيه.

******

الفصل الثاني والعشرون

انتظمت وتيرة حياتي قليلاً بعد ابتعادي عن البيت.. فتفرغت لعملي في البنك، وهذا انعكس عليه بشكل إيجابي، فحققت نجاحًا ملحوظًا أثنى عليه الجميع، وأمسيت امتلك شبكة علاقات واسعة، متمتعًا فيها بسمعة طيبة.

حتى فاتحني أحد رجال الدولة، قائلاً إن مكاني في البنك لا يكفي لخدمة إسرائيلنا العزيزة، فلا بد من أن أوجه فكري نحو اختراق الحياة السياسية.

بالطبع مثّل لي هذا الحديث مفاجأة كبرى.. حيث إنني لم أفكر في هذا الاتجاه من قبل.

إن السياسة لعبة شديدة التعقيد، لا يتقنها سوى متحدث لبق.. وأنا أبعد ما يكون عن هذا الشخص.. فقد قضيت أغلب سنوات عمري صامتًا.. فكيف لي اليوم الحديث إلى جماهير غفيرة؟!!

إضافة إلى أنني تخرجت في كلية التجارة، وهذا جعلني إنسانًا عمليًّا.. معادلاته محسوبة بدقة بالغة، بمعنى أن واحدًا مضافًا إليه واحد، لا يساويان سوى اثنين، ولكن عند السياسي قد يساويان ثلاثة وربما أكثر.. وهذا يتوقف على قدر رغبته في التودد إلى مُتَبِعِيِهِ.

ولذلك فإن هذا الأمر يستلزم الكثير من التفكير والتدبير.. إلى جانب الكثير من الوقت والجهد والدراسة.. فيجب عليّ العمل بشكل جيد على ذاتي، ليناسبني رداء السياسي، ولا أبدو فيه كأحمق.. هذا بالطبع إن قبلت بالمضي قدمًا..

ولكن في المجمل.. هذا العرض مؤشر طيب لقدر ما حصدته من نجاح في إسرائيل.. والذي أجني ثماره كلما أطعت الرب.

*****

الفصل الثالث والعشرون

وذات يوم أتى نعوم إلى البنك لمقابلتي، باغتني مستنكرًا تجاهلي إخباري إياه بتركي للبيت قائلاً بصوت لائم قبل أن يجلس ليستريح:

- لماذا لم تخبرني بتركك البيت؟

وقفت للترحاب به وقلت مبتسمًا:

- يا أخي ألق السلام أولاً..

وأقدمت عليه لأصافحه، فصافحني ووجه مازال محتفظًا بعبوسه، ثم قال:

- أجب على سؤالي.

أشرت إليه ليجلس أولاً، فجلس مستجيبًا لرغبتي، وجلست على المقعد المقابل لمقعده، ثم قلت مشيرًا بيدي علامة على قلة الحيلة..

- لقد حدث الأمر بشكل مفاجئ.. تركت البيت لراشيل.. فالحياة معها استحالت، وانتقلت للعيش في فندق. ولكن كيف علمت بالأمر؟!

- لقد هاتفتك في البيت فأخبرتني بتركك له.. وعندما سألتها عن السبب لم تجبني، وقالت بعد لحظات من الصمت: "اسأل صاحبك".. ماذا حدث؟

زفرت في يأس ثم قلت:

- لقد فقدت عقلها تمامًا.. تصور أنها تشك في أنني أغرقت يوسف ودينا متعمدًا..

عقد حاجبيه في استنكار وقال:

- ما الذي تقوله!!.. هذا حقا جنون!!.. كيف لها التفكير بتلك الطريقة؟!

- وسيم.. ذلك الشاب المتطفل، الذي أقحم نفسه في حياتنا عبث في عقلها بتلك الأفكار.

- ولماذا؟

- لا أعرف.. ولكن على الرغم من كونه متزوجًا، فإنني أعتقد أن راشيل تروق له.

أشاح بيده في وجهي قائلاً باستنكار:

- يا رجل ما هذا الكلام الفارغ!!.. راشيل تحبك.. وتقبلت أشياء كثيرة لم تكن لتقبل بها لو لم تكن تحبك بحق.

- أنا لم أقل إنه يروق لها.. ولكنني قلت "هي من تروق له" ولذلك يسعي لاختراق حياتها بشتى الطرق.. فاستغل الحادث ليخرب علاقتها بي، فتبتعد عنّي لترتمي في أحضانه.

فقال مذهولاً:

- في هذه الأثناء؟!!.. بعد فقدها لطفليها!!!.. هذا حقا وغد.

- لا تقلق.. سينال ما يستحقه.

- ولماذا لم تشرح لها وجهة نظرك، وتنهاها عن مقابلته؟

- لقد غسل عقلها تمامًا، فهي تشك في كل كلمة ألفظ بها.. فكيف ستطيع لي أمرًا!!؟

ثم أردفت في أسى مشيحًا بنظري بعيدًا عنه..

- راشيل لم تعد كما كانت.. لقد أمست إنسانًا آخر عقب الحادث.. أكثر حدة، وأشد قسوة.

ولذلك رأيت أنه من الأفضل لكلينا الابتعاد قليلاً، حتى يهدأ كل منا.. فآثرت ترك البيت، وانتقلت للعيش في فندق.

- إلى هذه الدرجة؟!!!

هززت رأسي مؤكدًا وقلت:

- نعم.. فالبيت لم يعد يتسع لكلينا.
- إذن فلما لا تنتقل إلى الفندق الذي أقطن فيه أنا وخولة؟
- ليس عندي مانع.. سيكون هذا أفضل بتأكيد.

قلتها ضاغطًا على الجرس فأتى الساعي مسرعًا.. توجهت إلى نعوم بالسؤال عما يبغي تناوله، فأشار بما يعني "أي شيء" فتوجهت إلى الساعي بالحديث طالبًا قدحين من القهوة، وأشرت له لينصرف..

وبعد انصرافه أكملت حديثي مع نعوم قائلاً:

- دعك مني الآن، وقل لي ما أخبار خولة؟

فقال بصوت يغلفه الحزن والأسى:

- حالتها النفسية تزداد سوءًا.. وتريد رؤية أهلها لطلب الغفران.
- ندمت على علاقتها بك..أليس كذلك؟!
- نعم، أشد الندم.. وترى أنها تستحق العقاب.
- ولماذا الآن؟

طرق إلى الأرض وقال:

- تقول إنها تشعر باقتراب نهايتها.. فهي تظن أن الموت سيدركها أثناء الوضع.. ولذلك تريد طلب الغفران منهم.

- لقد جنّت تمامًا.. أي سماح الذي تتحدث عنه؟!.. سيقتلونها بمجرد أن يروها.

هز رأسه موافقًا وقال:

- تعلم ذلك.. ومتقبلاه بمنتهي الرضا، وكأنها تنتظره.

- وكيف تتفاهم معها، وهي في تلك الحالة؟

- لم يعد هناك تفاهم.. فأي نقاش بيننا ينقلب إلى شجار، ولذلك آثرنا الصمت.. أدعو الرب أن يمر ما تبقى من وقت على الوضع على خير.

- أتمنى.

حاولت إخراجنا من أجواء الحزن المخيمة فوقنا، فسألته عن العمل وما آلت إليه شركة السياحة، فتذكر أنه أتى ليمنحني الأرباح، وما إن انتهينا من حساباتنا حتى عرضت عليه إدخال رحلات بحرية إلى جانب النشاط القائم الآن، فوافق على الفور مستحسنًا الفكرة، ووعدني بالاهتمام بالأمر، والبحث عن قوارب بحرية فاخرة تتناسب وحجم الشركة وسمعتها.

وما إن أنهيت من عملي، حتى توجهنا إلى الفندق الذي كنت أقيم به على الفور لإحضار حقيبتي، وتصفية حسابي، وعقب انتهائي توجهنا إلى الفندق الذي يقطن به، واستأجرت غرفة مناسبة لا تقل كثيرًا عن نظيرتها التي كنت استأجرها في سابقه.

شكرته على وقفته بجانبي واهتمامه بالعمل في الوقت الذي أُلهيت عنه. فبدون نعوم لا أعلم كيف كنت سأكمل حياتي.

هو حقًا نعم الصديق.

*****

الفصل الرابع والعشرون

قضيت ليلتي الأولى في ذلك الفندق في شرفة الغرفة، محملقًا إلى السماء، وكانت ليلة ليلاء، غاب عنها القمر، واستحت نجومها فخفتت أضواؤها، لتزيد من عتمة الدنيا، عاكسة ما بروحي من إعتام.. مما دفعني إلى استرجاع ما مررت به من أحداث جسام في حياتي الماضية وحتى الآن.. إلى أن غلبني النعاس، فاستسلمت له دون مناهضة.

وفي صباح اليوم التالي توجهت إلى عملي كعادتي، وقضيت يوم عمل آخر، لا يميزه شيء سوى المزيد من النجاح، وإثبات الذات وعند عودتي وجدت نعوم وخولة يجلسان في بهو الفندق.

ألقيت عليهما السلام، فدعاني نعوم للجلوس. وعندما جلست لاحظت الشحوب الشديد الذي لحق بوجه خولة، فبدت وكأنها مصاصة دماء، خارجة لتوها من سباتها.. عيناها ذابلتان غارقتان في بركتين من الوحل.. خاويتان.. شاخصتان إلى اللا شيء، وكأن هناك عالمًا آخر يسبحان فيه بمفردهما.

وعلى الرغم من كونها في أشهر الحمل الأخيرة، فإنها بدت تعاني من نحول شديد تبرز فيه بطنها، وكأنها تعاني مرضًا عضالاً.

أين الجسد الرشيق، الذي كان يتحدى أعظم نحات في صنع مثيلٍ له؟!.. أين الوجه الصبوح الذي ينافس الشمس في إشراقه؟!

أين العينان اللتان كانتا تلمعان ببريق العشق والجوى؟!

لقد تحوّلت إلى مومياء، لا ينقصها سوى الكفن، والذي أشارت إليه– غير مدركة – بلباسها الأبيض الفضفاض.

لا يمكنني إلقاء اللوم على الحمل في كل هذا الأذى الذي لحق بها.. هذه امرأة لا شك وقعت فريسة لتأنيب ضمير لا يبقي ولا يذر.

مرت لحظات ثقيلة عجزتُ خلالها أن أجد ما يمكنني قوله في حضورها فآثرت الصمت.

طلب لي نعوم قهوة، فتناولتها في عجالة، ثم اعتذرت منهما بعد أن اتفقنا على اللقاء في التاسعة مساء.. فقد كنت أسعى للهرب من هذا المناخ الكئيب الذي يعانيانه.

صعدت إلى غرفتي وأخذت حمامًا دافئًا، ثم غصت في فراشي الوثير.

وفي تمام التاسعة قابلت نعوم في بهو الفندق، والذي بات ملجأ لنا، كما اتفقنا..

طلبنا قدحين من القهوة، ذلك المشروب الذي صارت دماؤنا في خليط متجانس معه، يعجز الأطباء عن إدراك كنهه..

وبعد مرور وقت ليس بالقليل، ظللنا خلاله نرمق الجالسين حولنا بنظرات متفحصة.. محاولين اختراق جدران أرواحهم علّنا نجد ما يشغلنا عن همومنا.. فكم تخفي العيون من أسرار ومكنونات كفيلة أن تحيل حياة كل منا إلى جحيم يستعر فيه الشياطين!!

أردت أن أكسر حاجز الصمت، فعرضت عليه فكرة إقدامي على طرق باب الحياة السياسية، تمهيدًا لالتحاقي بالكنيست.

فنظر لي باندهاش قائلاً:

- الكنيست؟! منذ متى وأنت مهتم بالسياسة؟

أجبته أثناء متابعتي للأبخرة المتصاعدة من قهوتي:

- أنا لا أفقه فيها شيئًا.. ولكن جم ما يعنيني هو مصلحة وطني.. ومحاولتي تلك تهدف لتقديم يد المساعدة، والمساهمة في تنميتها بشتى الطرق.

فقال بعد أن تجرع ما تبقي في قدحه من قهوة:

- إذن أبحث عن طرق أخرى تتناسب مع خلفيتك العلمية والعملية، تمكنك من تقديم خدماتك من خلالها.

- لكي أكون صادقًا معك.. هناك توجيه من نوع ما لي بالتحرك في هذا الاتجاه.

- ماذا تقصد؟

نظرت إليه، وقلت بجدية عاقدًا أصابعي في توتر:

- أقصد أنني تلقيت مكالمة من جهة سيادية، تحثني على التفكير في الأمر.. ولن أخفي عليك.. أنا أميل للفكرة.

- ولكن هذا سيستلزم منك وقتًا وجهدًا إلى جانب التفرغ.

هززت رأسي موافقًا، ثم قلت:

- أعلم.. ولهذا مازلت أفكر، ولم أتخذ قرارًا بعد.

اعتدل في جلسته لينل المزيد من الاسترخاء، ثم قال:

- أنصحك بالتروي في قرارك.

- لا تقلق، فلن أُقْدم على عمل إلا عقب تأكدي التام من قدرتي على إنجازه.

قلتها ثم وقفت متأهبًا للذهاب عاقدًا أزرار بزتي، فتساءل مستفهمًا:

- إلى أين؟

- سأذهب للاطمئنان على راشيل.. فمنذ تركت البيت لا أعلم عنها شيئًا.

- الحق معك.. فقد تكون الآن نادمة عما صدر منها في حقك، ولكن كرامتها تمنعها من الاعتذار، فلا تدعها تقف حائلاً بينك وبينها.. اذهب عسى أن تعود المياه لمجاريها.

استمعت إلى حديثه في اهتمام، ثم استأذنت منه، واستقليت سيارتي منطلقًا، وثمة ابتسامة لا تستتر تطفو على عينيّ، بريق أمل بثه نعوم في روحي.. حقًا قد تكون الآن نادمة على فراقي وزيارتي تمنحها فرصة الاعتذار.

وصلت إلى البناية فصعدت الدرج طائرًا، تحملني آمالي العريضات.. وعندما وصلت إلى الطابق أدهشني أن الباب تُرك مفتوحًا. دلفت إلى الداخل في توجس والقلق ينهش قلبي. تسمرت في محلي شاعرًا وكأن الأمل تخلى عنّي ليتركني أتهاوى من سمائه لارتطم بأرض الواقع.. فبعد أن داعب مخيلتي حلم جميل صدمت لاستفيق منه على واقع أليم.

فقد كان وسيم هناك.. جالسًا برفقة راشيل.

نظرت إليه نظرة أقرب إلى طلق ناري، تعبر عن صدمتي، فوقف مرتبكًا باحثا في معجمه عمّا يمكنه قوله، ولكنه عجز فظل ساكنًا.

وهنا سعت راشيل لتدارك الأمر، فهبت واقفة وقالت:

- أهلاً بك.. ولكن ما الذي ذكرك بي؟

- ماذا يفعل هذا في منزلي؟

قلتها مشيرًا إلى وسيم باحتقار.. فقالت بصوت مرتعش، وهي تعتصر راحتيها في توتر:

- أتى للاطمئنان..

قاطعتها ساخرًا:

- للاطمئنان عليك.. أليس كذلك؟

صمتت للحظات، ثم أردفت بعد أن تداركت المفاجأة لتستعيد قوتها وحدة صوتها:

- لماذا عدت؟

- لماذا عدت؟!! الحق معك، فكان يجب أن استأذن قبل أن أحضر لبيتي أما هذا...

وأشرت إلى وسيم- والذي أصابه الوجوم – بازدراء وتابعت..

- فقد أمسى صاحب البيت يأتي وقتما يشاء.. أليس كذلك؟!

صمتت راشيل للحظات، شاعرة أنها أسقطت في يدي.. ثم قالت في جدية بعدما أحرقتها نظراتي:

- أعلم ما يدور في خلدك الآن.. ولكن حاول أن تلحظ أن الباب كان مفتوحًا عندما حضرت.

ثم أردفت مستعيدة حدة صوتها:

- اسمعني جيدًا.. أنا حقًا لا يعنيني ما قد يُثير ريبتك، أو يعبث في عقلك.. فلن أُلهي عن قضيتي الرئيسة بهذا الهراء الذي تسعى لغمسي

فيه.. ما تعتقده هو حقك.. الذي لن أتدخل محاولة إصلاحه.. فلم أعد أكترث كثيرًا لنظرتك لي..

أما أنت فمازلت مطالبًا بتوضيح الحقيقة.

رددت بانفعال قائلاً:

- أية حقيقة؟ ما عندي قد قلته.. ولم يعد هناك كلام آخر يقال.

فقالت في تحدٍ صريح مقتحمة عينيّ:

- أنت قتلت يوسف ودينا!!

اهتزت نظراتي مما انعكس على صوتي:

- لقد جننت تمامًا.. لماذا؟؟!!.. لماذا أقتل طفليّ؟

- أنا لا أعرف كيف بررت لك نفسك المريضة قتلهما؟!!.. فأنت منذ فترة ليست بالهينة يصعب التنبؤ بتصرفاتك التي ما عادت تتسم بالمنطقية.

لقد صرت إنسانًا غير متزن.. وأنا أحيا معك في دهاليز نفسك المتشابكة المريضة، غير قادرة على الفكاك.. ولكن لكل شيء نهاية.. ونهاية صبري عليك حانت منذ فقدت يوسف ودينا.

نظرت لها حينًا غير قادر على استيعاب ما أطلقته نحوي من فوهة بندقيتها في تحدٍ وقسوة.

ثم قلت بصوت بدا عليه الاضطراب، مشيرًا إليها في تحذير:

- حسنًا.. تلك هي النهاية.. ولكنني عند وعدي لك سوف أعمل ما في وسعي للعثور على جثماني يوسف ودينا لإعادتهما إليك.. ولكن إلى هذا الحين ستظلين زوجتي التي تطيع أوامري.. شئتِ أم أبيتِ.

أما أنت.

ونظرت إلى وسيم، وبكل ما أوتيت من قوة، وجهت له لكمة أظن أنها أظلمت الدنيا في عينيه، حتى إنه ترنح مقاومًا السقوط، ثم أكملت:

- لن أتركك ما حييت.. وحسابك معي عسير.. صدقني ستندم على إقحام أنفك في حياتنا.

تركتهما ينظران لي في عدم تصديق، واتجهت نحو الباب والدماء مازالت تغلي في عروقي. فقد كنت أتمنى قتله لا لكمه.

ولكن الانتقام إذا أتى سريعًا فقد مذاقه.. يجب أن أضع خطة محكمة تتيح لي التلذذ بمعاقبته.

أما قتله بدون تخطيط متقن فقد يعرضني للمساءلة، والتي قد يصعب عليّ النجاة منها.

سوف أجعله يعاني ما أعانيه من عذاب بسبب تطفله وشهامته غير المبررة.

سيدفع الثمن لا محالة.

هبطت الدرج مسرعًا يصحبني وحش من الحقد والكراهية. فقدت سيارتي بتهور حتى أوشكت على دهس طفل كان يسعى لعبور الطريق، إلا أنني تفاديته بأعجوبة كادت أن تودي بحياتي.. فقد انحرفت السيارة عن الطريق لتقابلني شاحنة استطعت تفاديها هي الأخرى بصعوبة بالغة.

أوقفت السيارة على جانب الطريق قليلاً حتى أهدأ...

وبعد أن تمالكت أعصابي توجهت إلى الفندق.

أخذت مفتاح غرفتي، وأثناء ارتقائي الدرج قابلني نعوم، لاحظ عبوس وجهي وتجهمي، فلحق بي محاولاً فهم ما حدث:

- انتظر.. لماذا عدت بتلك السرعة؟ ماذا حدث هناك؟

التفتُّ نحوه، وقلت ملوحًا في وجهه بإشارة تعني الصد:

- اتركني الآن يا نعوم.. لا أريد التحدث.

ظل مكانه مندهشًا، ولكنه احترم رغبتي، وابتعد وعيناه مازالتا معلقتين بي.

وما إن صعدت إلى غرفتي حتى ألقيت بنفسي على الفراش شاخصًا إلى السقف أعاني صدمتي.

* * * *

الفصل الخامس والعشرون

مضي يومان كصفحة مياه راكدة على عكس ما بداخلي.. ففي نفسي تتصارع أعتى وحوش البرية ليلتهم بعضها بعضًا في نهم، تاركة آثار دمائها على صفحة روحي- التواقة للانتقام- لتبعث من جديد أشد شراسة ودموية، لا تسعى سوى للانتقام.. رافضة محاولتي العديدة لتهدئتها، حتى أتمكن من وضع خطة مُحكمة. فلن يشبعها سوى الدماء.

كما أن نعوم تجنب لقائي ليمنحني فرصتي الكاملة في تجاوز آلامي.

وفي اليوم الثالث، وجدت نعوم يلحقني عند عودتي من العمل مسرعًا في بهو الفندق قائلاً على نحوٍ عمليّ:

- أريد التحدث معك.

فأجبته بنفس اللهجة..

- حسنًا. سأقابلك هنا في التاسعة مساء.

ثم تركته وتوجهت إلى غرفتي على الفور. وفي التاسعة قابلته فبدا متحفظًا في حديثه.. تطرق للحديث عن العمل مباشرة دون أن يسعي لمعرفة ما حدث معي في ذلك اليوم قائلاً:

- أود أن أبشرك بأمر ما.

- ما هو؟

- لقد استطعت تدبير القوارب البحرية التي أردتها.

فابتسمت قائلاً:

- جيد.. لقد أنجزت المهمة في الوقت المناسب.

عقد حاجبيه في تساؤل:

- ماذا تقصد بالوقت المناسب؟

- لا أبدًا، أنا فقط كنت أخشى أن يمضي الصيف دون استثماره بشكل جيد.

- لا تقلق.. سأعلن عن بدء الرحلات البحرية في الجرائد غدًا.

- تمام.. باركك الرب.

هم بالوقوف فلاحقته قائلاً:

- إلى أين؟

- سأذهب لشراء بعض الاحتياجات لخولة.

أمسكت يده أستمهله قائلاً:

- اجلس قليلاً.

فجلس بجواري صامتًا.

- لا تغضب مني يا نعوم.. فليس لي الآن سواك..

لقد كنت في أسوأ حال في ذلك اليوم، ولم أستطع الحديث.

تنهد في أسى:

- لا تهتم.. أنا أيضًا ليس لي سواك.. ولكنني آثرت الصمت مراعاة لخصوصيتك.

- اعذرني، فأنا أمر بأوقات عصيبة.

ربت على يدي في حنان، ثم قال:

- لست وحدك.. فكلانا في الهواء سواء.

قالها ثم انطلق نعوم في طريقه وبقيت وحيدًا.

طلبت قهوتي، وأخذت أفكر في خطة انتقامي من وسيم. فلا أريد أن يشغلني الآن سواه.

وبعد الكثير من التفكير الذي أحرق خلايا عقلي، توصلت إلى خطة تتيح لي الانتقام اللذيذ، فموته السريع لن يحقق لي غايتي.. يجب أن أستشعر مذاق عذابه.

رتبت أفكاري بترٍو، فلا محل للأخطاء هذه المرة.

****

الفصل السادس والعشرون

عقب انتهاء عملي في اليوم التالي، حاولت العبث في ملامحي قليلاً، بهدف تغييرها، فوضعت شاربًا وذقنًا مستعارين.. ثم توجهت إلى حي ناءٍ حديث الإنشاء، وقمت باستئجار شقة تحت اسم مستعار.

ثم توجّهت إلى الشارع الذي تقبع فيه بنايتنا- أنا وراشيل- وانتظرت قدومه.

مرت الساعات ولكنه لم يحضر.. فعدت إلى الفندق في العاشرة مساء بخفيّ حنين.

وقد تكرر ذهابي وانتظاري له يومين متتاليين، وفي الثالث رأيته قادمًا من بعيد يختال، واثق الخُطى.. وقبل أن يصل إلى البناية توجّهت نحوه مسرعًا بسيارتي حتى أوشكت على دهسه، فاضطرب وصعد إلى الرصيف، ولأول مرة يسقط قناع الواثق من نفسه عن وجهه، لأرى في عينيه نظرة جزع مُزجت بخوف لا تُخفى.

نزلت من سيارتي، وقبل أن يستوعب ما يحدث أطلقت في وجهه غازًا يسبب اضطرابًا لتوازن الجسد، فأوشك على السقوط.. لاحقته وضعًا إياه في سيارتي وانطلقت.

وعندما وصلت إلى البناية التي استأجرت فيها الشقة، أصعدته الدرج بصعوبة بالغة، وما إن وصلت إلى الطابق المنشود ألقيته أرضًا لاهثًا.. فقد أرهقني حمله كثيرًا.. انتظرت للحظات لأعب الهواء في رئتي، ثم فتحت الباب وجررته إلى غرفة بها مقعدان أحدهما كبير الحجم، ثقيل الوزن، كنت قد أحضرته خصيصًا من أجله، والآخر لي..

قيّدته في مقعده الوثير، واتخذت مكاني على المقعد المقابل له أراقبه.. مرت عدة دقائق حتى بدأ في الاستفاقة من خدره.

تمكن أخيرًا من فتح جفنيه بصعوبة بالغة.. فقد كان المخدر لم يتخل عن سطوته عليهما بعد.. ليجدني جالسًا أمامه في انتظاره.

حاول التملص فلم يستطع.. وحينها أدرك أنه مقيد بإحكام..

استغرق لحظات حتى استوعب الموقف.

اعتدلت في جلستي مبتسما ابتسامة صفراء.

فرمقني باستهتار مصطنع، والأفكار تصطرع في ذهنه ثم قال:

- لن أضيع وقتك في أسئلة لا طائل من ورائها.

- أعلم أنك أذكى من أن تطرح تساؤلاً تعلم إجابته مسبقًا. ولكنني أريد أن أعرف ما يدور بخلدك.

أخذ نفسًا عميقًا، ثم زفر في نفاد صبر وأردف:

- أنت قتلت يوسف ودينا.. وكنت لتنجو بفعلتك لولا تدخلي مشككًا فيك، ومثيرًا للريبة في نفس راشيل، جاذبًا أنظارها إلى الثغرات التي ما كانت لتراها لولا تدخلي، ولكانت إلى الآن ترى فيك ملاذها الآمن، وحصنها الحصين من غدر الزمان، والحضن الذي لم يعد لها سواه بعد فقدها طفليها.. ولكنني قلبت لك الموازين، زارعًا الشك في نفسها، والذي أدى إلى استحالة حياتها معك.. فأردت الانتقام مني..

واستطرد متهكمًا:

- هل أصبت؟!!

صفقت له مؤيدًا لحديثه حينا، وشبح الابتسامة الصفراء لم يفارق وجهي بعد. ثم قلت:

- دائمًا تثير دهشتي بمميزاتك اللا منتهية.. والتي أضيف لها اليوم تحليلك الجيد للأمور.. ولكن دعني أطرح عليك سؤالاً لن يغيّر ما آلت إليه الأمور كثيرًا. ما الذي استفدته من تطفلك على حياة الناس؟

صمت وفي عينيه نظرة تعني: "آت بما عندك"، فبادرت بالإجابة بدلاً منه قائلاً:

- اسمح لي بالإجابة بدلاً منك.. لا شيء.

لقد حذرتك عدة مرات من تدخلك غير المرغوب فيه في حياتنا، ولكنك أسلمت نفسك لحماقتك وغرورك، اللذين قاداك إلى هذا المكان.. والذي ستدفع فيه ثمن خطاياك.

فقال بنبرة عملية، وهو يسعى للاعتدال في جلسته، ولكنه فشل:

- ماذا تريد مني بالضبط؟!

وقفت وأخذت أضحك كثيرًا حتى أدمعت عيناي، ثم قلت أثناء دوراني حوله بلهجة جففت الدماء في عروقه:

- الموت.

ارتعش صوته، وبدا على وجهه تعبير من الرعب وعدم التصديق:

- الموت؟!

أعدت نطق الكلمة ببساطة لأزيد من رعبه:

- نعم الموت.. هذه هي الخدمة الوحيدة التي قد تستطيع تقديمها لي.

ثم استطردت:

- ستظل هنا مقيدًا بلا طعام أو شراب.. ولكن لا تقلق سآتي كل يوم للاطمئنان عليك.

ثم اقتربت منه، وقلت بخفوت جفف الدماء في عروقه:

- وحتى لا أضيّع فرصة رؤيتك تموت أمام عيني.

ظل يرمقني في هلع ممزوج بالدهشة دون أن ينبس ببنت شفه..

ابتعدت عنه رويدًا وأردفت ساخرًا:

- ولكنني إنسان كريم.. ولكي أثبت لك هذا...

أخرجت لفافة طعام تفوح منها رائحة طيبة، ووضعتها أمامه مع زجاجة مياه.. ولكنها بالطبع ليست في متناول يده حتى يتعذب لرؤيتهما.. وبعد أن انتهيت من إعداد المأدبة التي لن يهنأ بها نظرت له وقلت بلهجة تبدو ودودة:

- أرجو منك ألا تحاول تعذيب نفسك بالصراخ.. فأنت في مكانٍ ناءٍ.. لن يشعر بك أحد مهما حاولت.. بالإضافة إلى أن صراخك سيسهم في زيادة فقد جسدك للمياه، كما أنني أنصحك بتجنب محاولة فك قيودك، لأن هذا سيرهقك ويستنفد طاقتك دون جدوى.. ففرصتك في النجاة واهية.. قد تكون معدومة.

فكن كيِّسًا كعهدي بك.. الأمر سيأخذ عدة أيام وبعدها ستسلم الروح إلى الرب. فلا تتعجل النهاية.

رمقني بغل حقيقي.. ولكنه كما توقعت لم يحاول التوسل والتضرع.. فهو من الأشخاص الذين إن قدّر لهم الموت فسيموتون محتفظين بكامل كرامتهم. ودّعته بود مصطنع وغادرت.. استقليت سيارتي متوجهًا إلى الفندق، وقلبي يتخلله شعورٌ براحة بالغة، فأخيرًا تمكنت من تنفيذ الجزء الأصعب من خطتي.. صعدت إلى غرفتي تحملني سعادة من لاقى حبيبته بعد طول غياب.

أخذت حمامًا دافئًا ثم طلبت عشاءً دسمًا، ينعش روحي، ويمنحني المزيد من الرضا.

أنهيت عشائي ونمت وأنا راضٍ عن نفسي.. ولكن ما عكّر صفو رضاي أن يوسف ودينا زاراني في منامي، وكانا على الحالة ذاتها التي رأيتهما عليها سابقًا.. يتضرعان لي كي أنتشلهما من اليم.

نهضت من نومي مقررًا العودة إلى بيتي.

فمن كنت أخشى رؤيته هناك أتحكم الآن في مصيره.. أما راشيل فستفاجأ قليلاً، ثم لا تلبث أن تتقبل عودتي.

فليس في يدها حيلة.. هي لا تمتلك المال الكافي لتتمكن من هجر البيت.. وإن أرادت الانتقال فيتحتم عليها أخذ ما يلزمها مني من مال، وبالطبع هذا لن يكون.

ومن كان يمد يد العون لها أمسى سجيني، ولن يظهر بعد الآن، ولذلك فهي أسيرة في بيتي تكبلها أغلال العوز والحاجة.. ليس في وسعها شيء.

ومع مضي الوقت قد أستطيع إصلاح ذات البين، راجيًا أن يعينني عليه اختفاء ذلك المتطفل، إلى جانب الوفاء بوعدي لها في استعادة جثماني يوسف ودينا، إثر المضي قدمًا في تنفيذ مخططي.

أعددت حقيبتي، وتركت خطابًا أسفل باب نعوم، أشرح فيه انتقالي المفاجئ إلى البيت.

وبالفعل وصلت البيت في تمام الثانية صباحًا.

فزعتْ راشيل عندما سمعتْ صوت الباب يُفتح في تلك الساعة من الليل.. فهي بالطبع لم تكن لتتوقع عودتي بتلك الطريقة، ولذلك ظنت أنني لص.

وعندما دلفت إلى الداخل وجدتها متيبسة الجسد، تطل من فرجة باب غرفتها، لتحملق في القادم ليلاً بعينين مندهشتين أثر النوم، زائغتين أثر الخوف.

وما إن رأتني حتى تنفست الصعداء، ثم عادت إلى غرفتها..

وضعت حقيبتي أرضًا، ولحقت بها مستفهمًا في حنق:

- لماذا تتهربين مني؟

وكانت قد استلقت على فراشها تسعى للعودة إلى النعاس، فنهضت جالسة لتستعد لأية مواجهة محتملة.. وما إن ألقيت سؤالي حتى عقدت حاجبيها، وقالت بتهكم واضح اللهجة:

- أتيت في الثانية صباحًا لتسألني "لماذا أتهرب منك"!

أشعرتني بقدر حماقتي وتهوري، فمكثت في محلي للحظات أرمقها في صمت بعد أن تعثرت الكلمات في حلقي، ولبثتْ هي تحملق فيّ في تحدٍ سافر متأهبة للشجار.. ولكنني آثرت السلام، فانسحبت من أمامها، مغلقًا باب غرفتها خلفي.

****

الفصل السابع والعشرون

وفي الصباح الباكر وقبل توجّهي إلى عملي ذهبت إلى الشقة التي قد تركت بها وسيم أمس.

أولجت المفتاح في الباب، ودلفت متعمدًا إحداث جلبة، توجهت نحو الغرفة التي قد قيدته بها بخطوات واثقة، متعمدًا إحداث صوت رتيب بحذائي.. وما إن وصلت إلى فرجة الباب، حتى رمقته بنظرات متفحصة عاقدًا ذراعي فوق صدري، وقد استعادت شفتاي ابتسامتها الصفراء، فبادلني إياها بمقت وحقد حقيقيين.

ظل يرمقني للحظات بغل حتى كادت أوردته أن تنفجر من شدة احتقانها بالدماء.

وهذا ما كنت أتوقعه.. فلا شك في كونه قد جاهد مرارًا للتحرر من قيوده إبان الليل.. ولكنها ظلت أبيّة عاصية، كحصن منيع، فأيقن من هلاكه وقلة حيلته.. مما سمح للغضب أن يعلن عن سيطرته الكاملة عليه اليوم..

تعمدت استفزازه وإثارة أعصابه، فقلت بنبرة هادئة:

- أراك تلمست الحقيقة اليوم بيديك.. وأيقنت ألّا مكان للمزاح ها هنا.

لم يجب، وظل يقذفني بنيران كراهيته التي تقبّلتها بصدر رحب وكأنها تروي جوارحي.. فلها فضل غير منكور في تهدئة ما بداخلي من رغبة جامحة في الانتقام.

دلفت إلى الغرفة، وأخذت أحوم حوله ببطء شديد، متفقدًا إياه كسلعة فاسدة أوشكت على الإعدام.

ثم قلت بامتعاض مصطنع:

- ولكن ما كل هذه الفوضى؟ من الواضح أنك جاهدت كثيرًا لفك قيودك بالأمس.. ألم أنصحك بعدم جدوى المحاولة؟! فلماذا لا تستمع لنصيحة صديق مخلص؟!!

صمت قليلاً ثم قال بخفوت يحمل مزيدًا من الغل:

- سأنتقم منك.

ضحكت كما لم أضحك من قبل.. ثم قلت بعد أن هدأت نوعًا:

- أمازلت تحتفظ بآمالك؟!.. هذا حقًا مثير للدهشة!!.

اقتربت منه كثيرًا، ونظرت في عينيه متحديًا، وقلت بصوت خفيض يحمل الكثير من الجدية:

- ولكن للأسف هذا طموح لن تلمسه يداك.. فلن تتاح لك الفرصة.. أنت على شفا حفرة من الموت.

وانفجرت في الضحك حتى أدمعت عيناي.. ثم استطردت ضاحكًا على الرغم من جدية حديثي:

- ولكن أرجوك لا تلقي باللوم عليّ.. فقد حذرتك أكثر من مرة لتبتعد عن حياتي.. ولكنك كنت مصّرًا إصرار فراشة حمقاء أقحمت نفسها في النيران ظنًا منها كونها الضوء.. ولكن النيران لا يسعها سوى الإحراق.

ومططت شفتي في استسلام متابعًا:

- فما باليد حيلة.

قال ضاغطًا على نواجذه حتى أسمعني أزيزها:

- أنت مهووس ومختل.

- وإن صدقت.. هذا لن يغير شيئًا.. ستموت ميتة بطيئة بعد عدة أيام لا أكثر.. فحاول استغلال ما تبقي لك من وقت في التضرع للرب، عسى أن يغفر لك خطاياك.. فأنت لا تعرف أي جحيم ينتظرك هناك.

فصاح بحنق وغلٍ:

- الجحيم خلق لأمثالك.

- لأمثالي؟!!.. أود أن أعلمك أنني مكلف من الرب بدعم إسرائيل.

-ألم أقل لك إنك مهووس ومختل؟!

أشحت بنظري عنه.. ناظرًا إلى الطعام الذي قد تركته أمامه أمس.. عاقدًا حاجبي في تساؤل ساخر:

- ألم تأكل شيئًا منذ ليلة البارحة؟!! لماذا يا رجل؟! أليس البيت بيتك؟!! سأغيّر لك قائمة الطعام، عل هذا يرضي ذوقك الرفيع..

وضعت أمامه طعامًا ساخنًا، تفوح منه رائحة شواء شهية كنت قد أحضرته معي.

- لا تهمل نفسك يا رجل، تفضل بتناول غدائك.. ثم إن البيت بيتك الآن كما اتفقنا، فقد استأجرته خصيصًا لأجلك..

أنهيت مهمتي في تباطؤ، ثم استدرت خارجًا من الغرفة، تاركًا إياه غارقًا في انتقاء أفضل أنواع السباب ليقذفني بها من الخلف..

الفصل الثامن والعشرون

وصلت إلى البنك متأخرًا لأول مرة منذ توليت مهام عملي.. فلاحظت الدهشة في عيون العاملين.. ولكنني لم أبالِ كثيرًا.

دلفت إلى مكتبي من فوري فلحق بي مدير مكتبي ليعلمني بأن ثمة اتصالاً هاتفيًّا مهمًا قد أتاني قبل حضوري بدقائق.. وأنه قد أبلغ المتصل بتأخري، فأجابه بأنه سيعاود الاتصال في تمام العاشرة، فشكرته، وأذنت له بالانصراف.

وبالفعل في تمام العاشرة رن جرس الهاتف، وعندما أجبت وجدته أحد رجالات الدولة العظام.. وهو من وجّهني سلفًا إلى التفكير في طرق باب الحياة السياسية.. لامني مازحًا على تأخري عن العمل فاعتذرت منه.. ثم أبلغني بكونه يريد مقابلتي بعد غد في تمام السادسة مساء.. وبالطبع رحّبت على الفور.

قضيت يومي مفعمًا بآمال عريضات في غد بدت بشائره منذ اليوم.

الغد أفضل لا ريب.

عدت إلى البيت في تمام الخامسة، وعندما دلفت بحثت عن راشيل لأجدها في المطبخ تعد الطعام.

وقفت أطالعها من فرجة الباب في صمت، حتى انتبهت لقدومي فالتفتت إلى الخلف، ورمتني بنظرة عابرة، ثم عادت إلى عملها دون إبداء أية ردة فعل لوجودي، فقلت وقد اعتلت وجهي ابتسامة رقيقة تحمل الكثير من الود:

- سنأكل اليوم من يد أعز الناس؟

لم تجب وواصلت عملها في صمت، فعاجلتها قائلاً:

- سأكون ممتنًا إن شملني عطفك وأعدتِ لي الغداء.

فهزت رأسها موافقة في فتور.

انسحبت من المطبخ متوجهًا إلى الحمام، ونزعت ثيابي استعدادًا لحمام بارد، أرطب به جسدي من قيظ الصيف.. وعند خروجي وجدت الطعام ينتظرني وحيدًا على المائدة، ولم تكن راشيل برفقته كعادتها قبل الحادث لنتناول الغداء سويًّا.

جلست إلى المائدة لحظات، منتظرًا حضورها علّها تحضر شيئًا ما.

مرت لحظات ولكنها لم تحضر.. استجمعت شجاعتي، وتمالكت رباط جأشي وناديتها:

- راشيل.. أين أنت؟

خرجت من غرفتها بعد لحظات، عاقدة يديها على صدرها وقالت:

- أتحتاج شيئًا ما؟

- ألن تتناولين غداءك؟

- لا..لا أريد الآن.

- إذن اجلسي معي حتى أنتهي من طعامي.

زفرت في نفاد صبر، ثم جلست على المقعد المقابل لي في صمت.

شرعت في تناول الطعام، وأثناء ذلك قلت، وقد تعمدت تجنب النظر في عينها:

- أمس حاولت التحدث إليك، ولكنك نبهتني إلى أن الوقت غير مناسب.. أظن أن الوقت الآن مناسبٌ.

ظلت صامته وصمتها هذا أعطى لي إشارة البدء في الحديث فأردفت:

- لماذا تتهربين مني؟

أشارت لي بكلتا راحتيها في علامة على الصد، قائلة بصوت جاد:

- أرجوك.. توقف.. ليس هناك داعٍ لنقاش لن يأتي بثماره.

فنظرت لها في تودد ثم قلت:

- ولماذا كل هذا الصد والجفاء؟ دعينا نتحدث علّنا نتخطى ما بيننا من معوقات.

- لأن قلبي يؤلمني.. ولا أمتلك القوة للجدال والشجار.

- ومن القائل بأنني عدت من أجل الجدال أو الشجار.. على العكس.. لقد عدت لأن هذا مكاني، ولن أتنازل عنه.. ولكي أؤكد لك حقيقة أننا ليس لنا سوى بعضنا البعض.

وهنا تعمدت أن أنظر في عينيها مباشرة، محاولاً اخترق أفكارها كي أرى صدى حديثي على روحها مستطردًا:

- وأيضًا لأطمئنك أن جثماني يوسف ودينا سيظهران عما قريب.

فنهضت في إشارة لانتهاء الحديث، وقالت في فتور:

- سأكون ممتنة لك إذا ما حدث.

- صدقيني.. مسألة وقت لا أكثر.

قلتها وتوجهت لغسل يديّ بعد أن انتهيت من طعامي، تاركًا إياها مشغولة في رفع الأطباق عن المائدة.

عدت إلى غرفتي يفعمني شعور بالرضا.. فقد نجحت في اجتياز مرحلة مهمة مع راشيل.. فلم يصدمني كثيرًا الجفاء الذي بدا في نبرات صوتها، ولا عيناها اللتان تحاشيتا عينيّ، وكأنهما أفعتان تتسللان لاختراق روحها.. إلى جانب رغبتها الجالية في إنهاء الحديث.. فالأمور تحتاج إلى بعض الوقت حتى تعود لسابق عهدها.. سوف تضعف أمامي قريبًا.. لا ريب.. وتتقبل الأمر الواقع بنفس خانعة، فهذه هي عادتها في كل خلاف.. في البدء يأخذها الكِبْرُ والغرور، ويهيأ لها أنها تستطيع عصيان أوامري، فترفع شعار الثورة والتمرد معلنةً العصيان.. ثم لا تلبث أن تأتي مطأطئة الرأس خاضعة لأمري.

جم ما عليّ فعله هو الصبر والإذعان.. إلى جانب إطفاء لمسة اهتمام بها، كلما واتتني الفرصة بصورة تبدو غير متعمدة، كي لا أزعجها.. فلا أُضَيّق عليها الخناق، فأشعرها وكأنها مطاردة.. متبعًا في ذلك سياسة النفس الطويل.

فأنا إسرائيل العصر.. لن يصمد باب مغلق في وجهي طويلاً.

قضيت ليلتي أطالع الكتاب المقدس حتى استسلمت لخدر النعاس وغبت في سبات عميق.

وفي صباح اليوم التالي قررت عدم الذهاب إلى وسيم.. فقد ترآى لي تركه لتلتهمه نيران التوجس والخوف.

وبالفعل توجهت إلى عملي في موعدي دون تأخير.. وعند مطالعتي للصحف رأيت الإعلان الذي وعدني نعوم بنشره عن الرحلات البحرية المستحدثة في عروض شركة السياحة. مشيرًا إلى أن موعد أول رحلة بعد يومين.

تسربت إلى شفتيّ ابتسامة رضا وقنوع.. فهاتفت نعوم لإبداء إعجابي بالإعلان الذي قَدَّم فيه امتيازات رائعة تجذب السائحين.

فوعدني بمزيد من التألق والتفاني في العمل.. وأبلغني بأنه سيرافق الفوج السياحي ليطمأن بنفسه على جودة الخدمة المقدمة من طاقم العمل، ويختبر رضا العملاء.. فشكرته على تفانيه في العمل وتمنيت له التوفيق.

مر نهاري بسلام، وعندما عدت إلى البيت وجدت راشيل منهمكة في المطبخ فتعمدت عدم إزعاجها. توجهت لأخذ حمامي في صمت، ولكن عند خروجي وجدتها قد أعدت الطعام على المائدة بشكل آلي.

مثّلت لي تلك اللفتة الطيبة من جانبها مفاجأة حقيقية.. فما كنت أتوقع أن تلين بهذه السرعة، وتهتم بإعداد الطعام لي بيديها!!

تناولت غدائي في صمت.. ثم شكرتها، ودلفت إلى غرفتي.

فلن أستغل المبادرة الطيبة تلك في حديث قد يؤدي إلى نتيجة عكسية، مفسدًا التقدم الذي أحرزته في شباكها.. سأمضي في سبيل مخططي مهما كانت المغريات.

*****

الفصل التاسع والعشرون

توجّهت إلى وسيم في صباح اليوم الرابع لخطفه.. فوجدته قد استنفد جل قواه.. وعلى وجهه علامات تشرح باستفاضة إنهاكه الشديد في محاولات بائسة لتحرير نفسه.. فبالكاد تمكن من رفع رأسه، ناظرًا لي نظرة خاوية لا تحمل سوى الإنهاك والاستسلام ثم قال:

- ماذا تنتظر؟! خلصني من هذا العذاب واقتلني.

جلست على مقعدي، ثم قلت بهدوء متعمد لإثارة أعصابه:

- أنا بالفعل أقتلك. ولكنني كذلك لن أحرم نفسي من رؤيتك تتعذب.. أنت عكرت صفو حياتي، فاستحققت العقاب عن جدارة.
هنيئًا لك.

في هذه اللحظة فقد أعصابه تمامًا، واستجمع ما تبقي له من قوة محاولاً الاندفاع نحوي صارخًا في وجهي:

- اقتلني الآن.. الآن.

فقلت بذات النبرة الهادئة دون أن أحرك ساكنًا:

- للأسف مازال أمامك عدة أيام في هذا العذاب.. استثمرها في طلب المغفرة من الرب.

أخذ يصرخ في هستريا أثناء استبدالي الطعام كما اعتدت.. ثم تركته وذهبت، وهو مازال يعوي.

توجهت إلى عملي دون تأخير، وعند وصولي إلى البنك ومطالعتي للصحف رأيت خبر اختفائه. لم أندهش كثيرًا.. فهذا إجراء روتيني لا بد

من حدوثه.. وكنت أتوقعه.. فهو مختفٍ منذ أربعة أيام.. ومؤكد زوجته استبد بها القلق، فرأت أن تنشر صورته في الصحيفة عسى أن يتعرّف عليه أحد ويدلها على مكانه.. وبالطبع أبلغت الشرطة.. ويمكنني بقليل من الخيال رؤية فرق البحث تجوب الآن تل أبيب بحثًا عنه.. ومن الواضح من خلال الخبر أن هناك شكًا في كون حادثة اختفائه تحمل شبهةً جنائيةً.. ونتيجة لذلك سيتم استجواب أي شخص كان على خلاف معه.

ولهذا رأيت ضرورة امتناعي عن زيارته تلك الأيام.. فقد أُوضع تحت المراقبة في أي وقت، دون أن أدري، وذلك لما عُرف من خلاف جمعنا قبل اختفائه.

رتبت أفكاري بهدوء، واطمأن قلبي لخطتي التي أعددتها للأيام القادمة.. ولكن عند عودتي إلى البيت وجدت راشيل تنتظرني. فما إن فتحت الباب ودلفت في هدوء حتى وجدتها أمامي جالسة في الصالة، وكأنها تنتظر قدومي لتطالعني بنظرة تحمل اتهامًا من نوع ما.

ألقيت عليها التحية، ولكنها تجاهلتها، وقالت بلهجة استشعرت فيها نبرة الاتهام:

- هل رأيت وسيم مؤخرًا؟

جلست على المقعد المقابل لها، وزفرت في اشمئزاز ثم قلت:

- لا.. فأنا لا أراه إلا في بيتي.. ومنذ عدت لم يحضر.. ولكن لماذا تسألين؟

فقالت متحاشية النظر نحوي:

- زوجته اتصلت بي اليوم لتسألني إن كنت قد رأيته مؤخرًا.. حيث إنه اختفى منذ أربعة أيام، ولا تعرف عنه شيئًا.. فأخبرتها بأنني لم أره منذ فترة.

ثم استطردت في شك:

- ولكن هل حقًا لم تره مؤخرًا؟

وبالطبع ادعيت البراءة مجيبًا:

- بالطبع.. ولماذا أكذب؟

ظلت تحملق فيّ لثوانٍ عاقدة يديها على صدرها، فعاجلتها أثناء توجهي إلى غرفتي:

- أتمنى ألا تحاولي الحديث معها كثيرًا.. تجنبيها كلما استطعت.

- ولماذا؟!

- لا شيء.. فقط أخشى عليك من أن تجر قدميك في أمور لست مهيأة لها.

- أتقصد الشرطة؟

- وهل أبلغت هي الشرطة؟

- بالطبع.

- وهل توصّلوا إلى شيء؟

- لا.. ليس بعد.. ولكن....

قاطعتها محاولاً إنهاء الحديث قائلاً:

- دعينا من هذا الحديث.. فأنا مجهد، وأريد أن أسترح قليلاً، فاليوم لدي موعد مهم في تمام السادسة، أي بعد ساعة من الآن.

تركتها ودلفت إلى غرفتي، مغلقًا الباب خلفي هربًا من سهام عينيها.

استرحت قليلاً، وأخذت حمامًا باردًا لينعش روحي، ثم انتقيت أفضل ما في خزانتي من ثياب.. وتعطرت بأثمن العطور، وهرعت لألحق بموعدي المهم.. والذي انتهي بموافقتي على الانضمام إلى الحياة السياسية، مانحًا الوعود الصادقة، ببذل قصار جهدي من أجل تقدم بلدي العزيز إسرائيل.. تاركًا في نفس الرجل شعورًا بأن اختياره ليّ كان في محله، وذلك لما لمسه فيّ من حماس يرقى إلى حد التهور في خدمة إسرائيل.

مضى اليومان التاليان في هدوء يشوبه الحذر. وفي اليوم الثالث أجريت اتصالاً هاتفيًّا بنعوم لتهنئته على نجاح الرحلة البحرية الأولى للشركة.. فقد حققت أصداء رائعة في الأوساط السياحية.. لتضع شركتنا في مصاف الشركات المتميزة في إسرائيل.. بل في الشرق الأوسط أجمع.

فعلى الرغم من أن أغلب أفراد الفوج السياحي كانوا من قاطني إسرائيل.. فإن الرحلة حققت نجاحًا باهرًا على الصعيد الدولي لما قدمته الشركة من أداء متميز يرتقي بسمعتها.

أنهيت الاتصال مع نعوم على وعد بلقاء قريب لمناقشة المستجدات والقضايا المالية العالقة بيننا.

وعند الانتهاء من عملي، وعودتي إلى البيت، دلفت دون أن أحدث جلبة، فلم تشعر راشيل بقدومي.

بحثت عنها فوجدتها في غرفتها، تاركة الباب مفتوحًا على غير عادتها منذ يوم الحادث.

تسللت ببطء شديد حتى لا تلحظ وجودي.. واختلست النظر.

فرأيتها قد نزعت ثيابها استعدادًا لاستبدالها.

خفق قلبي لمرآها.. وكأن الروح دبت فيه بعد طول غياب لينبض بالحياة.. وثار بداخلي حنين لماضٍ ليتني لم أنعم به قط في أحضانها.. فأشعلت جوارحي بلهيب الشوق.. وتمنيت لو أذيبها في أحضاني، لنبعث خلقًا آخر يحمل ذات الروح.. تمنيت لو أستطيع لمس جسدها، مستشعرًا حرارتها، ليسري في جسدي دفء يذيب ثلج روحي.. تمنيت لو استنشق عبير نسيمها لتنتعش حواسي بعطرها الفوّاح.. علّنا ننسى للحظات ما مررنا به من أوجاع، ونعود عاشقين بلا أية اعتبارات أخرى.

يا إلهي كم أنا ضعيف أمامها!!.. طوال السنوات المنقضية حاولت ستر ضعفي خلف قناع التجهم وحدة لهجتي.. وطوال السنوات المنقضية كانت هي تفيض بالحنان بغير حساب.

نبّهت نفسي قبل أن تشعر بتواجدي فتراجعت إلى الخلف، وتعمدت إحداث جلبة لتنبيهها بقدومي.. فأسرعت بغلق الباب، وكأنها رأت أفعى خشيت على جسدها العاري من لدغتها.

آلمتني ردة فعلها كثيرًا.. فهبطت بي لأرض الواقع، بعد أن حملني الأمل إلى عنان السماء.

دلفت إلى غرفتي بقلب يئن.. وبداخلي فجوة لن يستطيع أحد ملْأها.. فما منحتني إياه راشيل، والذي أهدرته بغبائي وحماقاتي، لن أنعم به مرة أخرى طوال حياتي البائسة.

استعر الغضب والحنق بداخلي.. فأسرعت بالخروج من البيت هربًا من ضعفي، وقلة حيلتي أمامها.

أخذت أتجول في الطرقات في محاولة بائسة لتبديد ما تضمره جوارحي من طاقة أوشكت على إحراقي بنيرانها.. إلى أن ساقتني قدماي لملهى ليلي تتلوي فيه العاهرات في أداء شبه استعراضي يهدف إلى جذب الأنظار إلى مفاتنهن.. جلست أشاهد العرض شارد الذهن مذهولاً مما أرى.. فهذه أول مرة أطرق فيها باب مكان كهذا. راودتني فكرة لفظ ما بداخلي من عواطف وشغف إلى أية امرأة ممن يعرضن أنفسهن مقابل المال في نزعة درامية الهدف منها معاقبة راشيل.. ولكنني تراجعت.. فمكانتي الاجتماعية لا تسمح لي بمثل هذه الأفعال الصبيانية.. تجرعت كأسين من المشروبات الروحية، علّها تنسيني آلامي، ثم انصرفت مطأطأ الرأس متراخي الأطراف عائدًا إلى الطرقات بعد أن أيقنت ألّا محل لي في دنيا المجون.. لقد تأخرت كثيرًا.. فلو كنت قد أصغيت لنصيحة نعوم في اتخاذ صديقات حميمات أفضي إليهن بما بداخلي من هموم وعواطف ما بت فريسة في يد راشيل تتقاذفها، وتلهو بتعذيبها وقتما تشاء.

أنهكني السير فتنبهت لمضي الليل بأكمله دون أن أدري.. فعدت إلى البيت مع اقتراب بزوغ الفجر بعد أن أضناني الإجهاد.

دلفت إلى غرفتي من فوري.. فغلبني النعاس قبل أن استبدل ثيابي وغبت في سبات عميق، لم ينتشلني منه سوى منبهي الصارم كالموت.

استيقظت بعد ساعتين وآثار الليلة الماضية مازالت عالقة بكامل جسدي، بدءًا من رأسي حتى أخمص قدمي. استبدلت ثيابي في عجالة وقررت التوجه إلى وسيم أولاً قبل العمل.. أظن أنه أسلم الروح.. فقد

مرت عليه ستة أيام في عزلته دون ماء أو غذاء.. ولا أعتقد أنه بالقوة التي تخوله من البقاء على قيد الحياة أكثر من ذلك.

وبالفعل أخذت حيطتي وتنكرت كعادتي قبل الذهاب إليه، وعندما وصلت دلفت إلى غرفة تعذيبه على الفور فوجدته كما توقعت قد أسلم الروح.

لقد دفع ثمن خطاياه واندفاعه.. وهذه الميتة هي ما استحقه عن جدارة.. مكثت بعض الوقت أتأمله ورأسه متدلٍ على صدره في استسلام واضح لقدره، موجهًا إليه حديثي وكأنه ينصت لي:

- أين غطرستك الآن وكبرياؤك؟!.. كم أنت ضعيف وهن لا تملك لنفسك شيئًا؟!.. مت كحيوان أليف لهى به صاحبه حتى قضى نحبه.
فما نالك من تدخلك في شئون الآخرين، وتطفلك سوى الموت!!
هنيئًا لك!!

خرجت من الشقة وأنا أرتب أفكاري في كيفية التخلص من جثمانه بشكل يضمن لي الأمان.. بالطبع كنت قد خططت لهذا الأمر مسبقًا.. ولكن مظهره أربكني وهز ثقتي في قدرتي على التخلص منه بالسهولة التي كنت أتوقعها.. أغلقت الباب مزدردًا ريقي وتوجهت إلى عملي.

بالطبع كان يومًا مجهدًا بدأت صعوبته منذ ليلة أمس، والتي قضيت أغلبها شريدًا في الطرقات، ثم تأكدي اليوم من موت وسيم. وكنتيجة حتمية كنت أعمل بنصف ذهن.. عقلي يسبح في بركة من الأفكار تصب جميعًا في كيفية الترتيب للسويعات القادمة.. فأنا مُصِرّ على التخلص من الجثمان اليوم قبل غد.

أريد إغلاق هذا الباب للأبد.

انتهيت من العمل ورحلت في عجالة عائدًا إلى البيت.. دلفت إلى غرفتي فلحقتني راشيل متسائلة عن الغداء، فأخبرتها كذبًا بأنني تناولت غدائي في العمل.. فانسحبت من الغرفة مغلقة الباب خلفها في هدوء.

انتظرت حتى خيم الظلام، واستقليت سيارتي متوجهًا إلى وسيم. أقصد ما تبقى منه.

ارتقيت الدرج وقلبي ينهشه توتر عظيم.. حتى أوشكت على سماع دقات قلبي من شدة الانفعال.. دلفت إلى الغرفة، وفككت قيوده واضعًا إياه على الأرض.. نزعت عنه كامل ثيابه لأجعله كيوم ولدته أمه، ثم سكبت على جسده بدءًا من وجهه حتى قدميه مادة كيماوية حارقة، كنت قد ابتعتها بهدف طمس ملامحه.. وبالفعل أدت عملها بنجاح باهر.. فقد صار وجهه أقرب إلى قطعة عجين.. وهذا الجزء لا يندرج تحت طائلة الانتقام، ولكنه ضروري لحجب هويته.. فقد تعثر الشرطة على الجثمان أثناء بحثها.

وبعد لحظات خمدت المادة الكيماوية مثبتة كفأتها، فوضعته في زكيبة وأحكمت غلقها، ثم حملته حتى وصلت إلى سيارتي.. وضعته في حقيبة السيارة وانطلقت.

وصلت إلى بقعة مقفهرة كنت قد حددتها مسبقًا، وأخذت أحفر في الأرض بعجالة.. وما إن انتهيت حتى أحضرته من حقيبة السيارة ووضعته في الحفرة التي جاهدت لجعلها تليق بمقامه الرفيع، ثم أهلت التراب عليه وكأن شيئًا لم يكن.

عدت إلى الشقة مرة أخرى لأتخلص من ثيابي قبل العودة إلى البيت.. فأنا لا أسعى لإثارة الريبة في نفس راشيل إذا ما رأت الغبار الذي علق بثيابي أثناء الحفر.. وبالفعل أخذت حمامًا واستبدلت ثيابي بثياب نظيفة كنت قد أحضرتها معي، ثم سكبت عليها الكيروسين مضيفًا إليها ثياب وسيم وأشعلت النيران بها.

أنهيت مهمتي وعدت إلى البيت ولحسن الحظ كانت راشيل نائمة.. دلفت إلى غرفتي، وغصت في فراشي لأغيب في سبات عميق خالٍ من الكوابيس.. فعقلي كان قد استنفد كامل طاقته طوال اليوم حتى عجز عن أيجاد ما يمكنه تقديمه على شاشة العرض الليلية خاصتي..

*****

الفصل الثلاثون

وفي اليوم التالي بعد انتهاء العمل ذهبت لمقابلة نعوم في مكتب الصرافة.. هلل فرحًا لرؤيتي وسألني عن حالي، وحال راشيل، فأجبته باقتضاب متطرقًا إلى الموضوع الذي جئت من أجله بشكل مباشر:

- ما أخبار الرحلة البحرية القادمة؟ هل أعلنت عنها؟

- لا ليس بعد.. أهناك اقتراح تريد طرحه؟

- نعم.. في إعلان الرحلة القادمة أعلن أنها للشباب من الفتيان والفتيات، ويستحسن أن يكونوا في حالة ارتباط.

نظر لي في عدم فهم ثم تساءل متحيرًا:

- ولماذا؟ هذا قد يأخذ منا بعض الوقت في جمع العدد المطلوب.. فتتأخر الرحلة القادمة عن موعدها المحدد.

هززت رأسي متفهمًا وقالت:

- وإن يكن.. نريد أن نقدم رؤية مختلفة عن سائر الشركات السياحية الأخرى لتحقيق الأسبقية والتميز.. ولا تقلق مجرد فكرة أنها للشباب فقط ستجذب العديد والعديد من الشباب، إضافة إلى البرنامج الترفيهي المتميز الذي ستنشر تفاصيله في الإعلان.

ثم ابتسمت مكملاً في خبث:

- وأنت خير العالمين.. الشباب يفضلون التواجد في تجمعات مغلقة بمنأى عن الكهول الذين قد يحسدونهم على شبابهم وحيويتهم..

ثم ربتت على راحته لأطمئنه مستطردًا:

- اطمأن ستحقق هذه الرحلة رواجًا عظيمًا.. وسمعة طيبة.

اعتلت وجه ابتسامة رضا ممزوجة بالدهشة.. وأشار إلى رأسي قائلاً:

- مؤكد هناك شيطان يسكن تلك الرأس يمدها بالأفكار الرائعة.

فضحكنا كثيرًا، واتفقنا على أن يتم الإعلان عن تلك الرحلة في أسرع وقت.

انصرفت من عند نعوم متوجهًا إلى الشقة للقضاء على آثار الفوضى المتبقية أثر ليلة أمس وما قبلها.

ثم اتصلت بالمالك، وسلمتها له بدعوى سفري المفاجئ.. فدورها قد انتهى في تلك القصة.

*****

الفصل الحادي والثلاثون

توالت الأيام دون شيء يذكر.. إلى أن اتصل بي نعوم ليبلغني بالنجاح الباهر الذي حققه الإعلان، وكثرة إقبال الشباب الذين استحسنوا الفكرة.. ثم أعلمني بموعد الرحلة، والتي كانت بعد عدة أيام.

فقلت له راجيًا:

- اسمح لي يا نعوم بالتواجد على متن تلك الرحلة.

صمت قليلاً لا يجد ما يقوله، ثم قال بكثير من العاثر:

- كما تشاء.. ولكن أنت تعلم أن تلك الرحلة متوجهة إلى ذات الشاطئ الذي غرق فيه يوسف ودينا.. فهل ستتحمل ذلك؟

لهذا السبب أريد الذهاب.. فقلبي يدعوني لزيارتها.. وسوف استقل قارب النجاة المرفق باليخت للبحث عنهما بصورة جلية.. فهذه الرحلة تمثل لي الأمل الأخير في العثور عليهما.

ثم استطردت متسائلاً:

- ولكن.. مَنْ قبطان اليخت؟

- القبطان ليشع.. وهو من أكفأ العاملين بالشركة.. وقد وقع عليه الاختيار لكفاءته.

- حسنًا.. ادعُ لي بالتوفيق.

- وفقك الرب.

بالطبع نعوم ازدرد حديثي الذي تناول البحث عن جثماني يوسف ودينا بكثير من العاثر، عاجزًا عن استساغة الفكرة.. فإن كان مقدرًا لهما الظهور

فسيظهران، وعندها سيلحظهما أمن الشاطئ.. ولذلك فليس ثمة داع لاستقلالي قارب النجاة باحثًا عنهما.. ولكنه آثر الصمت حتى لا يجرح مشاعري عند مواجهته لي بالحقيقة.

ولكن هذا لا يعنيني الآن.. فتقبله لحديثي من عدمه لن يؤثر كثيرًا في مخططي، فأنا ماضٍ في طريقي بخطى حثيثة ولكنها واثقة.. وبذلك أغلقت الهاتف، يتملكني شعور بالرضا.. فقد اقتربت كثيرًا من أهدافي.. وما هي إلا أيام معدودات وأتمم وعدي ليوسف وراشيل..

لقد تلمست عاصفة أيامي طريقها نحو الهدوء، والأمور في اتجاهها الصحيح نحو المزيد من الاستقرار.. وبالتزامن مع سطوع نجمي في سماء إسرائيل يسطع نجم إسرائيل ذاتها في سماء العالم، ليضافا إلى سماء دنيانا.. فقد توالت النجاحات لكلينا على الصعيدين السياسي والاقتصادي.

الآن لم يتبقَ إلا أن أضع خطة محكمة لإدارة يوم الحادث متوخيًا جل ما أملكه من حذر وحيطة.. حيث إنه سيكون حادثًا مروعًا سيزلزل إسرائيل كافة.. ولا بد وأن يظهر في صورة الحادث الأليم لينتهي بالمجتمع الإسرائيلي عند حدود الشفقة والألم.. دون الالتفات إلى إمكانية كونه جريمة قتل جماعية.

وهذا سيتطلب الكثير من التركيز لاجتياز ذلك اليوم آمنًا مطمئنًا.. وبذلك فثمة سؤالان يجولان بخاطري الآن، إن توصلت إلى إجابتهما ستكون الخطة قد اكتملت؛ وهما: كيف سأغرق اليخت بشكل لا يتعدى حدود الحادث المؤسف؟

وكيف سأبرر للمجتمع نجاتي من الحادث على الرغم من تواجد اسمي ضمن أفراد الفوج، إلى جانب تجنب إثارة الريبة في شخصي؟

سؤالان يساويان الكثير.. ما يقرب من حياتي ذاتها.. فأي إخفاق سيفتح الدفاتر القديمة، وألف سؤال سيوجّه نحوي.. وعندئذ ستشهر كل الأنصال أمامي.. تتقدمها راشيل.

ولكني نجحت في إتمام الخطوة الأولى، والتي تتمثل في إبعاد نعوم عن تلك الرحلة، حتى لا يمسه الضر عن طريق إقناعي له برغبتي في زيارة يوسف ودينا في المكان الذي فقدتهما فيه، إلى جانب محاولتي للبحث عنهما على نطاق أوسع مستخدمًا قارب النجاة.

وهذه أول نقطة في صالحي ستبرر موقفي عند وقوع الحادث.

ففي حالة توجّه أصابع الشك نحوي سيكون دفاعي أنني انفصلت عن الجمع للبحث عن جثماني طفليّ.. وحينها سيتسم حديثي بالمنطقية، مما سيبرر نجاتي منفردًا من الحادث.

وبهذا أعتقد أنني أجبت توًا عن السؤال الثاني.

ما تبقى الآن سوى السؤال الأول.. وأعتقد أنه الأصعب والأكثر تعقيدًا..

كيف سأغرق اليخت؟!!!!!

علامة استفهام كبيرة تلوح في الأفق يجب عليّ إدراكها. وبالطبع لا يعتريني الشك للحظات في قدرتي على اجتياز تلك المعضلة.. فأنا إسرائيل العصر.. لن يستعصي على رغباتي باب مغلق.. السماء تدعمني، وبقوة.. فمن ذا الذي يدركني!!!

النيران.....

لمعت الفكرة في ذهني فجأة.. وكأنها إلهام هبط فوقي من السماء كما هبطت تفاحة نيوتن.

حقا ليس هناك ما هو أفضل من النيران.. سأتعمد إضرام النيران في اليخت بشكل يبدو غير مدبر.. فمثلاً يظهر على أنه ماس كهربي، حدث في غرفة المحرك، والتي تقبع بطبيعة الحال في أسفل نقطة من اليخت، مما سيؤخر استشعار الجميع بالنيران.

وسوف تمضي الأحداث كالآتي: بعد مرور بعض الوقت أراه مناسبًا، ووصول اليخت إلى بقعة بعيدة في عرض البحر، سأستأذن القبطان لاستقلال زورق النجاة والابتعاد به للبحث عن جثماني طفلي الغارقين.. وبالطبع لن يمانع، فنعوم سيكون قد أعلمه برغبتي مسبقًا.. وقبل هذا سأكون قد عملت على إخفاء بزة الغطس التي أحضرتها معي في زورق النجاة خلسة.

وعند ابتعادي عنهم مستخدمًا زورق النجاة سأرتديها عائدًا إلى اليخت غوصًا أسفل سطح البحر حتى لا يراني أحد من الشباب.. ثم أتسلل إلى غرفة المحرك محدثًا ماسًا كهربيًّا يؤدي بالتبعية إلى إضرام النيران، مما سيعمل على إتلاف المحرك بشكل سريع قبل أن يشعر به أحد من القيادة.. وعندما يدركونه يكون قد التهم بالفعل جزءًا لا بأس به من اليخت لا يسمح بتداركه.. ويؤدي بصورة حتمية إلى إغراقه.

وفي تلك اللحظة سوف يبحثون عن زورق النجاة، الذي سأكون قد استقليته مبتعدًا.. وبالطبع لن يفوتني إتلاف جهاز اللاسلكي قبل ترك

اليخت.. وبالتالي لن يجد الشباب مفرًا من القفز إلى المياه. وحينها لن يتمكن من النجاة سوى من يجيد السباحة.. وأعتقد أن عددًا لا بأس به يجهلها.

وحينها سينجو فقط من لا يرغب الرب في دمائه.. أما الدماء التي اختارها الرب فسيؤول بها المآل إلى قاع البحر.

وبالنسبة لي فسأختفي بالزورق حتى هبوط الليل، مستندًا إلى الحجة ذاتها.. وهذا سيبرر عدم إبلاغي عن الحادث لإرسال العون.

اتضحت الخطة أمامي مكتملة الأركان.. وأعتقد أنني نجحت في سد جميع ثغراتها.

***

الفصل الثاني والثلاثون

ما تبقى على موعد الرحلة سوى يومين.. ولذلك رأيت وجوب إبلاغ راشيل بأمرها.. توجهت عابس الوجه إلى غرفتها طارقًا الباب الذي يقف عاصيًا، ليحول بيننا في عناد.. فتحت الباب بعد لحظات وطلّت من فرجته لتمنعني من الولوج، وفي عينها نظرة متسائلة عن كنه السبب الذي أتى بي إلى صومعتها فبادرت بالحديث بنبرة تطفو عليها الجدية قائلاً:

- أردت فقط أن أعلمك بأنني سأشارك بعد يومين في رحلة بحرية، تقوم بها شركة السياحة التي يمتلكها نعوم، متوجهًا إلى ذات الشاطئ الذي غرق فيه يوسف ودينا، للبحث عنهما بشكل أفضل.

ابتسمت بمرارة وأشاحت بوجهها بعيدًا ثم قالت:

- لقد مر ما ينيف عن الشهر ولم يظهرا.. فكيف لي الأمل بظهورهما الآن.

أخذت نفسًا عميقًا ثم قلت:

- ادع الرب.. سيقف بجانبنا.

لمعت عبرة في مقلتيها، وقالت بخفوت متحاشية النظر في عينيّ:

- يا رب...

وبهذه الكلمات القليلة انتهى الحوار الذي لم يدم سوى دقيقتين.

وفي صباح اليوم التالي رن منبهي الصارم كعادته، لينتزعني من غياهب النوم، معجلاً بتلف أعصابي التي شارفت بدورها على الانهيار..

استيقظت مندهشًا.. فتوجهت لآخذ حمامًا باردًا يزيل آثار ليلة حارة نزفت خلالها الكثير من ترطيب جسدي.. ولكن أثناء تواجدي بالحمام رن جرس الباب.

بالطبع أصابتني الدهشة، وسرت في جسدي رجفة لا أدري سببها.. قلبي حدثني بأن ثمة خطبًا ما ينذر بالخطر.. فمن عساه يحضر في تلك الساعة إلا إن كان يحمل أمرًا جللاً..

سمعت صوت الباب يفتح.. فجففت جسدي وارتديت لباس الاستحمام وخرجت لأرى من هناك.

فوجدت راشيل تتحدث إلى أحد رجال الشرطة.. وما إن رآني حتى أنهى حواره معها وتوجه نحوي بالحديث متسائلاً:

- السيد بنيامين شمعون؟

- نعم.. أنا هو..

- أرجو أن ترتدي ثيابك وتتفضل معنا إلى المخفر.

ادعيت عدم الفهم، راسمًا على وجهي إمارات الاندهاش ممزوجة بالاستنكار ثم قلت:

- ولماذا؟!

فقال بلهجة عملية محاولاً إنهاء الجدال:

- هناك استدعاء رسمي لك.

نظرت إليه، ثم إلى راشيل والتي بدا على وجهها آيات الفهم، ثم قلت:

- انتظرني لحظات حتى أرتدي ثيابي، وأجري اتصالاً هاتفيًّا بزملائي في العمل لإبلاغهم بتأخري.

فأشار لي براحته ولسان حاله "خذ وقتك".

دلفت إلى غرفتي وفكري يعمل بسرعة تعادل سرعة الضوء، مستعيدًا ما كنت قد عزمت على الإدلاء به إذا ما مررت بذلك الموقف.

فلم يغب عن ظني فرضية استدعاء الشرطة لي إن تحدثت زوجة وسيم عن الخلاف الذي كان يجمعني بوسيم قبل اختفائه.. وكنتيجة حتمية لذلك، فإن الشرطة لن تتوانى في استدعائي لأخذ أقوالي في اتهام سارة الموجه ليّ.

ولذلك كنت قد أعددت نفسي لمواجهة تلك اللحظة بثبات.

ارتديت ثيابي في عجالة، ثم هاتفت مدير مكتبي بالبنك لإخباره بتأخري اليوم مع فرضية عدم حضوري. مما دفعه للتساؤل قلقًا عن السبب، فاختلقت له عذرًا مزيفًا.. فبالطبع لن أنثر الغبار حولي وأخبره باستدعائي من جانب الشرطة لاتهامي بجريمة قتل!

وبالفعل توجهت في هدوء مع الشرطي إلى المخفر.. وما إن وصلت حتى أدخلني إلى المحقق من فوري.

فطالعني رجل في العقد الخامس، يتمتع بحضور طاغٍ إلى جانب عينين ثاقبتين تبثان الريبة في النفس، حتى لتدفعك للاعتراف بكل أريحية بسرقتك للنار من جبال الأوليمب حتى تهديها للبشر..

إلا أنه على الرغم من ذلك قابلني بلطف شديد، معتذرًا عن استدعائي بتلك الطريقة الفظة.

فما إن أنتبه لدخولي إلى مكتبه حتى هبّ واقفًا ليصافحني، قال وعلى وجهه ابتسامة تحمل الود:

- نأسف على استدعائك بتلك الطريقة.. ولكنه القانون.

- لا عليك.. ولكن اسمح لي بمعرفة سبب هذا الاستدعاء.

أشار لي أن أستريح، فجلست وجلس بدوره ثم قال:

- لا تتعجل.. قل لي ماذا تشرب أولاً؟

- لا شكرًا.

ضغط على الجرس فأتى فرد من الأمن فقال موجهًا حديثه إليه:

- قدحين من القهوة لو سمحت..

ثم نظر لي مستفهمًا عن نوعها فأجبته:

- مضبوطة.

أشار إليه أن انصرف ثم اعتدل في جلسته، وصمت لدقائق متعمدًا اللعب على أعصابي، مطالعًا لوثائق احتلت سطح مكتبه، مدعيًا انشغاله بمتابعة أمر ما حتى أتت القهوة، وُضعت أمامي قهوتي فأشار لي أن تفضل، ثم استدرك وعيناه تتحسسان طريقها إلى روحي قائلاً:

- هل علمت باختفاء وسيم عيزرا؟

فأجبت بمنتهي الثبات..

- نعم.. علمت بهذا الأمر من راشيل زوجتي.

- وما علاقة زوجتك به؟

تنهدت في تألم مجيبًا:

- منذ ما ينيف عن الشهر كنت أنا وأسرتي في رحلة تتبع مدرسة الأولاد إلى الشاطئ، وللأسف اختفى يوسف ودينا طفلاي.. وأثناء هذا الحادث تعرفنا إلى وسيم وزوجته سارة، حيث إنهما تطوعا لمساعدتنا في البحث عنهما.. ومن يومها وهما صديقان لزوجتي.. يزورانها باستمرار.

- وما علاقتك أنت بهما؟

مططت شفتي في استهتار ثم قلت:

- ليس هناك الكثير.. فقط كنت ممتنًا لمساعدتهما لنا في أزمتنا.. ولكنهما ظلا أصدقاء لراشيل زوجتي فقط.

صمت حينًا محملقًا فيّ محاولاً الضغط على أعصابي ثم قال:

- عند سؤال السيدة سارة عن ثمة خلاف كان يجمع زوجها بشخص ما، كانت الإجابة أنه شخص مسالم يحترمه الجميع وليس له أية عداوات.. عداك.

وقال كلمته الأخيرة ضاغطًا على حروفها، متعمدًا إثارة الوجل في نفسي، ولكنني بالطبع كنت في كامل ثباتي النفسي، وكأنني شخصٌ آخر لا يمت لقاتل وسيم بصلة.

فرسمت على وجهي الاندهاش مصحوبًا بالاستنكار الشديد وتساءلت:

- عداي؟!!.. ماذا تعني بذلك؟

- أعني أنها اتهمتك بشكل رسمي بكونك المتسبب في اختفاء زوجها.

انتفضت واقفًا، وقلت باستنكار أبدعت في إتقانه:

- ماذا تقول؟!!

فقال مقتحمًا دفاعي بعد أن أشار لي بالجلوس:

- هل تنكر أنك كنت على خلاف معه قبل اختفائه؟

جلست استجابة لرغبته ثم قلت بانفعال:

- لا.. لن أنكر.

- إذن ما السبب وراء هذا الخلاف؟

- لقد لاحظت اهتمامه المبالغ فيه بزوجتي، ولكنني كنت أقول لنفسي، لا بأس فعاطفة الشفقة هي ما تدفعه للاهتمام بها، إلى أن وجدته في بيتنا لزيارتها وحده دون زوجته عدة مرات في ظل غيابي وكأنه يتعمد مقابلتها منفردًا.

- إذن أنت تشك في أن ثمة علاقة تجمعه بزوجتك؟

- لا أبدًا.. فأنا أثق في زوجتي تمام الثقة.. ولكن خلافي كان بسبب خشيتي من أن تصير سيرتنا مضغة في أفواه الجيران الذين، يرونه يتردد عليها أثناء غيابي.

- ألم تحدث مشادات كلامية بينكما أكثر من مرة في منزلك؟

أومأت برأسي مؤكدًا وقلت:

- نعم حدث هذا.. ولكن لذات السبب الذي ذكرته لك مسبقًا.

اعتدل في جلسته ليستند إلى مقعده الوثير في استرخاء، ثم واصل استجوابه قائلاً:

- متى أخر مرة رأيته؟

فقلت بنبرة هادئة متمالكًا أعصابي:

- يوم المشادات التي حدثت بيننا، أي ما يقرب من الأسبوعين.

ثم استطردت بلهجة واثقة:

- لو كل شخص حدثت بينه وبين شخص آخر مشادات كلامية ينتج عنها اختفاء أحدهما.. ما تبقى أحد. ألا تتفق معي؟!

لاح شبح ابتسامة ماكرة على ثغره ثم قال:

- يمكنك الانصراف الآن.. ولكن بالطبع سيتم استدعاؤك مرة أخرى.. نرجو ألا نسبب لك إزعاجًا.

وقفت عاقدًا أزرار بزتي مستعدًا للانصراف وقلت:

- أي وقت.. فأنا رهن إشارة العدالة.

ثم ابتسمت محييًا وانصرفت.

وعندما خرجت من المخفر تنفست الصعداء.

لقد أعددت نفسي مسبقًا لهذا الموقف.. وكنت قررت البوح بالحقيقة إذا ما سُئلت عن خلافي معه.. فمؤكد هو قص لزوجته ما كان بيننا، كما أنهم قد يستدعون راشيل لسؤالها، وبالطبع ستدلي بالحقيقة كاملة.. فأنا لا أملك ترف ظن إنكارها لما حدث ابتغاء صالحي.

ولكنني متأكد من أن الأمر لن يتجاوز حد الاستجواب.. حيث إنني لم أترك طرف خيط خلفي تتتبعني من خلاله الشرطة.

فلن يتعدي الأمر حدود الشك، حتى وإن عثروا على جثمانه فلن يستطيعوا التأكد من هويته، حيث إنني طمست كامل ملامحه.. حتى إن زوجته نفسها لن تستطيع الجزم بحقيقة كون الجثمان يخصه من عدمه.

ولذلك فإن جم المطلوب مني هو ضبط النفس، والتحكم في انفعالاتي لا أكثر.. ومكانتي الاجتماعية ستتكفل بباقي الأمر.. فأنا الآن أعد نفسي لاجتياز الحياة السياسية بناء على توجيهات عُليا ومن ثم الالتحاق بالكنيست.. وهذا الأمر جلي الآن في إسرائيل. ولذلك فأنا الآن أتمتع بمكانة اجتماعية مرموقة تحول بيني وبين اتهام كهذا لدى أشد المحققين صرامة.

عرجت على عملي فأتاني مدير مكتبي ليطمأن عليّ، فطمأنته وانصرف بعد أن أعلمته بغيابي غدًا لأمر مهم.

وبعد انتهاء العمل عدت إلى البيت، فوجدت راشيل في غرفتها. دلفت إلى غرفتي على الفور، متجاهلاً إياها على الرغم من تأكدي من تحرقها فضولاً لمعرفة ما تم معي في المخفر.. ولكن فضولها دفعها نحو غرفتي لتسألني عما حدث.. وهنا لاحظت أن عينيها صبغتا بلون الدماء، مما يدل على أنها قضت وقتًا لا بأس به في البكاء والنحيب.. تجنبت سؤالها عن حالها حتى لا استدرجها لحديث لن يفضي بالنفع على كلينا..

أجبتها أثناء استبدالي ثيابي متعمدًا إشاحة نظري عنها.

- لقد قصّت سارة عليهم ما حدث بيني وبين وسيم من خلاف قبل اختفائه.. ولذلك كان لا بد من استدعائي لأخذ أقوالي.. فقصصت عليهم ما كان بيننا يومها.. وأنكرت رؤيته منذ ذلك الحين.

لم تعلق كأنها كانت تتوقع ما قد حدث ثم قالت بخفوت:

- هل أحضّر الغداء؟
- نعم.. فأنا مجهد وجائع.

انصرفت من أمامي دون تعليق لتحضير الغداء، وبعد عدة دقائق دعتني عائدة إلى غرفتها.

جلست لتناول غدائي وحيدًا.. يشغل بالي ما قد يدور في ذهن راشيل في هذا الحين.

ثم تطرق فكري إلى يوم غد.. اليوم الموعود.

ما بقي أمامي سوى سُويعات قليلة للمضي قدمًا في سبيل تقديم فدية جثماني طفليّ..

كم أشتاق لرؤيتهما، حتى وإن أمسيا جثمانين. وإبان انشغال خلدي رن جرس الهاتف، فأتت راشيل للرد.. سمعتها ترحب بالمتصل، ثم توجهت نحوي بالقول:

- بنيامين تعال.. نعوم يريد تبشيرك بخبر سعيد.

نهضت للرد ناظرًا لها في تساؤل، لم تجب عليه وانصرفت..

- أهلاً يا نعوم.. كيف حالك؟

فأجابني بصوت تنبعث منه ترددات السعادة:

- لقد وضعت خولة طفلنا اليوم يا بنيامين.. أحدثك وأنا أحتضنه بين ذراعي.

- مبارك يا نعوم.

فأكمل دون أن ينتظر لسماعي، وكأنه يحدث نفسه من شدة السعادة:

- لم أر في حياتي طفلاً بهذا القدر من الجمال.. يضاهي البدر في بهائه.. لن أتركه ما حييت.. لن أتخلى عنه يا بنيامين.. ولا عن أمه.. سنظل معًا إلى الأبد..

مكثت أنصت إليه في صمت تقديرًا لعواطفه في تلك اللحظة.. فهو للمرة الأولى في حياته التي ملأها المجون يختبر عواطف الأبوة..

وما إن أنهى حديثه حتى قلت مبتسمًا:

- سنناقش أمر والدته فيما بعد يا نعوم.. لا تتعجل.

فعاجلني قائلاً:

- لن يكون هناك نقاش.. لن أتخلى عنها يا بنيامين.. سنسافر سويًّا خارج إسرائيل لنربي ابننا بعيدًا عن الصراع.

قالها وسمعته يقبل الطفل في نهم، وكأنه أشرف على التهامه.

فقلت منبهًا إياه بوجودي على الخط الذي أظنه قد أغفله..

- سأدعك تنعم بسعادتك به دون أن أعكر صفوها.. أتمنى لك المزيد من السعادة.

- سوف تراه بالتأكيد عقب عودتك من الرحلة لتعلم أن معي كل الحق فيما قررته.

- بالطبع.. ولكن أدعو لي الرب أن أتم ما عزمت عليه غدًا.
- أتمنى لك كل التوفيق.

أنهيت مكالمتي، ثم عدت لاستكمال طعامي.

انتهيت من الغداء، وعدت إلى غرفتي للاختلاء بنفسي حتى صباح الغد.. واستعنت على قضاء وقتي بمطالعة التوراة.. إلى أن غلبني النوم.

تنبهت من نومي باكرًا يتملكني شعور بالإرهاق، وكأنني لم أنم دقيقة واحدة.. فقد كان نومي متقطعًا يتخلله الكثير من الكوابيس.. فتارة أرى وسيم يقف في مكان مرتفع يرمقني بنظرة ساخرة، وكأنه يهزأ بي.. وتارة أخرى أرى يوسف يرمقني بنظرة تحمل الكثير من الامتنان، وكأنه يثني على جهدي للعثور عليه.. أما الحلم الذي استغرق معظم الليل، واستنفد جم طاقتي، هو أنني رأيت نفسي على متن الرحلة أكابد الكثير من العناء، كي أتمكن من تنفيذ خطتي.. وما إن أتممتها حتى وجدت نفسي أقف على الشاطئ أرنو إلى الجثامين الطافية فوق سطح المياه، في مشهد مهيب يقشعر لهوله الولدان، فارتجف قلبي، وضعفت نفسي.. وهنا رأيت جثماني يوسف ودينا يطفوان وسط الأجساد الأخرى، وكأنهما ثمرتان لشجرة الموت.. فاعتلت وجهي ابتسامة نصر، وطابت نفسي لمرآهما، متناسيًا هول المشهد.. وما أقدمت يداي على فعله من سلب لهبة الحياة.. محتسبًا تلك الدماء الذكية قربانًا للإله الواحد القهار، راجيًا تقبله لهما.

كم أتمنى أن يمر هذا اليوم بسلام كما خططت له.. كم أتمنى العثور على يوسف ودينا.. عل حياتي تستقر.. وتعود لي راشيل عاشقة كما كانت دومًا.

دلفت إلى دورة المياه لآخذ حمامًا باردًا، وأثناء عودتي إلى غرفتي رأيت صحف اليوم أسفل الباب.. تناولتها لمطالعتها على عجل قبل أن أستعد للخروج.. تصفحتها عائدًا إلى غرفتي فوقعت عيناي على خبر زلزل كياني وأدمى قلبي.

فقد وقعت عيناي على خبر مصرع نعوم في صفحة الحوادث.

تخلت قدماي عن جسدي، فارتميت على الفراش مصدومًا، لتسقط الصحيفة من يدي.. ظللت مشدوها بعض الوقت، عقلي يأبى تقبل فكرة التأكد من الخبر.

مكثت بضع دقائق على هذا الحال حتى تمكنت من تمالك أعصابي وتناولت الصحيفة مرة أخرى.

حقًا الخبر صحيح.

لقد أُغتيل نعوم.

والخبر مفاده أنه تعرض للاغتيال هو وعشيقته خولة من قبل قوى الإرهاب العربية، وقد شهدت غرفتهما في الفندق الذي يقيمان به مصرعهما على يد أحد الإرهابيين العرب، يصحبه آخر، واللذين اخترقا النظام الأمني.. وقد أكد الطب الشرعي وفاة رضيعهما عقب الولادة بعدة دقائق أثر أزمة تنفس قبل الهجوم مباشرة، وبذلك فقد قضى الثلاثة نحبهم، مخلفين زخمًا من التساؤلات خلفهم.. وقد تم القبض على منفذيّ الهجوم اللذين اعترفا بقتلهما لهما انتقامًا لشرفهم– على حد قولهما – الذي دنسه المجني عليه.. حيث اتضح أن المجني عليها (خولة) شقيقتهما.

قرأت الخبر بعينين دامعتين، وكأنني أرى الحادث أمامي.. تذكرت فرحة نعوم أمس وتلهفه على ولده، الذي لم يلبث أن ينعم به.

الأمور اتضحت في نظري.. لقد علم أهل خولة بمكانها.. وعلموا مع من هربت.. فأتوا للانتقام.. وغسل عارهم كما يقولون.

هذا ما كنت أخشاه.. وحذرته منه كثيرًا، لقد قتل قبل الوفاء بوعده لخولة، الذي قرر الوفاء به أمس فقط.

ليته ظل في باريس ولم يعد، أو أنه استمع لتحذيراتي وابتعد عنها.. ولكن قلبي يأبى القسوة عليه، فقد كان يعشقها بحق.. ليس هناك رجل يتحمل ما قد تحمله إلّا إن كان عاشقًا.

ولكن.. من لي الآن؟!!

لم يتبق لي أحد بعد فقدي لنعوم.

أنا الآن وحيد تمامًا كآدم يوم خُلق.

مشاعري مضطربة.. عقلي يأبى التصديق.. عيناي ينهمر منهما شلالٌ من الدمع.. وكأن ظهري قد كُسر.

وددت لو ارتميت في أحضان راشيل باكيًا حتى يجف الدمع من مقلتيّ.. ولكن هذا ترف لا يحق لي تمنيه.

تمنيت لو أن هناك آلة زمن تعود بي إلى أيام الإسكندرية.. فلو أن هناك شيئًا كهذا، لدفعت فيه عمري بأكمله الآن.

أظلمت الدنيا في عيني.. فلا أدري ما عليّ فعله.

هل أمضي في طريقي الذي قُدّر ليّ؟ أم أصطحب راشيل وأهاجر من إسرائيل إلى أي مكان آخر، لا يحمل لي ذكريات مضنية؟!!

*****

□

بقلم راشيل...

الفصل الثالث والثلاثون

أنا راشيل يوحنا.. للولهة الأولى ستظن أنك تعرفني حق المعرفة.. ولكن اسمح لي.. هذا غير حقيقي، فمن تعرفها هي راشيل التي تقبع في مخيلة بنيامين.

ولذلك دعني أعرفك بنفسي بصورة أوضح، مزيلة للغبار الذي علق بصورتي في ذهنك.. أنا راشيل التي رآها بنيامين في حفل زفاف أحد أصدقائه، وأعجب بها على حد قوله.

في ذلك اليوم لاحظت نظراته تلاحقني، فتملكني خجل شديد.. حاولت تجاهله والابتعاد قدر الإمكان عن مرمي ناظريه، ولكنه كان يطاردني بنظراته كقناص ماهر.

وفي اليوم التالي للحفل جاء أبي ليخبرني بمقابلته لبنيامين، وما دار فيها من شرحه لظروف نشأته القاسية، وما أجرعته الحياة إياه من مرارة وآلام، منتهيًا بالثناء على أخلاقي وحسن تربيتي، مما دفعه للتقدم لطلب يدي للزواج.. وعند انتهاء أبي من سرده سألني عن رأيي في أمر الزواج من بنيامين.. فأجبته دون تردد بأنني أوافق على طلبه.

فأثناء سرد أبي لمعاناة بنيامين فاض بداخلي نهر جارف من الحنان والشفقة تجاهه.. فتصورته في صورة طفل لم يتذوق نعمة العطف أو الحنان طوال حياته البائسة يبحث عن أم، فتطوعت أنا لأكون تلك الأم.. وحينها شعرت بأن الرب أرسلني إلى سبيله لأعوضه عمّا فاته.

ستتعجب مما أقول.. نعم أعلم أن حديثي يتسم بالغرابة، ولكن هذا ما شعرت به حينها.. فقد رأيت أن الحياة سلبته حقًا أصيلاً بفقده لحنان أبويه باكرًا، وأنا من سأعوضه إياه.

فقد نشأت نشأة سوية في أحضان أبي وأمي اللذين أغدقا عليّ بحنانهما منذ ولادتي وإلى الآن.. وعلّماني كيف أحنو على الجميع.. ولذلك كنت بمثابة أمٍّ ثانية لإخواني وأخواتي الصغار.

ولكن ما إن تعجلت بالموافقة حتى فاجأني أبي بتحذير لم أعيه في حينها.. فقد استشف من خلال حديثه معه تمتعه بنرجسية عالية إلى جانب أَنَوِيَّةٍ مبالغ فيها.. ولذلك قال لي:

- يا بنيتي هو دائم ترديد لفظة "أنا"، وهذا إن دل على شيء فيدل على أنه لا يرى سوى نفسه.. ناكرًا جميل كل من سانده حتى صار رجلاً.

وأردف مفسرًا:

- وقد يكون هذا نتيجة لكثرة ما أُخذ منه فتعلم ألا يعطي.. ولذلك أخشى عليك كثيرًا.. نصيحتي لك بنيتي.. تمهلي في التفكير قبل أن نبلغه بالرد.

ولكنني أصررت على موقفي، فقد رأيت حينها في قبولي له عملاً بطوليًّا سأتوج به في عين الرب.

وبالفعل تمت الزيجة في عجلة كما أشار.. وكنت أعلم أنه يستحسن مرآه في مرآته.. ويرى أنني أدنى منه في منزلة الحسن، ولكن هذا لم يثر حنقي كثيرًا.. فقد كنت أرى فيه طفلاً مشاغبًا، يعشق ذاته حد الجنون، ولا يمل الثناء عليها.. فلا بأس إن كان لا يضيرني.. وكان يعشق الطاعة من

جانبي، ولذلك منحتها له بكثافة حد الغباء.. فكنت زوجة مطيعة خانعة.. لا لضعفي كما كان يظن وإنما لحبي وعطفي عليه، ولوعدي الذي قطعته على نفسي بعدم إغضابي إياه أو تحديه مهما حدث.

مر عامنا الأول مغلفين بشرنقة حريرية، وكان يوسف ثمرة عشقنا. فولد كالبدر في تمامه.

ولكن هناك دائمًا نهاية..

والنهاية أتت على عجل بعد انقضاء العام الأول من زواجنا عندما أخبرني بقرار الهجرة إلى إسرائيل.. وقتها شعرت أن هناك خنجرًا طعنت به حياتنا الهادئة، وأن الغد سيحمل لنا الكثير من العواصف والأعاصير.

وقد كنت على حق.

فبعد محاولاتي البائسة لاستمالته حتى يعدل عن قراره، والتي باءت جميعها بالفشل، أبلغت والديّ بهجرتنا، فانزعجا كثيرًا، ووجم أبي ثم قال بامتعاض شديد، وكأنه يرى الغيب:

- أنا قلق جدًا عليكِ يا بنيتي.. أرجو أن يخيب ظني ويدخر الدهر لك السعادة والهناء.

وأخيرًا تقبلا أمر رحيلي عنهما بحزن دفين، معلنين عنه بعبراتهما.

رحلت برفقة بنيامين لأقابل المجهول.. وعلى الرغم من قلقي الشديد من العيش في دولة معادية لجيرانها مثل إسرائيل، قائمة في نشأتها على انتزاع حقوق الغير، فإنني عاهدت نفسي على أن أعطيه فرصته الكاملة.. وثقتي في حبه لي كانت دافعي الأوحد في النزوح إلى إسرائيل، مخلفة ورائي عائلة مكلومة في مصر.

استقرينا في تل أبيب وسرعان ما توالت الأيام.. وكلما مضى يوم جددت عهدي أمام مرآتي بسعيي الدءوب لإسعاده.. ولكن لن أخفي عليك سرًا، منذ أتينا إلى تلك البلد الملعون وعواطفي جفت تجاهه.. لا أعرف لمَ!!.. قد يكون إصراره على الهجرة متجاهلاً رأيي ورغبتي سببًا.. أو يكون السبب هو انفصالي عن عائلتي التي لم أفارقها منذ ولادتي.. فحتى عندما تزوجت منه كنت دائمة التردد على أبي وأمي بصورة شبه يومية.. أما الآن فلا أعلم إن كانت الحياة ستسمح لنا برؤية بعضنا البعض مرة أخرى قبل أن يفرّقنا الوداع الأخير أم لا.

وكنت أعلم جيدًا أن بنيامين يشعر بما يعتمل في دهاليز نفسي..

ولكنه تجاهله ببراعة، واعدًا نفسه بتجاوزي للأمر قريبًا- فمن وجهة نظره- قد أستغرق بعض الوقت حتى أتأقلم وأتقبل الوضع الراهن.. وراهن على ذلك، ظنًا منه أنني طفلة سريعة التكيف، لم تلبث أن تتقبل ما اختاره لها راعيها.. غير مدرك لكوني تربيت في بيت تظلله الديمقراطية وحرية الرأي.. ولو لا تلك الحرية ما كنت معه الآن يقرر مصيري ومستقبلي دون مشاورتي، أو حتى مراعاة مشاعري.

وبعد مضي عامين من هجرتنا كان حليفنا فيهما الصمت، وهبنا الرب ابنتنا دينا.. لتضخ دماء جديدة في عروق علاقتنا التي أوشكت على التجلط، ولكنني لم أجد منه سوى المزيد من التجاهل والصمت.

فاستفقت على الحقيقة، وعلمت السبب وراء كل هذا التجاهل.. فقد تعود أن ينهل من نبعي الحب والاهتمام دون أن يلتفت لعواطفي ورغباتي.. وعند أول عثرة في علاقتنا فوجئ بأن لي رأيًا، قد يكون مخالفًا

لرغباته.. وبالطبع هذا صدمه كثيرًا حتى أفقده ثقته في حبي له، مزعزعًا يقينه في إخلاصي وتفانيّ في إسعاده.

وبالطبع لم يلتفت إلى حقيقة أن أية علاقة قائمة في الأساس على العطاء المتبادل من الطرفين، لا من طرف واحد.

ولكنني لن ألومه كثيرًا، فأنا المخطئة منذ البداية، أنا من منح بغير حساب، حتى بات يترآى له أن هذا حق من حقوقه الأصيلة، التي لن يسمح لأحد أن يسلبه إياها، حتى ولو كان هذا الشخص أنا نفسي.. فمرآته لن تتسع لأحد سواه مهما حدث.

فهو حقًا كما حذّرني منه أبي.. نرجسي يعشق ذاته حد الجنون.. ولذلك ظل ينتظر مني العودة لما كنته سابقًا.. وبالطبع هذا لن يحدث.. نعم لم أنسَ عهدي بالتفاني في إسعاده، ولكنني اكتشفت حقيقة كانت غائبة عني، وهي أنه: كي أمتلك القدرة على العطاء لا بد أن تكتمل دوائري العاطفية بالأخذ أولاً.

ولذلك أمسينا ندور في حلقة مفرغة، لن ينتشلنا منها سوى الزمن.. إما أن نتأقلم على حياتنا بمصيرها المحتم من الصمت والجفاء، وإما أن يبادر أحدٌ منا بالعطاء.

فمكث كل منا ينتظر الآخر ليبدأ.. ولكن تلك البداية لم يكتب لها الميلاد قط، فالشمس لا ينبغي لها أن تدرك القمر.. فهو يرى في إهماله لي- كي أعود إلى أحضانه راجية - قوة وصلابة الرجل الذي يسعى لرؤيته في مرآته.. دون أن يدرك حقيقة قدرتي على اختراق نافذتي روحه لأرى هشاشة نفسه.. فراهن بحماقته على قصر نفسي.. أما أنا فلم أراهن على

شيء.. ولم أعد أنتظر عودته لأحضاني مرة أخرى.. فما مضى قد مضى.. وحقّ عليّ جني ثمار اختياري الخاطئ.

وعلى أثر ذلك، عاد هو لوحدته الاختيارية- كما يطلق عليها- فعلى الرغم من تعدد علاقاته وتشعبها، وما طفق يناله من مكانة اجتماعية راقية في إسرائيل، إلى جانب صداقته بنعوم، إلا أنني كنت متأكدة من أن ما يدور بخلده لا يعلمه سوى الرب.. فكل من يحيط به ما هو إلا قشرة خارجية يغلف نفسه بها لتحميه من الظهور بمظهر المنطوي.. ولكن هذا بالطبع لم ينطلِ عليّ، فأنا أقرأ عينيه جيدًا.

أما أنا فقد منحت جم عواطفي لطفليّ، يوسف ودينا، فلم يعد لي الآن سواهما.. وبذلك أمسينا على حد تعبيره غريبين لا يجمعهما سوى بيت واحد.

مرت الأعوام في صمت، فم نكن نتحدث سوى في أمور إدارة البيت وتربية الطفلين.. حتى عمله لم يعد يخبرني عنه شيئًا.. لقد عاد بنيامين أحادي الفكر والرأي مرة أخرى.. لا يرى سوى نفسه، ولا ينصاع سوى لرغباته وهواجسه.

إلى هذا الحد كانت الأيام تمضي.. نعم في تباطؤ وثقل، ولكنها تمضي.

إلى أن تبدل حاله..

في بداية الأمر كنت ألحظ شرود ذهنه المتكرر.. ثم تلى ذلك حديثه عن رؤيا تلاحقه منذ كنا في مصر، ولكنه يجهل المقصود من ورائها.. بالطبع لم أكترث حينها لما يقول.. فمن منا لا تطارده رؤيا بعينها من وقت لآخر.. فأنا على سبيل المثال تطاردني رؤيا نفسي أقف على سطح مبني شاهق

الارتفاع أسعى للهبوط، ولكنني أجهل السبيل لذلك.. ولذلك فأنا أعاني رهاب المرتفعات (الاكروفوبيا).

فكل منا له هاجسه الخاص الذي يطارده في أحلامه.. وإن تنبه كل منا لتلك الهواجس لهام على وجهه.. ولكن بنيامين استسلم لضلالاته، وهذا ما كنت أتوقعه.

فأغرق طفليه.. يوسف ابن الثمانية أعوام ودينا ابنة الخمسة أعوام، ظنًا منه أنه بذلك الفعل يتقرب إلى الرب.. لقد صدّق هواجسه إلى حد قتل فلذتيّ كبده.

رباه..

لا أستطيع تقبل الفكرة حتى الآن.. عقلي يأبى تخيل تلك اللحظة.. فعلى الرغم من وصفه لها، بدقة فإنني مررت عليها بنظرة عابرة.. قلبي لم يتحمل تخيل توسلاتهما وخوفهما من الموت على يد أقرب الناس.. أبيهم.

بداخلي آهات لا يعلم بها إلا الرب..

فقد حاصرتني التساؤلات لتسقطني فريسة لبراثنها.

كيف مرت تلك اللحظات عليهما؟

كيف تقبلا الأمر وخنعا للموت؟

كيف رمقاه للمرة الأخيرة؟

هل شعرا بالخوف؟ مؤكد هذا حدث.

هل ارتجفا هلعًا؟ بالطبع.

هل توسلا إليه لعتقهما من الموت؟

ولماذا لم يرحمها ويرحمني؟

لماذا لم يرق قلبه؟

كيف ترآت له الحياة بدونها؟

كيف استطاع تجاوز أمر رحيلها بتلك السرعة؟

هل استساغ الطعام، وطفلاه أمسيا طعامًا للأسماك؟

يا إلهي هب لي صبرًا يكافئ ألمي وحزني.

لقد حمّلت نفسي ذنب موتها.. نعم.. فلقد حذرني أبي منه عند تسرعي بالموافقة على طلبه للزواج مني.. ولكن غروري وكبريائي عاندا نصحه.. وعند إخباري له بهجرتنا إلى ذلك البلد الملعون دمعت عيناه وكأنه رأى الغيب.. ليتني استمعت إليك يا أبتي.. ليتني ما كنت بدأت تلك الرحلة الموجعة.. ليت الزمان يعود لتصحيح ما اقترفته من أخطاء.

ولكن إن كان هناك درس واحد تعلمنا إياه الحياة، فهو كونها لا تقف عند أحد.. ستمضي بنا أو بدوننا.. فنحن لا نمثل لها سوى ذرة غبار عالقة في ثوبها المليء بالألوان.. سرعان ما تنفضه عنها لتبقي زاهية ناصعة كعهدها منذ خُلقت.

ويوم وفاتها مضى كما قصه هو لا يمكنني إضافة شيء إليه سوى الألم.. فإن كان لذلك اليوم عنوان فهو "الألم والفقد".. فعند سماعي للخبر تملكني شعور بالوحشة والخواء.. وكأن قلبي انتُزع من بين أضلعي بقسوة لم اختبرها طوال عمري.. خواء.. خواء لا توجد قوة في الكون قادرة على ملئه سوى الظلام.

ولكن الرب أرسل في ذلك اليوم إلى سبيلي نبراسًا منيرًا.. يُدعى "وسيم " ليكشف لي ما كنت لأراه أو حتى يراودني في أحلامي.

فقد تقرب إليّ وسيم بعد ذلك اليوم ليدلو لي بشكوكه، موضحًا ما ترآى له في ذلك اليوم.. فعند خروج بنيامين من المياه مدعيًا غرق الطفلين، لم يقتنع وسيم بحديثه، وبدا له وكأن ثمة ما يريب في الأمر.. فقرر ملازمتنا لمعرفة سبب الارتباك الذي بدا على بنيامين، متوقعًا سيناريو من اثنين لا ثالث لهما وهما: إما أن يكون ارتباكه وتوتره هذا وليد صدمته في اختفاء طفليه لا أكثر.. أو أنه مدعٍ، وهناك شيء ما يسعى لإخفائه..

ولذلك قرر وسيم استجلاء الصورة، فتقرب لنا ليبحث خلفه وليخبرني بشكوكه.

ولكن عندما أخبرني عقلي، أبى استساغة ما قاله للوهلة الأولى.. فأنا أثق في حب بنيامين لطفليه، فكيف يكون هذا؟!.. ولكنه أضاء بحديثه ضوءًا أحمرَ في ذهني.. وبدأت ألحظ منذ ذلك الحين تصرفات غير منطقية لرجل فقد طفليه نتيجة لإهماله.. فطفق الشك يتنامى بداخلي كوحش يتغذي على ذلات بنيامين..

وما أكثرها!!

ولوسيم فضل غير منكور في إخراجي من قوقعة الأحزان لأرى الصورة بشكل أوضح..

ومنذ ذلك الحين اشتدت علاقتي بوسيم وزوجته سارة اللذين بدونهما لا أعلم كيف كنت سأستمر.. فقد كانا لي خير ملجأ في غربتي التي تقبلتها سلفًا، مستندة إلى كتف من غدر بي وأذاقني الوجع في أحلك

صورة. وقد راودتني مرارًا رغبة جامحة للتخلص من حياتي.. ولكن حال بيني وبينها وجود هذا الثنائي يدعمني ويشد من أذري، إلى جانب نبتة طفقت في النمو بداخلي أشد إلحاحًا من الانتحار.. وهي الانتقام.

وبالطبع استغرقت حينًا يتلاعب بي الشك كدمية ماريونيت.. وعلى الرغم من توافر عدة شواهد تؤكد حقيقة قتله ليوسف ودينا، فإنني منحته وقتًا وفيرًا لإثبات العكس.. ولكنه أكد إدانته بمهارة.. فلو أنه اعترف لي بملء فمه لكنت ترددت للحظات في تصديق ما يقول.. إنما تصرفاته المريبة أكدت لي ما يجول بخلدي، بما لا يدع مجالاً للشك.

فقد ذهب لعمله صبيحة فقده لطفليه، وكأن شيئًا لم يكن.. وقد مثل هذا التصرف في نظري الثغرة الثانية التي عبر من خلالها سوء ظني، بعد الأولى، التي يرجع الفضل لوسيم في ملاحظتها، وتنبهي إليها بعد الحادث بيومين، وتتمثل في خروجه من المياه وهو على يقين من غرق الطفلين، على الرغم من ادعائه لتركهما والابتعاد عنهما، وعدم رؤيته لهما يغرقان.. فمن أين له إذن بهذا اليقين؟!!

هذا إلى جانب مقته غير المبرر لوسيم.. ذلك الرجل الفاضل الذي لا يعنيه سوى مساعدتنا للعثور على طفلينا.. فلماذا يصيبه كل هذا الارتباك لمرآه؟!

ولكن السبب أمسى معلومًا بالنسبة لي، وخاصة بعد أن صرّح وسيم لي بشكوكه في بنيامين.. فقد أدراك بنيامين يوم الحادث أن وسيم يشك في كيفية غرق الطفلين بتلك السرعة دون أن يستغيثا أو يصرخا.. وقد أوضح وسيم ريبته هذه من خلال سؤال صوّبه نحو بنيامين مما أدى إلى

إرباكه.. وحينها أيقن بنيامين أن أمره قد فُضح، وأن وسيم سيمثل شوكة في ظهره.

ولذلك حاول بشتى الطرق قطع علاقتي به.. فهو- من وجهة نظره- من بث الريبة والشك في قلبي، وهذا ما لا يمكنني إنكاره.

فالرب أراد أن يفضح أمره، فوضع وسيم في سبيله ليزيل الغبار عن عينيّ، لأرى الحقيقة جالية كضوء النهار.

فتارة يقابله بفتور ولسان حاله يقول: "لماذا لا تحل عنا"، وتارة أخرى ينتقد أفعاله أمامي لإثارة نفوري منه.. إلى أن هداه تفكيره المريض لافتعال مشاجرة مع وسيم، متهمًا إياه بمحاولة التودد لي لخلق علاقة غير مشروعة مستغلاً الحادث.

بالطبع كانت هذه القشة التي قسمت ظهر البعير.. ويومها أيقنت حقيقة قتله العمد ليوسف ودينا.. فمنذ تزوجنا لم ألحظ عليه إمارات الغيرة مطلقًا.. فهو دائمًا ما كان ينظر لي كسلعة غير رائجة لا ينتبه إليها الكثيرون.. وبالطبع هذا يرجع إلى القدر الضئيل من الحسن الذي أتمتع به.. فلطالما كان يطالعني بنظرة "يكفيك كوني قبلت بك زوجة لي"، فقد وهبني الرب بزواجي منه- من وجهة نظره- نعمة يجب أن أشكره عليها صباحًا ومساءً.. هذا إلى جانب غروره ونرجسيته العمياء، فمن قد يضاهيه في محاسنه لتلتفت أنظاري إليه.

فمن أين له بالغيرة الآن؟ ومتى؟!! في تلك الظروف.. أثناء فقدي لدنيتي وسر وجودي.. بالطبع الأمر لم ينطلِ عليّ.. ويومها تأكدت من

رغبته القوية في التخلص من وسيم.. والتي دفعته إلى اختلاق مشاجرات حتى يبعده عن سبيلي.. ولذلك رأيت أن الوقت مناسب لمواجهته.

فوجهت نحوه قذيفة أعتقد أنها نجحت في خلخلة سلامه النفسي، وزلزلة عقيدته العمياء في ضعفي وقلة حيلتي.. فواجهته بشكوكي في كون غرق يوسف ودينا جريمة قتل عمد، وليست مجرد حادث وبأنه المشتبه به الأول في نظري.

بالطبع أُربك، وانتابته رجفة بدت على نبرات صوته، مما دعّم من شكوكي.. يومها وأدت آخر رمق في قلبي نحوه.. وتملكتني شهوة الانتقام.

ولكن كيف؟!

في ذلك اليوم ترك البيت وذهب.. فشعرت بارتياح شديد.. أخيرًا سأتنفس هواءً نقيًّا، غير ملوث بأنفاس قاتل طفليّ.

وفي تلك الأثناء كانت علاقتي بوسيم تزداد قوة، وروابط الثقة تجمعنا، فصارحته بعزمي على تقديم بلاغ ضد بنيامين اتهمه فيه بقتل يوسف ودينا.. ولكنه نصحني بعدم الإقدام على هذا الفعل، مبررًا لي أن ذلك الطريق لن يحقق العدالة.. فالشرطة لن تجد أية أدلة ضده.. ولو كان هناك شاهد واحد على حادثة القتل لواجهه في حينها.. وبالتالي فبمجرد إنكاره للجريمة سيخلي سبيله على الفور لعدم كفاية الأدلة.. ورأى وسيم أيضًا ضرورة ألا أنتظر وسيلة ضغط من جانب الشرطة عليه ليعترف، وذلك لما يتمتع به الآن من مكانة اجتماعية تحصنه من أية اتهام، وبخاصة في حال انعدام الأدلة والشهود كما في الوضع الراهن.

وسيكون نتيجة لهذا البلاغ ابتعاده عني قاطعًا السبيل أمامي لتحقيق العدالة.. فبالطبع لن يقبل على نفسه أمام المجتمع الاستمرار مع امرأة جاحدة فاقدة لعقلها تتهمه بقتل طفليه العزيزين.

بالطبع أقنعني وسيم برؤيته.. فآثرت الابتعاد عن ذلك السبيل. وبدأنا نفكر سويًّا في وسيلة أخرى للانتقام، ولكن بعد التأكد التام من فعلته.

وقد أمست تلك معضلتنا التي لا فكاك من براثنها.. فليست هناك وسيلة واحدة لليقين سوى اعترافه شخصيًّا بارتكابه ذلك الجرم.. وبالطبع هذا يقارب الاستحالة.. ولكن على الرغم من استحالته فإنني لن أتخذ أي قرار في شأنه إلّا بعد أن أتحقق من ذنبه.. فلن أسمح لنفسي بالوقوع فريسة في قبضة الانتقام الأعمى، خاسرة إنسانيتي، فيؤول بي المآل قاتلة لإنسان قد تثبت براءته مع الأيام..

ولكن.. أنَّ ليّ بهذا الاعتراف؟!!

مضت عدة أيام وبنيامين مختفٍ لا أعلم له محل.. وبالطبع لم أسع للعلم، ولكنه ظهر بدون سابق إنذار في ليلة كان وسيم في زيارة قصيرة ليّ لمناقشة مجريات الأحداث.. وعندما رآه تشاجر معه للمرة الثانية، ولكنه كان أشد شراسة وعدوانية.. فلكم وسيم لكمة أظنها أظلمت الدنيا في عينيه فجعلته يترنح على أثرها.. وتوعده بالانتقام لتدخله فيما لا يعنيه، والذي سيدر عليه الويلات.

وبعد مضي عدة أيام هاتفني وسيم، وطلب مقابلتي لأمر مهم فدعوته للحضور إلى البيت وحددت موعدًا.. جلست أنتظره ولكنه لم يحضر، فتوقعت أن هناك أمرًا ما حال بينه وبين المجيء.. لم أكترث كثيرًا حينها،

فقد تكرر هذا الأمر عدة مرات.. يعطي لي موعدًا، وأنتظره، ولكنه لم يحضر، ويعقب هذا بمكالمة هاتفية ليعتذر لانشغاله بأمر مهم.. ولكنه في تلك المرة لم يهاتفني ليعتذر.

وفي تلك الليلة عاد بنيامين في الثانية صباحًا.. بالطبع عند سماعي لصوت المفتاح يولج في الباب انتابني الهلع.. فلم أتوقع عودته في تلك الساعة من الليل.. وعندما رأيته تعجبت قليلاً، ثم ما لبثت أن عدت لغرفتي.

أتى على عقبي محاولاً جذب أطراف الحديث، فعاجلته بالصد متهكمة على محاولته الحمقاء في تلك الساعة من الليل.. فأشعرته بقدر حماقته وتسرعه.. وأعتقد أنه ندم على محاولته.

ولكنه لم ييأس، ففي الأيام التالية أصرّ على كسر الحائل الصلد الذي بيننا.. فما كان بيدي حيلة إلا الاستجابة له حينًا، والنفور حينًا آخر.. فكنت كالزئبق كلما شعر بامتلاكه انزلق من بين راحتيه.. وهذا اللين من جانبي كان متعمدًا.. فقد جاء نابعًا من رغبتي في استمرار مكوثه في البيت.. وهذا لن يتأتى إلا إن أعدت له ثقته في ضعفي وخنوعي لأمره.. ففي هذه الحالة فقط سيبقى.. وهذا مبتغاي.. فأنا لن أتوصل إلى دليل إن ظل تاركًا البيت.. فلعل وجوده معي تحت سقف واحد يساعدني بشكل ما على إيجاد ضالتي..لا أعرف كيف.. ولكن من المؤكد أن قربه سيخدم بحثي أكثر من بعده.

مضى يومان ونحن على تلك الحالة من الشد والجذب، حتى هاتفتني سارة وهي في حالة يرثى لها لتسألني عن وسيم.. بالطبع اندهشت من

سؤالها، وأجبتها بأنه لم يحضر في الموعد الذي كان قد حدده لمقابلتي، ولذلك لم أره منذ عدة أيام.. فأجهشت بالبكاء والنحيب، وما إن هدأت نوعًا حتى أخبرتني باختفائه منذ ذلك الحين، وبأنها أبلغت الشرطة عن اختفائه، ولكنهم لم يتوصلوا إلى شيء حتى الآن.

أصابني حديثها بحالة من الذهول، وعدم التصديق للوهلة الأولى. فأغلقت الهاتف بعد أن حاولت طمأنتها مبررة اختفاءه بأسباب واهية لا تنطلي على عقل طفل علّها تؤتي بثمارها معها.. ثم وعدتها بمؤازرتها في محنتها حتى نعثر عليه.

ولكن بعد إغلاقي الهاتف، ومضت في ذهني فكرة، أخذت في الإلحاح كلحن حزين يتردد في دهاليز عقلي.

بنيامين!!!!!!

بنيامين من فعلها.. ليس هناك تفسير آخر.. شعرت في تلك اللحظة بالغضب يتأجج بداخلي، وكأنه تجسد في تكويني ليجعلني نافذة يعبر من خلالها إلى ذلك العالم الموحش.

مكثت أنتظره حتى عاد من العمل، وكنت قد هدأت نوعًا، فأثرت استكمال استراتيجيتي معه، التي تقوم على تجنب المواجهة المباشرة قدر الإمكان.. فسألته عن وسيم، وإن كان قد رآه مؤخرًا.. وذلك مع مراعاة سيطرتي الكاملة على انفعالاتي.. فأجابني بالإنكار كما كنت أنتظر منه.. ولكنني استشفيت ما سعيت إليه من إجابته.. فقد طلب مني الابتعاد عن سارة قدر الإمكان.. وهذا بالطبع متوقع في حال تورطه في اختفاء

وسيم.. فاقترابي من سارة قد يشكل ثنائيًّا يهابه، ولا يمكنه التنبؤ بتصرفاته.

أعطاني بحماقته واندفاعه ما كنت أنتظره، ولكنني أعتقد أنه استشف لهجة الاتهام من وراء سؤالي.. وهذا ما كنت لا أتوق إليه.. حيث إنه قد يجعله أكثر حرصًا في الوقت الراهن.

توالت الأيام التالية في هدوء يشوبه الحذر.. نعم.. فأنا الآن قلقة على حياتي منه.. فقد أمسى إنسانًا لا يمكن التنبؤ بأفعاله.. ولست بمنأى عن احتمالية كوني ضحيته التالية.. وذلك حتى أتاني ذات يوم ليعلمني بذهابه في رحلة إلى ذات الشاطئ الذي غرق فيه يوسف ودينا.. وكرر وعده لي بالعثور عليهما.. ولكنني في تلك المرة استشعرت في نبرة صوته اليقين.. وكأنه يعلم جيدًا كيف يمكنه إيجادهما.. لا أعرف كيف؟!.. ولكن حدثتني نفسي باحتمالية كونها لعبة من ألاعيبه يفتعل بها المماطلة لأمر ما في نفسه.. فمن أين له بهذا التأكد بعد مضي أكثر من شهر على اختفائهما؟!!

دعوت الرب لأول مرة منذ اختفائهما أن يوفقه، والدمع متخذًا سبيله على وجنتيّ.

وبعد يومين أتاه الاستدعاء الرسمي من الشرطة.. بالطبع عند حضور الشرطي إلى البيت توقعت سبب الاستدعاء.. مؤكد أن سارة قصت للشرطة الخلاف الذي وقع بين وسيم وبنيامين، مما جعله ضمن المشتبه بهم، ولهذا أتاه الاستدعاء بتلك الصورة الفظة.. وعند علم بنيامين بأمر الاستدعاء، بدا على وجهه الارتباك والحيرة.. ولكنه آثر تقبل الأمر،

مدعيًا الجهل المغلف باللطف، وكأنه لا يعلم شيئًا عن سبب هذا الاستدعاء.

كنت أتوقع أن الشرطة لن تتوصل معه إلى شيء.. لقد كان وسيم بعيد النظر حقًا عندما نصحني بالابتعاد عن مسلك القضاء في قضية غرق طفليّ.. فها هو السيناريو ذاته الذي تنبأ به يحدث، ولكن للأسف أضيف له اليوم ضحية أخرى.

انتظرته وقلبي يرتجف توترًا، وما إن حضر حتى توجهت إليه لسؤاله عما كان معه في المخفر.. فخبرني بما حدث بلا انفعالات على وجهه.. وبالطبع كان ما توقعته، والذي سبقني إليه وسيم.. فقد أطلقوا سراحه بمجرد إنكاره للاتهام الموجه إليه.

انسحبت من أمامه وقلبي يعاني حزنًا دفينًا، ولكنه يخلو من الدهشة.. وفي تلك اللحظة رأيت أن الانتقام واجب النفاذ.. لن يردعني كائنًا من كان عن الثأر ليوسف ودينا يتبعهما وسيم.

أعددت له الغداء والشيطان يوسوس لي بسرعة الانتقام، وخاصة وأن ثمة سبيلاً رهن إشارتي الآن.. فببساطة أستطيع وضع السم له في الطعام محققة ثأري، شافية غليلي.. ولكن ظل هناك هاجس يمنعني، ويردد بداخلي، ماذا لو كنت مخطئة؟ ماذا لو كان مظلومًا؟ ماذا لو كانت كل تلك الأفكار هواجس وضلالات اختلقها عقلك ليلقي باللوم عليه كي يلهيك عن حزنك مستخدمًا فكرة الثأر؟

ظل فكري يعمل وكأنه عامل بالسخرة طوال الوقت الذي استغرقته في إعداد الطعام.. ولكن في النهاية حال ضميري بيني وبين انتقامي.. فللأسف ظل يطالبني بالدليل القاطع قبل الإقبال على أي فعل.

ليتني أستريح من عذابي.. ولكن كيف لي هذا؟!!!

دعوته بعد إعداد الطعام على المائدة، وانسحبت إلى غرفتي في صمت.. وبينما يتناول الطعام رن جرس الهاتف.. فحضرت للرد وكان نعوم.. أبلغني خبر ولادة خولة لطفل آية في الروعة والكمال، فهنأته، ودعوت بنيامين ليبشره بنفسه، عائدة إلى غرفتي.

وعند انتهائه من الغداء جاءني يذكّرني بموعد الرحلة صبيحة غد، مجددًا وعده بالعثور على يوسف ودينا.. فدعوت الرب أن يريح قلبي ويعثر عليهما.

وفي الصباح الباكر شعرت بتحركاته في الصالة يستعد لرحلته.. وقد كنت أعاني القلق طوال الليل، عقلي يبحث في دهاليزه عن ثغرة ينفذ من خلالها إلى الضوء الذي أضناه البحث عنه.. ولكن هيهات.

وقد استغرق بنيامين ساعتين تقريبًا حتى خرج من البيت.. وفي تلك اللحظة خطرت لي خاطرة لم تواتني منذ الحادث، دفعني إليها حدسي؛ وهي البحث عن طرف خيط في غرفته.. علّني أجد شيئًا يخدم شكوكي، ويهديني إلى صواب السبيل. وبالفعل بعد خروجه من البيت مباشرة دلفت إلى غرفته للبحث.. فوجدت الصحيفة ملقاة على الأرض في إهمال متعمد.. التقتها، وهنا وقعت عيناي على خبر اغتيال نعوم.

أوغر صدري الخبر على الرغم من عدم اندهاشي.. فقد كنت أتوقع أن هذا سيحدث في يوم من الأيام.. ولكن ليس بتلك الصورة البشعة.. لم أتمالك نفسي ففرت من عينيّ عبرة ترثي شابًا في ربيع العمر، وفتاة أضناها العشق، فوقعت فريسة لبراثن الخطيئة، متحدية الأعراف والأديان، مستسلمة لمعشوقها، الذي سقط معها في الهاوية ذاتها، فأمسيا فريستين للهوى.

نعم لقد أخطأت، ولكن العقاب جاء قاسيًا لم يرحم ضعفها، وقلة خبراتها في الحياة.. فقُتلت مرتين في لحظات قليلة.. أولهما عند رؤيتها لرضيعها الذي لم تلبث أن تختزن ملامحه في ذاكرتها مستسلمًا لقبضة الموت.. ليعلن بذلك عن رفضه لهذا الدمج بين عرقين لم يجمعهما سوى الدم، واغتصاب الحقوق على أرض لا تعرف سوى الصراعات والنزاعات.. فأية حياة كانت تنتظره؟؟!! لقد اختار الطريق القويم ليحرر أبويه من رباط دموي سقيم.

وثانيهما عندما قُتلت على يد أخويها. وقد رأيت في تلك اللحظة في خولة انعكاسًا لصورتي.. فكل منا استسلم لقدر، لم يكن، لو كنّا قلنا "لا".

سارت في جسدي رجفة فحاولت تمالك أعصابي.. وبدأت البحث عن طرف خيط.. أعلم جيدًا حرص بنيامين، ولكنه يعلم أيضًا أنني لا أدلف إلى غرفته مطلقًا منذ الحادث.. هذا إلى جانب خبر مقتل نعوم، الذي مؤكد أربكه، وأفقده حذره قبل خروجه.. وقد تمثل هاتان النقطتان ثغرة في جدار حرصه، مما قد يؤدي إلى بعض من الاستهانة من جانبه.

أخذت أبحث هنا وهنالك، ولكنني لم أجد شيئًا.. وكدت أخرج مستسلمة لو لا وقوع عينيّ على مفكرة صغيرة ملقاة على مقعد بجوار الفراش وبداخلها قلم.. حدثني قلبي في تلك اللحظة بأن تلك المفكرة كل الخيط، وليست طرفه فقط.. فوضعها في ذلك الموضع والقلم بداخلها، ينم عن كتابته بها قبل خروجه من البيت مباشرة.

فتحتها على موضع القلم، وقلبي يكاد أن يذرني هاربًا من بين أضلعي أثر الانفعال.

فوقعت عيناي على تلك الكلمات: "الأمور اتضحت في نظري.. لقد علم أهل خولة بمكانها.. وعلموا مع من هربت.. فأتوا للانتقام.. وغسل عارهم كما يقولون.

هذا ما كنت أخشاه.. وحذرته منه كثيرًا، لقد قتل قبل الوفاء بوعده لخولة، الذي قرر الوفاء به أمس فقط.

ليته ظل في باريس ولم يعد، أو أنه استمع لتحذيراتي وابتعد عنها.. ولكن قلبي يأبى القسوة عليه، فقد كان يعشقها بحق.. ليس هناك رجل يتحمل ما قد تحمله إلّا إن كان عاشقًا.

ولكن.. من لي الآن؟!!

لم يتبق لي أحد بعد فقدي لنعوم.

أنا الآن وحيد تمامًا كآدم يوم خُلق.

مشاعري مضطربة.. عقلي يأبى التصديق.. عيناي ينهمر منهما شلالٌ من الدمع.. وكأن ظهري قد كُسر.

وددت لو ارتميت في أحضان راشيل باكيًا حتى يجف الدمع من مقلتيّ.. ولكن هذا ترف لا يحق لي تمنيه.

تمنيت لو أن هناك آلة زمن تعود بي إلى أيام الإسكندرية.. فلو أن هناك شيئًا كهذا، لدفعت فيه عمري بأكمله الآن.

أظلمت الدنيا في عيني.. فلا أدري ما عليّ فعله.

هل أمضي في طريقي الذي قُدّر ليّ؟ أم أصطحب راشيل وأهاجر من إسرائيل إلى أي مكان آخر، لا يحمل لي ذكريات مضنية؟!!"

قرأت تلك الكلمات وعقلي يستبق عيني، وقبل أن أطالع باقي الصفحات بدأت استوعب قيمة تلك المفكرة التي تُعد جنيزة[٨] تُوثِّق أسراره ومعتقداته.. لقد كان يدون فيها كل ما يمر به من أحداث.. ارتجفت لهول الفكرة التي ومضت في ذهني.. الآن فقط يمكنني الجزم بحقيقة قتله ليوسف ودينا من عدمها.. ارتعشت يداي وخفق قلبي بقوة، جعلتني أغلق المفكرة للحظات.. لم أكن أتوقع أن يحل اللغز من تلقاء نفسه بهذه البساطة.

طوال الوقت كان اليقين أمامي، ولكنني كنت فريسة لبراثن الشك ليتلاعب بي كيفما يشاء.. تسارعت دقات قلبي، وأثلجت أناملي فتركتها محلها، وخرجت من الغرفة لأتمالك أعصابي لبعض اللحظات.. توجهت إلى الشرفة لاستنشاق بعض الهواء، في محاولة للحد من انفعالي....

---

[٨] الجنيزة أو الدفينة كما يعني جذر الكلمة ، هي وثائق أو أوراق لا يجوز إبادتها وفقا للديانة اليهودية ، لشمولها على اسم الله بين ثناياها ، وإنما يتم تخزينها في غرفة معزولة في الكنيس أو المعبد ، وبعد انقضاء مدة محددة تجمع خلالها تلك الوثائق تشيع في جنازة مثلها كمثل المتوفى لتدفن في المقابر.

وبعد انقضاء عدة دقائق عدت إلى الغرفة مرة أخرى لألتقط المفكرة والتوتر يسبقني إليها فتحتها وبدأت القراءة من أول ورقة.

استغرقت ما يقرب من الساعتين حتى أتممت القراءة، وخلالهما أذرفت الكثير من الدمع.. ونزف قلبي الكثير من الآلام.. وارتجفت كل خلية في جسدي كما لو كان عفريت من الجن مسّني.. وخاصة عند مروري على الجزء الذي يتناول مقتل يوسف ودينا.. ولكنني لن أعيد عليك عزيزي القارئ ما قد سلف.. فسوف أحتفظ بوصف تلك اللحظات القاسية لنفسي، ولكنك تتمتع بكامل الحق في تخيل حالتي النفسية.. أغلقت المفكرة التي تمثل دليل إدانته الوحيد، محتضنة إياها براحتي.. فقد أضحت كنزي الثمين.

ولكن ليس هناك متسع من الوقت للأحزان.. لا بد أن يدفع بنيامين ثمن أفعاله.. لا بد أن أنتقم.. والأهم من الانتقام الآن هو ضرورة سعيي لإنقاذ الشباب الذين في طريقهم للموت.. ارتديت ثيابي في عجالة، وتقمصت روح بنيامين الماكرة لأرسم خطة تحمل في طياتها روحه.. وبالفعل توصلت إلى تدبير يتيح لي شرف الأخذ بالثأر، ويطفئ نيران رغبتي في الانتقام، إلى جانب مد يد العون للشباب.

خرجت من البيت مسرعة، أسعى لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من دماء ذكية بريئة، لا تعرف ما تمضي في سبيله من هلاك.. فلن أقف مكتوفة الأيدي، وهناك دماء ستراق على علم مني. استقليت سيارة أجرة وواجهتي الشاطئ.. وفي طريقي ظلت نفسي تلهب بنيران الرغبة في الانتقام، بعد أن أتيحت لي الفرصة، ولن أتوانى عن استغلالها الاستغلال الأمثل.. فما كان

يحول بيني وبين الأخذ بثأري من بنيامين ضميري، الذي ظل يطالبني بالدليل، أما الآن، فما عاد لضميري حجة، وما عدت خائفة من أن تلوث روحي بدمائه.. فدماؤه اليوم حلّ لي بعد أن تأكدت من جرمه.. اليوم أستطيع أن أنظر في مرآتي بنفسٍ راضية، بعد أن أطفأ لهيب فقدي لطفليّ، وأحقق العدالة التي لن تتحقق سوى بيدي.

وهكذا ظل عقلي طوال الطريق يعمل كقطار في سرعته وضجيجه، حتى إنني ضبط نفسي قبل أن أتحدث بصوت مسموع أثناء تفكيري.

وصلت إلى الشاطئ، وسألت عن أقرب موقع لاستئجار قارب سرعته تسمح لي باللحاق بيخت في عرض البحر.. وقد يسر لي الرب الأمر، استطعت العثور على قارب بحالة جيدة، وأيضًا يتناسب مع عدد الشباب الذين لا يعلم حالهم الآن سوى الرب.

طلبت من قائد القارب الإسراع في التوجه إلى أقرب موضع لليخت.. وبالفعل استطاع الوصول إلى اليخت في وقت قياسي. وتأكدت من أنه ضالتي عندما رأيته يحمل اسم شركة السياحة ذاتها.

وعندما اقتربنا بالقارب من اليخت، شكرت الرب، فقد وجدته مازال سالمًا.. فمن الواضح أن بنيامين لم ينفذ خطته بعد.. رأيت أحد الشباب فخاطبته لأطلب منه استدعاء القبطان للتحدث إليه.. وبالفعل ذهب للحظات، ثم عاد ومعه القبطان.. فأخبرته بكوني زوجة بنيامين، وأريد التحدث إليه في أمر مهم، فاعتذر مني وأبلغني باستقلال بنيامين لقارب الإنقاذ للبحث عن طفليه.. فطلبت منه السماح لي بالمكوث في اليخت لحين عودته.. فرحب بشدة ودعاني للصعود.

استدرت إلى قائد القارب الذي ساعدني في الوصول إلى اليخت، وطلبت منه عدم الابتعاد مطلقًا عن اليخت مهما حدث، وأكدت على ضرورة ملازمته له.

صعدت على متن اليخت فصحبني القبطان إلى غرفة هادئة تبتعد قليلاً عن ضجيج الشباب.. ثم استدعى أحد العمال وتوجّه إليّ بالسؤال عما أود تناوله.. فشكرته ولكنه ألحّ، فطلبت قدحًا من القهوة.. استأذن مني بعد أن وجّه أمره إلى العامل بإحضارها عائدًا إلى غرفة القيادة.. وما هي إلا دقائق حتى عاد العامل بالقهوة فشكرته وانصرف.. وعند انصرافه طفقت أتسلل خلسة للبحث عن المكان الذي حدده بنيامين في خطته، والذي سيبدأ منه الاشتعال.

بالطبع أثناء بحثي قابلت العديد من الشباب في أعمار الزهور على متن اليخت.. هذا المختل الأهوج المدعو بنيامين يدبر لقتل تلك الزهور اليانعة التي تنبض بالحياة.. يا له من مختل!!.. لن أسمح له بتنفيذ مخططه الغاشم ما حييت. استغرق الأمر ما يقرب من النصف ساعة حتى استطعت الوصول إلى ضالتي دون أن ألفت الأنظار.

وعند وصولي لغرفة المولّد وجدت الباب مواربًا.. فمن الواضح أن بنيامين تركه هكذا ليسهل مهمته عند عودته.. دلفت إلى الغرفة في وجل، كقطة فضولها قد يقتلها في أية لحظة.. فليس مستبعد أن يكون بنيامين الآن بالداخل.

لحسن الحظ كان الوضع مازال طبيعيًّا.. فلم يكن بنيامين قد حضر حتى الآن.. لقد جئت في الوقت المناسب تمامًا.. تنفست الصعداء وجلست

أنتظره وقلبي ينهشه القلق والانفعال، فسرت في جسدي رجفة وأثلجت أناملي.

يا له من قدر.. لم أكن أتخيل لبرهة ما أَمُرُّ به الآن.. ولكن تلك هي الحياة لا تخجل من إعادة خلقنا خلقًا آخر، ما كنا نتوقع رؤية أنفسنا فيه.. فما إن يمر أحدنا بحادث يهز كيانه إلا ويبعث على إثره خلقًا آخر، يحمل روحًا أخرى، لا ترث من سالفتها سوى القليل.. لذا أنصحك عزيزي القارئ ألا تنتظر ممن سحقته تجربة قاسية عودته إليك بروحه الجاهلة مرة أخرى.. فمن منا لم يولد زهرة يانعة تنبض بالحياة والحيوية، إلى أن يتدخل أحدهم ليحولنا إلى نبتة صبار في جوف الصحراء لا تنتظر السقاية؟؟.

وفي حالتي أبدع بنيامين في خلقي خلقًا آخر.. من زهرة لا تعرف سوى العطاء إلى نبتة صبار يبست في صحراء جرداء أثر خيانته وغدره.

سيرى اليوم راشيل كما لم يعرفها من قبل.. سيعلم فضله في صنع امرأة قادرة على الانتقام والأخذ بثأرها.. سأجعله اليوم فخورًا بي.. سأريه نتيجة قسوته وغدره.. سأريه صنيعته.

لقد حضر.. شعرت بحركة أحد ما يتسلل خارج الغرفة.. فاختبأت في مكان لا يُتيح له رؤيتي عند دخوله إلى الغرفة.. وبالفعل تسلل إلى الغرفة بخفة وسرعة فأر.. وشرع في تنفيذ مخططه.. وفي تلك اللحظة خرجت من مخبأي، وقفت في موضع يجعل ظهري إلى فرجة الباب لأُشكل حائلاً لمخرج الغرفة الوحيد.. فاستدار ينتابه الهلع ليري من هناك، وحينها خيل لي سماع دقات قلبه.. فوجدني أمامه أشهر سلاحه المزود بكاتم للصوت في وجهه.

رجع إلى الخلف مرتجفًا، فقد علم حينها كونه سقط في يدي. وقال في جزع:

- راشيل؟! ما الذي أتى بك إلى هنا؟!

- أخرجت مفكرته من جيبي ولوحت بها مبتسمة ابتسامة صفراء تحمل الإجابة.

ارتعش صوته قائلاً:

- هل قرأتها؟

- ماذا تظن؟!

- أنتِ لا تنوين....

قاطعته بنظرة تعني "اصمت" ثم تساءلت في استنكار:

- أإلى الآن مازلت تسعى لخداعي؟ أبعد قراءتي لجرائمك تظن أنك مازلت قادرًا على خداعي بنبراتك الحالمة تلك؟!.. ولكن في البداية، اسمح لي أن أعرفك بنفسي، حيث إنني اكتشفت من خلال قراءتي لتدويناتك جهلك التام بحقيقة المحيطين بك.. ولكنك معذور.. فأنت لم تر سوى نفسك طوال السنوات التي جمعتنا معًا.. أنا لست البلهاء التي ظننتها.. لطالما علمت ألاعيبك، ولكنني آثرت الصمت كي لا أوئد ما تبقي لنا معًا.

لم تنجح مرة واحدة في خداعي أيها الأحمق.. ولكنني كنت أتقبل ترهاتك كي تسير مركبنا لا أكثر.. وفي النهاية اسمح لي بالاعتراف بجميلك في إعادة صياغة تكويني، من امرأة سلبية تعلم وتصمت.. تعاني وتصبر..

تتألم وتحتمل.. إلى امرأة ستطيع أن تقول "لا.. كفي".. امرأة تستطيع الأخذ بثأرها.. وبالطبع لك كل الفضل.. فقد أحسنت صنيعي.

فقال بلهجة راجفة متوسلاً:

- أرجوك أعط لي فرصة لاستعادة ما فقدناه.

نظرت له باستهانة، ثم هززت رأسي في استنكار وقالت:

-عما تتحدث أنت؟ الآن ترى للرجاء فائدة؟ لماذا لم ترحم رجاء يوسف ولدك، وتوسلات دينا طفلتك؟ أتنتظر مني رحمتك وتقبل رجائك؟ .. اسمح لي.. أنت مؤكد مخبول.. أي فرصة التي تتحدث عنها.. أتظن أنني قد أتقبل رؤيتك حيًّا يومًا آخر، فضلاً عن عودتنا؟ استسلم لنهايتك.. فأنت على شفا حفرة من الموت.. ونهايتك كتبتها أنت بيدك، لا أنا، ولك الفضل أيضًا في هذا.. فلم تتركني أجهد عقلي في أن أختار لك ميتة مناسبة.. ولو كنت حاولت دون مساعدتك ما كنت استطعت تدبير خطة أحكم وأعظم من تلك.. فكن فخورًا بنفسك لأنك ستموت بفضل دهائك وتخطيطك.

فقال متحديًا، وكأن هناك بصيص أمل لاح له:

- ولماذا تورطين نفسك في جريمة قتل، وفي استطاعتك أن تبلغي الشرطة، وتعطي لهم ما بين يديك من دليل إدانة ضدي؟

ابتسمت ساخرة، ثم قلت في لهجة لائمة:

- هل تراني حمقاء إلى هذه الدرجة؟!! الشرطة التي أخلت سبيلك رغم اتهام سارة لك في حادث اختفاء وسيم؟ عن أي شرطة تتحدث؟! لا لن

أتيح لك الفرصة للنجاة والإفلات من العقاب مرة أخرى.. ستكون تلك نهايتك.. ولن أخفيك سرًا.. موتك على يدي يشبعني بلذة الانتقام، ويسمح لي عند مقابلتي يوسف ودينا في نعيم الرب أن أرفع رأسي قائلة: "لا تحزنا موتكما لم يذهب سدى.. لقد أخذت بثأركما"، أتريد مني التضحية بذلك الفخر العظيم، وإعطاءك فرصة الحياة ليوم آخر؟!

- من أين لك بكل تلك السادية؟

- ألا تعلم حقًا؟!!.. ألم أخبرك بضرورة زهوك بحالك كونك صانعي؟!! هذه السادية التي ألهمتني إياها من خلال إبداعك في قتل وسيم.. أم أنك لم تر في طريقة موته سادية؟!! لقد تركت الرجل لستة أيام بلا ماء أو غذاء.. فأي إنسان أنت؟!!.. عفوًا لقد أخطأت في حقك.. فما أنت سوى مسخ.. قتلت طفليك متجاهلاً توسلاتهما.. ثم قتلت رجلاً كان تدخله في حياتنا لمساعدتنا في العثور على طفلينا.. ولكن ذلك لم يشفع له عندك لترحمه.

وأكملت بصوت يغلفه الحزن والأسى:

- بأي حق حرمتهم نعمة الحياة التي وهبها الرب لهم؟!!.. لماذا أزهقت أرواح قَدَّر القدير لها الوجود؟!! لماذا؟!!

فقال محاولاً التفسير:

- أنت مخطئة.. موت يوسف ودينا كان بأمر من الرب.. أما وسيم فقد دفع ثمن إقحام أنفه في حياتنا، وانتزاعه لفتيل استقرارها.. فاستحق ميتته عن جدارة.

مططت شفتي بازدراء ثم قلت:

- أنت حقًا مجنون.. أيّ رب الذي أوحي إليك بقتل أبنائك؟!!.. ألم تشك للحظة في كونك مريضًا؟!!.. ألم تفكر في الذهاب لأخذ رأي طبيب؟!!.. ولكن لا.. أنت ملهم ومنزه كما ذكرت في كتاباتك.. فكيف للمرض من سبيل إليك.. أليس كذلك؟! ولكن قُل لي.. كيف رأيت نفسك بعد موت طفليك؟! كيف استطعت الاستمرار؟!.. ووسيم ذلك الرجل الذي كان رمزًا للشهامة والمروءة.. تقتله بدم بارد لمحاولته مساعدتنا؟ أهذا جزاء صانع المعروف؟!!

لوّح بيده في إشارة تعني كفى وقال:

- أرجوك لا تبالغين.. تعلمين جيدًا أن وسيم السبب في توجيه سهام شكوكك نحوي.. وهو السبب المباشر في موقفي هذا..

-نعم.. عندك حق.. هو حقًا من أنار لي بصيرتي لأرى حقيقتك.. فله الفضل في تحقيق العدالة.

أنهيت جملتي، ثم صوّبت النار تجاه المولد الذي أطلق شرارة الاشتعال ثم ألقيت بالمسدس أرضًا وسط حالة من الاندهاش والذهول من جانبه.. وقبل أن يستوعب ما أقدم عليه كنت خارج الغرفة التي طفقت في الاشتعال، موصدة للباب خلفي بكل ما أوتيت من قوة، وظلت يداي معلقتين بالمقبض حتى أتأكد من عرقلته من الخروج.. ظل يصرخ بهستريا وهو يركل الباب قائلاً:

- لا يمكنك قتلي.. أنا إسرائيل العصر.. لم يحن أجلي.. لقد وعدني الرب بالمجد.. المجد ينتظرني.. المجد ينتظرني.. لا لن أموت.. لن أموت.. لن أمو...

وفي تلك اللحظة انطلقت من شفتاه صرخة نتاج ألم غير محتمل.. وحينها رأيت جذوة النار تزحف أسفل الباب فاستدرت للانصراف وهو مازال يعوي.

أسرعت للعودة إلى الغرفة التي قد تركني بها القبطان في انتظار انتشار خبر الاشتعال.. وبالفعل عند انتشار الخبر خرجت من الغرفة راسمة على وجهي إمارات الهلع والذعر، ومن ثَم أعلنت قدرتي على المساعدة من خلال انتقال الشباب إلى القارب الذي ينتظرني بجوار اليخت لإعادتي.. وبالطبع استجاب القبطان سريعًا وبدأ في تهدئة الموقف، ونقل الشباب بانتظام إلى القارب مع ملاحظته الدقيقة لاكتمال العدد في القارب قبل الابتعاد.. وبالطبع لم يعني بعدم تواجد بنيامين لعلمه بابتعاده عن اليخت مستخدمًا قارب النجاة قبل الاشتعال.. وبالفعل انتقلنا جميعًا إلى القارب في أقل من خمس دقائق، وابتعدنا تاركين خلفنا النيران تلتهم اليخت في نهم غير عابئين بشيء سوى النجاة بأنفسنا.

وعند وصولنا إلى الشاطئ، وقفت أرمق اليخت الذي تحوّل إلى جمرة نيران متأججة، تنبعث منها الأدخنة لتلامس عنان السماء في مشهد يَعِدُ بتحقيق العدالة الشِّعرية[٩].. وفي تلك اللحظة فقط استطعت أن أتنفس الصعداء.. الآن فقط حققت انتقامي.. الآن نال بنيامين ما استحقه من عذاب قبل موته.. فليس هناك ميتة أكثر إيلامًا من الإحراق حيًّا.

---

[٩] العدالة الشعرية : هي انتصار الخير على الشر في الأعمال الأدبية.

وفور عودتي إلى البيت أجريت اتصالاً هاتفيًّا بشركة الطيران لأحجز تذكرة على متن الرحلة المتوجهة إلى إيطاليا غدًا.. ثم هاتفت إخوتي هناك لأبلغهم بعودتي إلى أحضانهم، وترك ذلك البلد المشؤوم.

وما إن انتهيت حتى دلفت إلى غرفتي لإعداد حقيبتي استعدادًا للسفر غدًا.. وعند حلول المساء رن جرس الهاتف فأجبت متوقعة

أنها سارة.. فهي من تبقى لي الآن هنا في إسرائيل.. ولكن المتصل كان أحد أفراد أمن الشاطئ..

- مرحبًا سيدتي.. أريد التحدث إلى أحد أفراد أسرة الطفلين يوسف ودينا.

وعند لفظه لاسميهما سارت في جسدي رجفة، وتسرب شعور خفي إلى نفسي يحدثني بأن هناك أمرًا جللاً.

فأجبته بصوت مرتعش:

- نعم يا سيدي أنا والدتهما.. أهناك أخبار جديدة؟

- نعم.. لقد عثرنا على جثمانيهما أثناء مساعدتنا في إطفاء نيران تحت احتُرق اليوم.. لذا أرجو منك الحضور الآن إلى المشفى لتسلم الجثمانين.

قالها وأغلق الخط تاركًا إياي في حالة من الارتباك وعدم التصديق.. لماذا الآن.. وبعد مرور كل هذا الوقت؟! هل الأمر مرتبط بشكل ما بموت بنيامين؟!!.. هل حقًا كان ظهورهما مرتبط بدماء الشباب كما ذكر بنيامين في مذكراته، وحققت أنا ذلك بموته في المكان المحدد؟!.. علامات استفهام كثيرة انتزعتني من حالة اليقين لتلقي بي في أحضان الشك مرة أخرى.

هل كان حقًا بنيامين ملهمًا كما كان يظن؟! لا لا لا هذا كلام فارغ لا يمكن الاعتقاد به.. إلهي أنا في طريق العودة إلى دائرة الشك مرة أخرى.. فأجرني منها.. أرجوك.

استجمعت قواي ونهضت لارتداء ثيابي متوجهة إلى مشرحة المشفى. وأثناء طريقي إلى هناك استعدت يقيني مرة أخرى.. فلا يمكن أن أسمح لبنيامين أن يرثني إرثه من الشك والضلالات.. ستنتهي تلك القصة عند دفن يوسف ودينا، ولن أنبش وراء هواجسه وضلالاته ما حييت، وهذا عهدٌ قطعته على نفسي.. وبالفعل عند وصولي إلى المشفى سمح لي بالدخول إلى المشرحة من فوري للتأكد من هوية الجثمانين.

لن أصف لك عزيزي القارئ تلك اللحظة.. فقد مضت بكل ما تحمله من آلام وأوجاع.. وعلى الرغم من قسوتها فإنها أمست لا مفر منها.. فأنا اليوم الوحيدة القادرة على التعرف عليهما.

عدت إلى البيت عقب هذه المهمة القاسية فهاتفت شركة الطيران مرة أخرى لتأجيل الحجز إلى بعد غد، ثم هاتفت سارة لإبلاغها بظهور جثماني يوسف ودينا.. ولكنني بالطبع لم أخبرها شيئًا مما علمته من حقيقة موت وسيم، أو بما حدث مع بنيامين اليوم.. فهذا سري الذي سأحتفظ به لنفسي حتى أترك إسرائيل.

فهي سيدة مكلومة في زوجها، يستغرقها الحزن، ولذلك فقد تقدم على فعل يمسني بضر، وليس هناك ما يدعو لإثارة الضوضاء حولي قبل رحيلي.

ولكن بالطبع ما إن تطأ قدماي أرض إيطاليا سأهاتفها لإبلاغها على الفور.. فهي إلى الآن غير متأكدة من موت زوجها.. وليس هناك أقسى من غياهب الشك التي تسبح في أعماقها.. لقد مررت بتلك التجربة من قبل، ولن أتركها تعاني الأمل أكثر.

قضيت ليلتي أحاول استحضار مشهد دفن يوسف ودينا، حتى أعد نفسي لتقبل الأمر، فلا يمثل لي فجيعة كبرى غدًا، وبالطبع ظل عقلي يسترجع مشهد تضرع بنيامين لي لأعتقه من الموت، مما أطفأ نيران فقدي لطفلي وألمي لما آلت إليه حياتي.. وفي صبيحة اليوم التالي تلفحت بالسواد، وذهبت لأودع طفليّ في مراسم دفن صحبتني فيها سارة، صديقتي العزيزة، وعقب الانتهاء سألتني عن السبب وراء عدم حضور بنيامين لمراسم دفن طفليه.. فادعيت عدم عودته إلى البيت منذ ليلة أمس، إلى جانب إخفاقي في الوصول إليه حتى اليوم.

ودعتها عقب إبلاغها بسفري في صباح الغد، مبررة عدم جدوى مكوثي في ذلك البلد الملعون بعد الآن. فتقبلت وداعي بعينين دامعتين، على وعد بزيارتي في إيطاليا عقب اطمئنانها على زوجها.. أمّنت على حديثها بإيماءة، فلم أجد ما قد يُقال الآن لأريح قلبها.

وعند عودتي قرأت في الصحف خبر مفاده احتراق اليخت، وعثورهم على جثمان متفحم في غرفة المولدات التي أغلق بابها بإحكام.. وإلى الآن لم يستطيعوا تحديد هوية الجثمان، ولكن هناك اشتباه في كونه أحد العملاء ويدعي بنيامين شمعون، وقد صرح القبطان بأنه طلب منه استقلال قارب النجاة للبحث عن جثماني طفليه الغرقى وقد سمح له بالابتعاد عن

اليخت بقارب النجاة مراعاة لمشاعره، إلى جانب التوصية التي أبلغه بها نعوم مالك الشركة قبل الرحلة، وقد وُجد القارب فارغًا على بعد كيلو مترين من مكان الحادث بداخله ملابسه، ولذلك يَرى فريق البحث أن الحادث قد يحمل شبهه جنائية.

أنهيت قراءتي للخبر ثم حملت حقيبتي التي قد أعدتها أمس، وتركت البيت الذي لا تحمل لي جدرانه سوى أقسى الذكريات.

توجهت إلى أحد الفنادق لقضاء ليلتي الأخيرة في إسرائيل.. وفي الصباح كنت بالفعل على متن الرحلة المتوجهة إلى إيطاليا.

****

نوفمبر١٩٧٣
إيطاليا

اليوم فقط رأيت أحقيتي في نشر مذكرات إنسان ضحى بكل ما يملك، منتهيًا بحياته من أجل وهم يدعى مجد إسرائيل.

اليوم فقط لي حق التحدث، والكشف للعالم أجمع ما قد يفعله إنسان مهووس بمجد مزيف، قائم على سفك الدماء، وسلب الحقوق والحريات.. اليوم بعد أن تحققت نبوءتي بهزيمة إسرائيل على يد أعدائها شر الهزيمة.. وبعد تحطم أسطورة الجيش الإسرائيلي الذي لا يقهر التي كانت تتردد.

لقد انتهت أسطورة مجد إسرائيل، ومعها انتهت أحلام واهمين كُثر يذخر بهم العالم داخل إسرائيل وخارجها.. كما انتهت أسطورة مجد بنيامين الذي كان ينتظره ثمنًا لتضحياته من أجل هيمنتها.

فقد أطاح العرب في حرب العاشر من رمضان كما يدعوها المصريون، ويوم الغفران كما يدعوها الإسرائيليون بمجد إسرائيل، كاشفين حجمها الحقيقي أمام العالم أجمع.

واسمح لي عزيزي القارئ أن أسهب في وصف شعوري في ذلك اليوم، فهو من أغلى الأيام على قلبي، مثلي كمثل أية فتاة مصرية نبتت وتربت في أحضان وطنها الأم مصر.. فمنذ ولدت وإلى اليوم هويتي مصرية، لا أعرف سواها وطنًا.. ولم أستسغ عذوبة مياه سوى مياهها.. حتى الهواء له هناك عبق آخر لن أنساه ما حييت.. ولذلك فخبر نصر مصر على إسرائيل

له في قلبي وقع عظيم، طربت لسماعه أذناي.. فقد كنت أتمناه.. بل وأنتظره.

وقد انتابني شعور في ذلك اليوم ما كنت أتوقعه، وهو تمني رؤية وجه بنيامين بعدما كُسرت أنف إسرائيل- التي كان يزهو بها- أمام العالم.. وددت لو أرى نظرة الانهزام في عينيه بعدما تهاوى خط بارليف الدفاعي ، الذي كان يراه الحصن الحصين ويرى العرب جرذانًا لن يستطيعوا الاقتراب منه، فضلاً عن اختراقه.

اليوم وددت لو أستطيع الزهو أمامه بجيش وطني، الذي لن أعترف بغيره وطنًا.. أريد أن أفخر بتحقيق نبوءاتي التي كان يراها دربًا من الخيال.

ولكنه نال ما استحقه، وتوارى كما توارت أسطورة مجد إسرائيل وجيشها الذي لا يقهر في الوحل.. فلو لا تدخل الأمريكان بإنشاء جسر مع إسرائيل لإمدادها بالمعدات لانتهت إسرائيل، ومحت من على ظهر خارطة العالم، ولاسترد الفلسطينيون أراضيهم.. ولعاد العالم العربي ينعم بالسلام الذي حُرم منه بأمر من قادة العالم الغربي، ولكان تم وضع نقطة تمثل النهاية في تاريخ الصراع العربي الإسرائيلي.

ولكن تلك هي الحياة تعطي الأقوى عجلة القيادة، وأمريكا هي الآن الأقوى، ومصلحتها تتمثل في أن يظل الوطن العربي في دائرة الصراع التي لا فكاك منها.

ولذلك ستظل تدعم إسرائيل لتكون الشوكة في ظهر العرب إلى يوم يبعثون.

لك الرب يا مصر.

أما بالنسبة لي، فبعد وصولي إلى إيطاليا بيوم واحد أجريت اتصالاً هاتفيًّا بسارة، وقصصت عليها ما أعلمه عن حقيقة اختفاء زوجها وسيم.. وبالطبع لم أعلمها بطريقة الموت التي اختارها له بنيامين حتى لا أدمي قلبها أكثر، ولكنني اكتفيت بإعلامها بموته على يد بنيامين، الذي فقدت يوسف ودينا على يده أيضًا.

ثم أخبرتها بالطريقة التي علمت بها الحقيقة.. والتي للأسف كانت بعد فوات الأوان.. فاشتعلت جوارحها بحزن دفين، وأذرفت الكثير من الدمع.. فعلى الرغم من اختفائه فترة ليست بهينة، فإنها ظلت تنتظره، محاولة إقناع نفسها بأنه سافر وأغفل إعلامها، ولن يلبث أن يعود قريبًا.

وقد اختلق عقلها هذه الفكرة رأفة بها.. ليتدرج الواقع بصورة تحفظها من أن تفقد اتزانها.. ولكن لا بد لها من معرفة الحقيقة مهما كانت قاسية.. فلن أتركها تخدع نفسها أكثر، متوهمةً عودته في أية لحظة.. فما فقدناه لن يعوض.. وتلك هي الحقيقة التي يجب علينا التعايش معها.. بالطبع ستتألم كثيرًا، إلى أن تفقد مخزونها من الألم.. وبعدها ستواجه الحياة وهي أقوى وأقسى من ذي قبل.. فهذه هي نقطتها الفاصلة، كما أن فقدي طفليّ نقطتي الفاصلة، التي بُعثت عقبها خلقًا آخرَ.. ستحتاج بعض الوقت لا ريب.. وقد يكون أكثر قليلاً مما استهلكته، وذلك لطبيعتها الحالمة الرقيقة.. فوسيم كان يمثل لها كل شيء في دنيتها.. واليوم ستجد نفسها مطالبة بتقبل عدم رؤيته مرة أخرى، وهذا بالطبع سيفقدها الكثير من سلامها النفسي.. ولكن عزائي في ذلك وجود عائلتها معها في إسرائيل،

فستجد من يحنو عليها.. وأنا أيضًا لن أتركها في محنتها، سأظل أعمل على مواساتها في مصيبتها.

وبعد مضي عدة أيام وجدتها تهاتفني والفرحة تحملها من على ظهر البسيطة.. وعند سؤالي عن سبب ابتهاجها، أخبرتني بما نشرته الصحف الإسرائيلية من خبر مفاده أن فريق البحث الجنائي استطاعت التوصل لهوية الجثمان الذي وجد محترقًا داخل غرفة المولدات.. والذي يعود لبنيامين شمعون.. وإلى جانب تأكد فريق البحث من كون الحادث جريمة مدبرة من قبل المذكور، الذي سعى من خلالها إلى اغتيال الشباب الذين كانوا متواجدين على متن اليخت.. ولكنه فشل في الهرب قبل أن تضرم النيران.. حيث أُغلق عليه الباب، ولم يتمكن من فتحه فاشتعلت به النيران.

بالطبع اصطنعت المفاجأة.. وأظهرت في نبرات صوتي الاندهاش كي لا أثير ريبتها.. وعقبت بأنه نال ما استحقه من عقاب على أفعاله الشنعاء، ودم يوسف ودينا ووسيم لم يذهب سدى.

ثم أخبرتني أن الشرطة قامت باستدعائها لسؤالها عني، لضرورة حضوري كي أتسلم ميراثي.

واتبعت بسؤالي عن إمكانية العودة إلى إسرائيل للحصول على ميراثي من تركته وإتمام الإجراءات.. فأجبتها بأنني لا أريد منه شيئًا، وبأنني سأرسل لها توكيلاً رسميًّا لتتسلم التركة كاملة كي تتبرع بها لمرضى الأطفال في أرجاء العالم.. علّني أنقذ حياة أحدهم فأعيده إلى أحضان والديه لتقر عينهما لرؤيته.

واليوم وبعد مضي أربعة أعوام على هجرتي من إسرائيل، استطعت أن أنعم وسط أحضان عائلتي بحياة هادئة، تظللها السكينة والطمأنينة، اللتان افتقدتهما طوال العقد البائد مع بنيامين.. هذا إلى جانب محاولاتهم المستمرة والمستميتة لإدخال الضوء إلى روحي مرة أخرى.. ولكن مع هذا ظلت بداخلي فجوة كاحلة لن تتمكن الشمس ذاتها من إنارتها.

فعلى الرغم من استشارتي لأحد الأطباء النفسيين الكبار في إيطاليا فيما أقدم بنيامين على اقترافه من جرائم، وتأكيده على أنه كان يعاني مرضًا جعله يتصور سماع الأصوات وترجمتها على أنها توجيه إلهي، وبهذا فقد يكون غير مسئول عن أفعاله مسئولية كاملة، فإن عقلي أبى أن يبرّئ بنيامين من جرائمه الشنعاء، ولم أسمح بأن يتخلل قلبي مثقال ذرة شعور بالشفقة تجاهه، أو أن ألوم نفسي على انتقامي منه.. نعم لقد تدنست روحي بدمائه، ولن تعود لسابق عهدها ثوبًا ناصع البياض، ولكن ما كان أمامي سوى الأخذ بثأري، وإن عادت لحظة قتله مرة أخرى، فلن أتردد في إعادتها بكل تفاصيلها، فهذا قدري، ولا بد أن أتقبله بنفس راضية.

فكلما راودني شعور بإعادة التفكير فيما أقدمت على فعله، تذكرت يوم الحادث، وما كان منه من إصرار على استكمال ما بدأه من محاولة قتله طفليه، متجاهلاً توسلاتهما كي يعتقهما، مستبدلاً بقلبه حجرًا، لا يرحم ولا يذر، وحينها أشعر بأنني إن أتيحت لي فرصة تكرار مشهد قتله، فما ترددت لحظة.

ستمضي السنون وتتعاقب، ولكن جرحي لن يندمل.. ويزيد من آلامي جثمانا طفليّ اللذين تواريا في تلك الأرض الملوثة بالدماء.. ولكن عزائي

الوحيد النظر إلى السماء، فما دفن في الأرض الجسد الفاني.. ولكن روحهما تنتظرني في ملكوت الرب إلى أن يحين أجلي.. والذي أرجو من الرب التعجيل به، لأنعم برؤيتهما، ونحيا في نعيمه بسلام، لم يتح لنا نيله على أرض الشقاء.

وهأنذا أنتظر.

الفهرس

بقلم بنيامين... .... ٥

الفصل الأول ٧

الفصل الثاني ٢٠

الفصل الثالث ٢٥

الفصل الرابع ٣٤

الفصل الخامس ٤٢

الفصل السادس ٦٠

الفصل السابع ٦٧

الفصل الثامن ٧١

الفصل التاسع ٨٠

الفصل العاشر ٨٥

الفصل الحادي عشر ٩٩

الفصل الثاني عشر ١٠٥

الفصل الثالث عشر ١١٠

الفصل الرابع عشر ١١٣

الفصل الخامس عشر ١٢٥

الفصل السادس عشر ١٣٠

الفصل السابع عشر ١٣٧

الفصل الثامن عشر ١٣٩

الفصل التاسع عشر ١٤٠
الفصل العشرون ١٤٨
الفصل الحادي والعشرون ١٥٦
الفصل الثاني والعشرون ١٦٣
الفصل الثالث والعشرون ١٦٥
الفصل الرابع والعشرون ١٦٩
الفصل الخامس والعشرون ١٧٧
الفصل السادس والعشرون ١٨٠
الفصل السابع والعشرون ١٨٧
الفصل الثامن والعشرون ١٩٠
الفصل التاسع والعشرون ١٩٥
الفصل الثلاثون ٢٠٤
الفصل الحادي والثلاثون ٢٠٦
الفصل الثاني والثلاثون ٢١١
بقلم راشيل... .... ٢٢٥
الفصل الثالث والثلاثون ٢٢٦
نوفمبر١٩٧٣ .... ٢٦٠
إيطاليا ٢٦٠